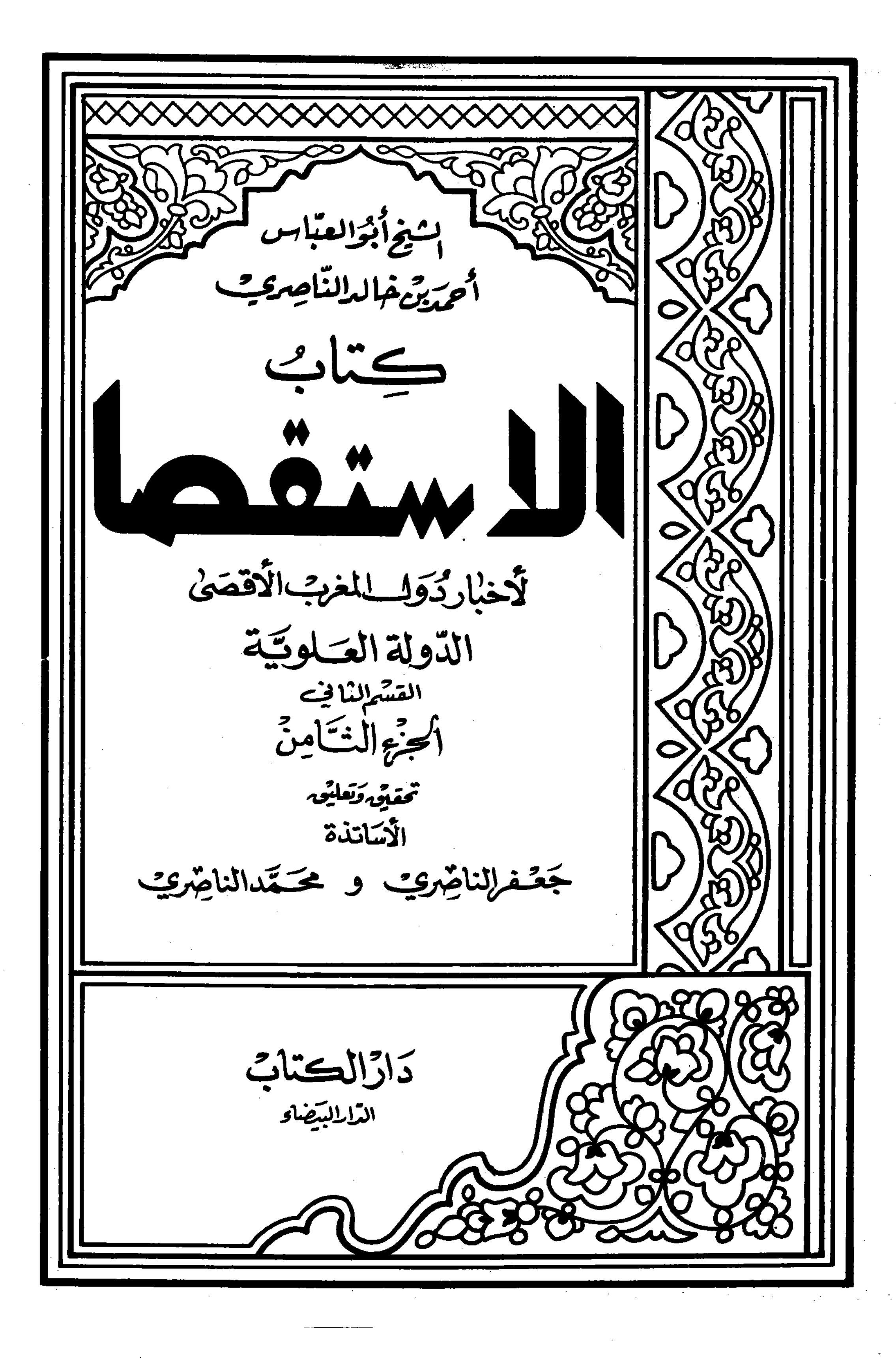


الشيخ أبو العبّاس
أحمد بن خالد النّاصري

# كتاب الاستقصا

## لأخبار دول المغرب الأقصى

### الدّولة العلويّة

القسم الثاني

الجزء الثامن

تحقيق وتعليق
الأساتذة
جعفر الناصري و محمّد الناصري


دار الكتاب
الدار البيضاء

ساحة المسجد المحمدي
الدار البيضاء
1418هـ/ 1997م
رقم الإيداع القانوني والدولي
1399/96

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

# الدولة العلوية

## القسم الثاني

## الخبر عن دولة أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد اللّه رحمه الله

لما توفي أمير المؤمنين المولى عبد اللّه بن إسماعيل في التاريخ المتقدم أعني السابع والعشرين من صفر الخير سنة إحدى وسبعين ومائة وألف، كان الناس قد سئموا الهرج والفتن، وأعياهم التفاقم والاضطراب، وملوا الحرب وملتهم، إذ كانت أيامه لاسيما أخرياتها كأيام الفترة التي ليس فيها سلطان، وكانت حال الرعية معه مثل الفوضى الذين لا وازع لهم، فكان ذلك من أقوى الأسباب التي صرفت وجوه أهل المغرب كله إلى بيعة السلطان سيدي محمد رحمه الله، وجمعت كلمتهم عليه، لاسيما مع ما كان قد ظهر منه أيام خلافته من حسن السياسة، وكمال النجدة، وجودة الرأي، وتمام المعرفة بإدارة الأمور على وجهها، وإجرائها على مقتضى صوابها، حتى أحبته القلوب وعلقت به الآمال، وعرفت له من بين بني أبيه تلك الشنشنة، وتضافرت على ولائه ونصره القلوب والألسنة، فلما قضى الله بوفاة والده بادر أهل فاس إلى عقد البيعة له من غير توقف ولا تريث.

قال ولده الفقيه أبو محمد المولى عبد السلام بن محمد بن عبد اللّه في كتابه المسمى «بدرة السلوك»: بويع لمولانا الوالد السلطان الأعظم سيدي محمد بن عبد اللّه البيعة العامة الصحيحة التامة وحضرها جماعة من أعيان

العلماء مثل قاضي الجماعة بمكناسة السيد سعيد العميري وقاضي الجماعة بفاس السيد عبد القادر أبي خريص وشيخ الجماعة بها السيد محمد بن قاسم جسوس، والإمام المحقق حامل لواء المعقول والمنقول الشيخ أبي حفص عمر الفاسي، وابن عمه السيد أبي مدين الفاسي، وهو الذي تولى كتابة البيعة بيده، وإمام جامع الشرفاء بفاس الأستاذ المولى عبد الرحمٰن المنجرة، والشيخ العلامة السيد التاودي ابن سودة المري، وإمام المسجد الكبير بفاس الجديد السيد عبد اللّه السوسي، والإمام الحافظ السيد أبي العلاء إدريس العراقي، وغيرهم ممن لا يحصى كثرة.

وقوله في قاضي مكناسة، السيد سعيد العميري، صوابه ابنه أبو القاسم العميري.

ووصل الخبر بموت السلطان المولى عبد اللّه إلى ابنه سيدي محمد وهو بمراكش، فأقام مأتمه وازدحم على بيعته أهل مراكش، وقبائل الحوز والدير، وقدمت عليه وفود السوس وحاحة بهداياهم، ثم قدم عليه العبيد والودايا وأهل فاس من العلماء والأشراف وسائر الأعيان، وقبائل العرب والبربر والجبال وأهل الثغور كل ببيعته وهديته، لم يتخلف عنه أحد من أهل المغرب، فجلس للوفود إلى أن فرغ من شأنهم وأجازهم، وزاد العبيد بأن أعطاهم خيلاً كثيرة وسلاحاً كثيراً عرفوا بها محلهم من الدولة وانقلبوا مسرورين مغتبطين.

## مجيء السلطان سيدي محمد بن عبد اللّه عقب البيعة من مراكش إلى فاس وما اتفق له في ذلك

لما فرغ أمير المؤمنين المولى محمد رحمه الله من أمر الوفود أخذ في الاستعداد للنهوض إلى الغرب، فخرج من مراكش في عسكر الحوز ووجوهه، حتى انتهى إلى مكناسة، فدخل دار الملك بها وفرق على العبيد الخيل والسلاح والمال، وكانوا على غاية من سوء الحال والاستكانة لغلبة البربر، إذ كانوا يتخطفون أولادهم من البحائر والجنات، ويبيعونهم في

قبائلهم كما قلنا، فجبر الله صدعهم بولاية هذا السلطان الجليل.

ثم لما قضى إربه من مكناسة ارتحل إلى فاس، ولما نزل في عساكره بالصفصافة خرج لملاقاته الودايا وأهل فاس، فهش للناس وألان جانبه لهم، واختلط بهم، فكانوا يطوفون به ويقبلون أطرافه، ولا يمنعهم أحد، وفرق المال والكسوة والسلاح في الودايا وعبيد السلوقية، وأعطى الفقهاء والأشراف وطلبة العلم وأهل المدارس والمكتبيين والأئمة والمؤذنين والفقراء والمساكين، وأزاح علل الجميع، ولم يحرم أحداً، ولما حضرت الجمعة جاء من المحلة في ترتيب حسن، وزي عجيب، فخرج أهل البلدين لرؤيته وامتلأت الأرض من العساكر والنظارة، ودخل فاساً الجديد فصلى به الجمعة، ثم جلس لفقهاء الوقت وسأل عنهم واحداً واحداً حتى عرفهم، ثم خرج إلى تربة والده فزارها، وأمر بتفريق الصدقات عندها، وترتيب القراء بها، ثم دخل إلى دار الحرم فوقف على من بها من أخواته، وعزاهن في مصاب والدهن، وطيب نفوسهن، ثم رجع عشية النهار إلى المحلة فبات بها، ومن الغد جاء إلى دار الدبيبغ، فدخلها ووقف على متخلف والده، من مال وأثاث وسلاح وخيل، إلى أن عاينه وأحصاه، وأبقى ذلك بيد من كان بيده من أصحاب والده، وأوصاهم بالاحتفاظ به بعد أن جعل الجميع إلى نظر الحاجب أبي محمد عبد الوهاب اليموري، وعامل أصحاب أبيه بالجميل وخفض لهم الجناح، وألان لهم القول، ووصلهم بمال اقتسموه فيما بينهم، ثم بعد ذلك حاز منهم ما كان بأيديهم من مال والده، فكان أكثره ذهباً، من ذلك ألف خرج وتسميه المغاربة السماط من الجلد الفيلالي بأقفالها، في كل واحد ألفا دينار بالتثنية من ضربه، وكانت تكون على سروج خيله في السفر، فإذا نزل الجيش وضربت الأخبية رفعها الموكلون بها، كل واحد اسمه وعينه إلى القبة السلطانية، وعند الرحيل كذلك تدفع لهم بالإحصاء والتقييد، ومن ذلك مائة رحى من الذهب الخالص كقرص الشمع، في كل رحى وزن أربعة آلاف ريال، وكانت تكون محمولة على البغال، في أعدالها مغطاة بالقطائف المسماة عند المغاربة بالحنابل، مشدوداً عليها بالحبال، أربع أرحاء في كل

عدلين، فالمجموع خمس وعشرون بغلة تسير أمامه فإذا نزل الجيش رفعت إلى القبة السلطانية كالذي قبلها.

وكان السلطان المولى عبد الله رحمه الله يرى ذلك من الحزم حيث يحمل ماله معه أينما سار لا يفارقه، ومما وجده سيدي محمد من مال والده أيضاً ثلاثمائة ألف ريال إلا خمسة عشر ألفاً، ووجد نحو العشرين ألفاً من الموزونات الدقيقة من ضرب سكته، هذا ما خلفه رحمه الله من المال الصامت، وكان يكون على يد القائد علال بن مسعود من وصفانه، فحاز ذلك كله أمير المؤمنين سيدي محمد ونقله إلى محلته، ووكل به وزعته، وتقدم إلى أصحابه بأن يعاملوا أصحاب أبيه بالتوقير والاحترام، ونظمهم في سلك خدمته، فمن ظهرت نجابته أدناه، ومن لا عبرة به أقصاه.

ثم وفد عليه بفاس عامة قبائل الغرب وازدلفوا اليه بالهدايا والتحف فأكرم كلاًّ بما يناسبه، وكان في ابتداء أمره سهل الحجاب، رفيقاً لم يعزل أحداً من قواد القبائل، وعمال الحواضر الذين كانوا في دولة أبيه في حكم الاستبداد، بل أبقى ما كان، ولم ينكب أحداً إلا بعد الاستبراء والاختبار، غير أن أهل تطاوين كان قائدهم أبو عبد الله محمد بن عمر الوقاش منحرفاً عنه أيام خلافته بمراكش، فكان إذا كتب اليه بأمر نبذه وراء ظهره، وربما قال للرسول: «المرأة لا تتزوج برجلين» أو كلاماً يشبه هذا، يعني أنه مجبور لطاعة السلطان المولى عبد الله.

فلما بويع السلطان سيدي محمد وقدم حضرة فاس انقبض عنه الوقاش المذكور، وعاذ بضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش بماله وولده خوفاً على نفسه من السلطان لسوء ما قدم، ثم قدم عليه أهل تطاوين طائعين متنصلين من فعل عاملهم المذكور ومخبرين بشأنه، فولى السلطان عليهم الفقيه أبا محمد عبد الكريم بن زاكور أحد كتّابه، كان بعثه من مراكش إلى العرائش والياً عليها، فلما وفد عليه أهل تطاوين ولاه عليهم لكونه حضرياً مثلهم، وأقام السلطان سيدي محمد رحمه الله بفاس شهرين، وعاد إلى مكناسة والله أعلم.

# إحداث المكس بفاس وبسائر أمصار المغرب وما قيل في ذلك

لما بويع السلطان سيدي محمد بن عبد اللّه رحمه الله وقدم حضرة فاس رفع اليه أهلها ما كانوا يؤدونه إلى والده المولى عبد اللّه مما كان موظفاً على الموازين، كميزان سيدي فرج، وميزان قاعة السمن وميزان قاعة الزيت، وغير ذلك، وقدره ثلاثمائة مثقال في كل شهر، يجب فيها لكل سنة ثلاثة آلاف مثقال وستمائة مثقال.

فلما حضر فقهاء فاس عند السلطان سيدي محمد كلمهم في شأنها حتى يكون الأمر فيها مسنداً إلى فتوى الفقهاء، فقالوا: إذا لم يكن للسلطان مال جاز له أن يقبض من الرعية ما يستخدم به الجند، فأمرهم أن يكتبوا له في ذلك، فكتبوا له تأليفاً اعتمده السلطان ووظف على الأبواب والغلات والسلع، وكان ممن كتب له في ذلك العلامة الشيخ التاودي ابن سودة، والعلامة الشيخ أبو عبد اللّه محمد بن قاسم جسوس، والإمام أبو حفص عمر الفاسي، والفقيه الشريف أبو زيد عبد الرحمٰن المنجرة، والفقيه أبو عبد اللّه محمد بن عبد الصادق الطرابلسي، والفقيه القاضي أبو محمد عبد القادر أبو خريص وغيرهم، فاعتمد السلطان على فتواهم ووظف ما ذكرناه آنفاً.

واعلم أن أمر المكس مما عمت به البلوى في سائر الأقطار والدول منذ الأعصار المتطاولة، والسنين الأول، فلا بأس أن نذكر ما حرره العلماء في ذلك فنقول: قد تكلم على ذلك الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي رضي الله عنه في كتابه «شفاء الغليل» بما نصه: «فإن قال قائل توظيف الخراج على الأرض ووجوب الارتفاقات مصلحة ظاهرة لا تنتظم أمور الولاة في رعاية الجند والاستظهار بكثرتهم وتحصيل شوكة الإسلام إلا به، ولذلك لم يلف عصر خالياً عنه والملوك على تفاوت سيرهم، واختلاف أخلاقهم، تطابقوا عليه ولم يستغنوا عنه، فلا تنتظم مصلحة الدين والدنيا إلا بإمام مطاع، ووالٍ

متبع يجمع شتات الإيمان، ويحمي حوزة الدين وبيضة الإسلام، ويرعى مصلحة المسلمين وغبطة الأنام، ولا يستتب ذلك إلا بنجدته وشوكته وجنوده وعدته فيهم مجاهدة الكفار، وحماية الثغور، وكف أيدي الطغاة المارقين، ومنعهم من مد الأيدي إلى الأموال والحرم والأزواج، فهم الحراس للدين عن أن تنحل دعائمه، وتتخاذل قواه، بتوغل الكفار في بلاد المسلمين، وهم الحماة للدنيا عن أن يختل نظامها بالتغالب والتسالب والتواثب من طغام الناس، بفضل العرامة والباس، ولا يخفى عليكم كثرة مؤنهم واستيعاب حاجاتهم في نفوسهم وعيالهم، والمرصد لهم خمس الخمس من الغنائم والفيء، وذلك مما يضيق في غالب الأمر عن الوفاء بخراجاتهم والكفاية لحاجاتهم، وليس يعم ذلك الا بتوظيف الخراج على الأغنياء، فإن كنتم تتبعون المصالح فلا بد من الترخيص في ذلك مع ظهور المصلحة».

قلنا: الذي نراه جواز ذلك عند ظهور المصلحة، وإنما النظر في بيان وجه المصلحة فنقول أولاً: التوظيف في عصرنا هذا مزاجه ومنهاجه ظلم محض لا رخصة فيه، فإن آحاد الجند لو استوفيت جراياتهم، ووزعت على الكافة لكفتهم برهة من الدهر، وقدراً صالحاً من الوقت، وقد شمخوا بتنعمهم وترفههم في العيش وإسرافهم في إفاضة الأموال على العيارة ووجوه التجمل على سائر الأكاسرة، فكيف يقدر احتياجهم إلى توظيف خراج لإمدادهم وإرفاقهم، وكافة أغنياء الدهر فقراء بالإضافة اليهم، فأما لو قدرنا إماماً مطاعاً مفتقراً إلى تكثير الجند لسد الثغور، وحماية الملك بعد اتساع رقعته، وانبساط خطته، وقد خلا بيت المال عن المال، وأرهقت حاجة الجند إلى ما يكفيهم وخلت عن مقدار كفايتهم أيديهم، فللإمام أن يوظف على الأغنياء ما يراه كافياً لهم في الحال إلى أن يظهر مال في بيت المال، ثم إليه النظر في توظيف ذلك على وجوه الغلات والارتفاقات، بحيث لا يؤدي تخصيص بعض الناس به إلى إيغار الصدور، وإيحاش القلوب، ويقع ذلك

قليلاً من كثير، ولا يجحف بهم، ويحصل به الغرض.» ثم استدل الشيخ أبو حامد رضي الله عنه لذلك من النقل والعقل بما يطول جلبه.

وقال في كتابه «المستصفى» ما نصه: «إن قيل توظيف الخراج من المصالح فهل إليه من سبيل؟ قلنا: لا سبيل إليه مع كثرة الأموال في أيدي الأجناد، أما إذا خلت الأيدي ولم يكن في بيت المال ما يفي بخراجات العسكر ولو تفرقوا واشتغلوا بالكسب لخيف دخول الكفار بلاد الإسلام، فيجوز للإمام أن يوظف على الأغنياء مقدار كفاية الجند، ثم إن رأى في طريق التوزيع التخصيص بالأراضي فلا حرج، لأنا نعلم أنه إذا تعارض شرّان وضرران وجب دفع أشد الضررين وأعظم الشرين، وما يؤديه كل واحد منهم قليل بالإضافة إلى ما يخاطر به من نفسه وماله، ولو خلت خطة الإسلام عن ذي شوكة يحفظ نظام الأمور ويقطع مادة الشرور لفسدت الأرض ومن عليها.» وقوله على الأغنياء يريد من له قدرة وطاقة على دفع شيء لا يجحف به، ووقع في جواب للقاضي أبي عمر بن منظور رحمه الله «إن لضرب الخراج وتوظيفه على المرافق شروطاً، الأول منها: أن يعجز بيت المال وتتعين حاجة الجند، فلو كان في بيت المال ما يقوم به لم يجز أن يفرض على الرعية شيء، قال ﷺ: **«لا يدخل الجنة صاحب مكس»**، وهو إغرام المال ظلماً. ثانيها: إن الإمام يتصرف فيه بالعدل، فلا يجوز له أن يستأثر به دون المسلمين، ولا أن ينفقه في سرف، ولا أن يعطي من لايستحق، ولا أن يعطي أحداً أكثر مما يستحق. ثالثها: أن يصرفه في مصروفه بحسب المصلحة والحاجة، لا بحسب الشهوة والغرض، وهذا يرجع إلى الثاني. رابعها: أن يكون الغرم على من يكون قادراً عليه من غير ضرر ولا إجحاف، ومن لا شيء له أو له شيء قليل فلا يغرم شيئاً خامسها: أن الإمام يتفقد هذا في كل وقت، فربما جاء وقت لا يفتقر فيه إلى زيادة على مافي بيت المال، وكذلك إذا تعينت المصلحة في

المعونة بالأبدان ولم يكف المال فإن الناس يجبرون على التعاون بأبدانهم على الأمر الداعي للمعونة بشرط القدرة، وتعين المصلحة والافتقار إلى ذلك» انتهى المقصود منه والله تعالى أعلم.

## مقتل أبي الصخور
## الخمسي وما كان من أمره

لما رجع السلطان محمد بن عبد اللّه من فاس إلى مكناسة أقام بها يسيرا ثم خرج إلى جبال غمارة بسبب ما بلغه عن المرابط أبي عبد اللّه محمد العربي الخمسي المعروف بأبي الصخور، وكان له صيت وشهرة بقبائل الجبل وكان يظهر التنسك والعبادة ويزعم: أنه يستخدم الجن، فكان للعامة فيه اعتقاد كبير، ثم صار يقول للناس: «هذا السلطان لا تطول مدته» فأخذه السلطان وقتله وبعث برأسه إلى فاس، وولى على قبائل غمارة والأخماس وتلك النواحي الباشا العياشي، وأنزله بمدينة شفشاون، وقفل إلى مكناسة فدخلها مريضاً فاتح محرم سنة اثنتين وسبعين ومائة وألف، فقال المرجفون: ما أصابه المرض إلا من قتله لأبي الصخور، وقالوا: إنه قد صدق في قوله لا تطول مدته، فعافى الله السلطان، وأكذب ظن الشيطان، وأقام السلطان بمكناسة إلى أن انسلخ المحرم ودخل صفر، فعاد إلى مراكش بعد أن أمر بنقل عبيد السلوقية إلى مكناسة، وضمهم إلى إخوانهم، واستصحب معه إلى مراكش من رجالتهم ألفاً، فلما دخلها أعطاهم الخيل والسلاح والكسي، وعادوا إلى مكناسة، ثم قدم عليه منهم ألف آخر فأركبهم وكساهم، واستمر حاله معهم على هذا إلى أن استوفوا خيلهم وسلاحهم وكساهم، ولم يسألهم عما كان في أيديهم أيام الفترة.

# خروج السلطان سيدي محمد بن عبد اللّه إلى الثغور وتفقده أحوالها

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف فيها خرج أمير المؤمنين المولى محمد بن عبد اللّه من مراكش، فقدم مكناسة وفرق الراتب على العبيد بها، وبعث إلى الودايا راتبهم وأمرهم بالنهوض معه للتطواف على الثغور البحرية من بلاد المغرب.

فخرج من مكناسة حتى أتى مدينة تطاوين فنزل بها، وأمر ببناء برج مرتيل الذي بها، وفرق المال على العبيد المقيمين به منذ أيام السلطان إسماعيل، وهم بقية عبيد سبتة أعني الذين كانوا يرابطون عليها، فإنه لما انحل نظام الملك بموت المولى إسماعيل وتفرق العبيد المرابطون على سبتة فلحقت كل طائفة منهم بقبيلتها التي جلبت منها بقي هذا الألف الذي لا قبيلة له هنالك، فنقلهم أبو حفص الوقاش إلى مرتيل، وأحسن إليهم وصار يدفع بهم في نحر من يريده بمكوره من القبائل المجاورة له.

ثم رحل السلطان من تطاوين إلى طنجة، وجعل طريقه على سبتة، فمر بها ووقف عليها ونظر إلى حصانتها ومناعتها، وتحقق أن لا مطمع فيها إلا بالجد، وأمر العسكر الذين حوله بإخراج دفعة من البارود، وتسميها العامة حاضرونا ففعلوا، وأجابهم النصارى بمثل ذلك بالمدافع والكور حتى تزلزلت الجبال، فعجب السلطان من ذلك، وما كان قصده بهذه السفرة إلا الوقوف على سبتة واختبار حالها لأنه لم ينظر إليها بعين التأمل والاختبار في المرة الأولى، فلما تبين له حالها أرجأ أمرها إلى يوم ما، وأوصى أهل آنجرة بتعيين حصته من الرماة لحراسة نواحيها والوقوف على حدودها، وبذل لهم مالاً يستعينون به على ذلك، ثم سار إلى طنجة فنزل قريباً منها، وخرج إليه أعيانها ورؤساؤها من أهل الريف بقضهم وقضيضهم يتقدمهم باشاهم عبد الصادق بن أحمد بن علي الريفي، كان قد قدم عليه بمراكش أيام خلافته

بها، فلما مثلوا بين يدي السلطان في هذه المرة أكرمهم وفرق المال والكسيّ فيهم، وأمر الباشا عبد الصادق أن يبعث أخاه عبد الهادي للوقوف على إنشاء الغلائط بتطاوين.

ثم سار السلطان رحمه الله إلى العرائش فألفاها خالية ليس بها إلا نحو المائتين من أهل الريف تحت كنف أهل الغرب، فولى عليها عبد السلام بن علي وعدي، ثم أنزل بها مائة من عبيد مكناسة.

ثم سار إلى سلا فعبر الوادي ونزل برباط الفتح وأقام به أياماً وأمر قائده أبا الحسن علياً مارسيل أن يبني صقالة أي برجاً كبيراً على البحر، وأمر قائد سلا عبد الحق فنيش أن يبني مثلها بسلا على البحر مقابلتها، ثم أمر بإنشاء سفينتين إحداهما لأهل سلا والأخرى لأهل رباط الفتح، وكانت عندهم سفينة واحدة مشتركة بينهم أنشؤوها أيام الفترة، وفيها كانوا قد خرجوا إلى حصن آكادير، ومنه بعثوا وفدهم إلى سيدي محمد بن عبد الله وهو يومئذ خليفة بمراكش، فأكرم الرسل وبعث معهم مالاً كثيراً إلى المجاهدين بالعدوتين، وفي مدة مقامه برباط الفتح هذه المرة صرف جيش العبيد والودايا إلى بلادهم، وسار هو إلى مراكش، ولما احتل بها كتب إلى تجار النصارى بآسفي، يأمرهم أن يشتروا له إقامة المراكب القرصانية من صواري ونطاقات، وقمن، ومخاطيف، وحبال، وقلوع، وبتاتي، وغير ذلك؛ فتنافسوا في شراء ذلك وازدلفوا إلى السلطان بجلبه وانتخابه، ثم استقدم جراطين الصحراء الذين بالرتب، وتافيلالت، وهم الجبابرة والمعاركة وأولاد أبي أحمد، لما بلغه عنهم من أنهم يعينون عمه المولى الحسن على محاربة الأشراف الذين هنالك، فنقلهم إلى مكناسة وأعطاهم الكسوة والسلاح، وكتبهم في ديوان الجيش.

وفي هذه السنة وصل الخبر بموت المولى المستضيء بن إسماعيل بتافيلالت كما مر.

# إيقاع السلطان سيدي محمد بن عبد اللّه بالودايا والسبب في ذلك

كان هؤلاء الودايا أحد أركان العسكر الإسماعيلي حسبما تقدم، وكان المولى إسماعيل رحمه الله قد اعتنى بشأنهم وأخذ بضبعهم وجمعهم بعد الفرقة وأغناهم بعد العيلة، وأسكنهم فاساً الجديدة وأعماله، فاستوطنوه وألفوه، وصاروا هم أهله بين سائر الجند، فكان لهم في الدولة الغناء الكبير، واتخذوا الدور والقصور، وتوالت عليهم بالعز وإباية الضيم السنون والشهور.

ولما توفي رحمه الله كانوا بفاس الجديد على غاية من تمام الشوكة وكمال العصبية، وقد ملكوا أمر أنفسهم على الدولة، وغلظت قناتهم على من يريد غمزها من أهلها، فكانت أحكام الملوك من أولاد المولى إسماعيل لا تمضي عليهم، سيما مع ما حازوه من شرف الخؤلة للسلطان المولى عبد اللّه الذي هو أكبرهم قدراً وأعظمهم صيتاً، وكان شأنه معهم أن يستكثر بهم تارة وعليهم أخرى. والفتن فيما بين ذلك قائمة حسبما مر شرح ذلك مستوفى.

فلما كانت أواخر دولة السلطان المولى عبد اللّه وهلك محمد واعزيز كبير البربر افترقت آيت أدراسن، وجروان، ووقعت الحرب بينهم مرتين أعان فيها الودايا جروان، وألحوا على آيت أدراسن بالنهب والقتل حتى أجلوهم من تلك البلاد.

ثم لما بويع السلطان سيدي محمد انحاز إليه آيت أدراسن، إذ هم شيعة أبيه أيام محمد واعزيز، فولى عليهم ولد محمد واعزيز وأنزلهم بأحواز مكناسة إذ كان عالماً بما ناله من جروان. والودايا وتظاهرهم عليهم. واشتغالهم مع ذلك بإفساد السابلة وقبض الخفارات عليها، وكان رئيسهم لذلك العهد رجلاً يقال له: جبور لصاً مبيراً، فآخى السلطان سيدي محمد بين آيت أدراسن وآيت يمور، وحالف بينهم وأوصى عامله على مكناسة

بهم، وتقدم إلى جروان بالكف عن إذايتهم فلم يرجعوا ولم يقلعوا بل تمادوا على حرب آيت أدراسن وظاهرهم الودايا على عادتهم، وأرادوا أن يسيروا فيهم بالسيرة التي كانوا عليها أيام السلطان المولى عبد الله ظناً منهم أن ذلك يتم لهم مع ابنه سيدي محمد وهيهات:

إذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تظنن أن الليث مبتسم

ولما اتصل الخبر بالسلطان أمر قائد العبيد وقائد آيت يمور أن يشدوا عضد آيت أدراسن، وينهضوا لنصرتهم على أعدائهم جروان، حيث انتصرت لهم الودايا، فهاجت الحرب وكشرت عن أنيابها، وشمرت عن ساقها، فبرز الودايا بجموعهم ونزلوا بوادي فاس، في أول يوم من رمضان، وأقاموا هنالك مفطرين منتهكين لحرمة الصيام بسفرهم الحرام، ثم اجتمعوا هم وجروان وساروا إلى جهة مكناسة، وأقبل آيت أدراسن نحوهم بمن لافهم من العبيد وآيت يمور، فكان اللقاء على وادي ويسلن، فوقعت الحرب فانتصر آيت أدراسن عليهم، وهزموهم وانتهبوا محلة جروان ومحلة الودايا وقتلوا منهم نحو الخمسمائة، وحزوا رؤوس أعيانهم فعلقوها على الباب الجديد من مكناسة، ورجع الودايا إلى فاس مفلولين لم يتقدم لهم مثلها.

ولما اتصل خبر ذلك بالسلطان اغتاظ على الودايا بسبب افتياتهم عليه، وانتهاكهم حرمة جواره، فعزم على المكر بهم وأسرها في نفسه ولم يبدها لهم، واستمر مقيماً بمراكش إلى أن دخلت سنة أربع وسبعين ومائة وألف.

فخرج من مراكش قاصداً مكناسة ومضمراً الإيقاع بالودايا، وأحس الودايا بذلك منه، فلما وصل إلى مكناسة بعثوا إليه عجائزهم متشفعات ومعتذرات عما فرط منهم، فاجتمعن به أثناء الطريق وتوسلن إليه بالرحم والقرابة، فرق لهن وأعطاهن كسى ودراهم وعدن صحبته إلى فاس فنزل بالصفصافة وخيمت بها عساكره، وخرج أهل فاس والودايا لملاقاته فألان لهم القول وأظهر البشر، ومن الغد أمر بعمارة المشور بدار الدبيبغ، وقدم

أهل فاس طعام الضيافة على العادة، فأمر السلطان بإدخاله إلى دار الدبيبغ، ولما صلى العصر خرج على الناس بالمشور فوقف لهم وقدم الوفود هداياهم على العادة، ولما فرغ من ذلك كله أمر العبيد والودايا بالدخول إلى دار الدبيبغ لأكل طعام الضيافة، وكان قد أعد بها ألفاً من المسخرين للقبض على أعيان الودايا أفردهم في ناحية، فلما دخلوا وغلقت الأبواب وثبوا عليهم وجردوهم من السلاح، وكتفوهم وألقوهم على الأرض.

ولما طعم الجيش وسائر الناس أمر السلطان الخيل بالركوب وشن الغارات على حلة الودايا والمغافرة بلمطة، فركبت الخيول وتقدمت إليهم وسار السلطان في موكبه خلفهم، ولما شرق شارق فاساً الجديد رماه الودايا من أبراجه بالكور فلم تغن شيئاً، وتقدم السلطان حتى وقف بالموضع المعروف بدار الرخاء، فلم يكن إلا هنيئة حتى أقبلت العساكر بالسبي والأثاث والخيام، وانتسفوا الحلة نسفاً، ولما جن الليل خرج من كان بقي من أعيانهم بفاس الجديد وتفرقوا شذر مذر، فذهب بعضهم إلى ضريح الشيخ أبي العباس أحمد الشاوي، وبعضهم إلى زاوية الشيخ اليوسي، وبعضهم إلى ضريح سيدي أبي سرغين بصفرو وغير ذلك، وبقي الضعفاء على الأسوار يطلبون الأمان فعطفته عليهم الرحم ورق لهم فأمنهم وأخرجهم إلى فاس القديم، وأدال منهم بفاس الجديد بألف كانون من العبيد، فنزلوه وعمروه واقفر من الودايا بعد أن كانوا أهله مدة طويلة كما علمت.

ثم أمر السلطان رحمه الله بأربعة من مساجين الودايا فسرحوا، أحدهم القائد قدور بن الخضر الشهير الذكر، وأمرهم أن يقفوا على إخوانهم المسجونين حتى يعينوا أهل الفساد من غيرهم، ويأتوه بزمامهم، ويتحروا الصدق في ذلك، فعينوا له خمسين من عتاتهم أهل زيغ وفساد فأمر بأن تضرب على أرجلهم الكبول ويقرن كل اثنين منهم في سلسلة، ثم بعث منهم إلى مراكش اثنان على الجمل، فسجنوا بها وطهرت الأرض من شيطنتهم، ثم

أمر السلطان رحمه الله القائد قدور بن الخضر أن يسرح الباقين من إخوانه ويضم إليهم من الودايا والمغافرة تكملة ألف ويشرد من عداهم إلى قبائلهم وحللهم، ثم عين السلطان رحمه الله لأولئك الألف إصطبل مكناسة ينزلون به ويكون قصبة لهم، فحملوا أولادهم إلى مكناسة واستوطنوها مع العبيد، غير أنهم قد انفردوا بالإصطبل كما قلنا، وولى عليهم السلطان القائد قدور بن الخضر، وكان أصغرهم سناً وأكملهم عقلاً وأصدقهم خدمة، وأمره بتأديبهم وإجراء الأحكام عليهم حتى رئموا ملكة الدولة وسكنوا تحت تصريفها وخضعوا لأمرها ونهيها، وأخذ السلطان في دفع الخيل والسلاح والكسى لهم شيئاً فشيئاً إلى أن أركبهم كلهم، فصلحت أحوالهم ونمت فروعهم، واستمروا بمكناسة إلى أن ردهم إلى فاس الجديد المولى يزيد بن محمد لأول ولايته كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وفي هذه السنة أعني سنة أربع وسبعين ومائة وألف باع السلطان أمكاس فاس لعاملها الحاج محمد الصفار باثني عشر ألف مثقال في السنة ثم ارتحل إلى مراكش فاحتل بها إلى أن كان من أمره ما نذكره.

## مجيء السلطان سيدي محمد بن عبد اللّه من مراكش إلى الغرب مرة أخرى وما اتفق له في ذلك

ثم دخلت سنة خمس وسبعين ومائة وألف فيها خرج السلطان سيدي محمد بن عبد اللّه رحمه الله من مراكش يريد بلاد الغرب وعرج في طريقه على جملة من القبائل الذين كانوا مشتغلين بالفساد فأوقع بهم وشرد بهم من خلفهم، وذلك أنه وصل إلى بلاد الشاوية فنهبهم وانتسف أموالهم وقتلهم وقبض على عدد كثير منهم بعثهم في السلاسل إلى مراكش، ثم عدل إلى جهة تادلا فمر على برابرة شقيرين من آيت ومالو فنهب أموالهم وقتل من ظفر به منهم، ثم سار إلى بلاد الغرب عازماً على الإيقاع بعرب الحياينة لإفسادهم

وتمردهم، فابتدأ أولاً بنهب آيت سكاتو، وثنى ببني سادان، وثلث بالحياينة، ففروا إلى جبال غياثة وتحصنوا بها فترك الجيوش ببلادهم تأكل زروعهم، وتقدم هو إلى تازا، ثم اقتحم على الحياينة جبال غياثة فأبادهم قتلاً وتشريداً، والعساكر ببلادهم تنتسف الزروع وتحرق العمائر وتستخرج الدفائن إلى أن تركتها أنقى من الراحة، وعاد إلى مكناسة.

وفي مقامه بها قبض على الشيخ محمود الشنكيطي المتصوف النابغ بفاس كان قد قدم من بلاده ونزل بمستودع القرويين وأظهر التنسك فصار يجتمع عليه الأعيان والتجار من أهل فاس ويعتقدونه. قال في البستان: فلم يقتصر على ما هو شأنه من إقبال الخلق عليه، بل صار يتكلم في الدولة ويكاتب البربر ويزعم أن سلطان الوقت جائر ولم يوافق عليه من الأولياء أحد، فنما ذلك إلى السلطان فأمر بالقبض عليه وبعث به إلى مراكش، فسجن بها ثم امتحن إلى أن مات، ولم تبكه أرض ولا سماء.

وقال أكنسوس: إنه كان يقول إن السلطان يموت إلى شهر، ففشا ذلك في العامة وتسابقوا إلى شراء الفحم والحطب وادخار الأقوات وحصلت فتنة بفاس، فأنهى ذلك إلى السلطان فكتب إلى عامل فاس بالقبض عليه وتوجيهه إلى مراكش. ثم أمر السلطان أيضاً، وهو بمكناسة، بالقبض على الأمين الحاج الخياط عديل وإخوته فسجنوا في مال كان عليهم بعضه له وبعضه لوالده من قبله، وفي تمام السنة أمر بتسريحهم، وبعث الحاج الخياط منهم والسيد الطاهر بناني الرباطي سفيرين عنه إلى السلطان مصطفى بن أحمد العثماني صاحب القسطنطينية العظمى، وفيها أيضاً استخلف السلطان رحمه الله ابن عمه المولى إدريس بن المنتصر بفاس وولاه على قبائل الجبل كلها، وفيها أمر بتحبيس الكتب الإسماعيلية التي كانت بدويرة الكتب بمكناسة، وعددها اثنا عشر ألف مجلد وزيادة، فحبسها على مساجد المغرب كله ولا زالت خزائنها مشحونة بها إلى الآن مكتوباً عليها رسم التحبيس باسم السلطان

المذكور، ثم ارتحل إلى مراكش وفيها أيضاً تولى الحاج محمد الصفار مكس فاس باثنين وعشرين ألف مثقال في السنة.

## إيقاع السلطان سيدي محمد بن عبد اللّه بقبيلة مسفيوة والسبب في ذلك

كان هؤلاء مسفيوة شيعة للمولى المستضيء حسبما تقدم، ولما زحف السلطان المولى عبد اللّه إلى بلاد الحوز وشرد أخاه المولى المستضيء عن مسفيوة وأوقع بهم الوقعة التي تقدم الخبر عنها أذعنوا إلى طاعته في الظاهر، وبقيت الحسائف كامنة في صدورهم، فكانت تلك الطاعة التي أظهروها له هدنة على دخن، واستمر حالهم على ذلك إلى أيام السلطان سيدي محمد رحمه الله فشرى فسادهم. وقال في «البستان»: «كان هؤلاء مسفيوة من الطغيان والاستخفاف من الدولة على غاية لم تكن لأحد، من يوم استخلف سيدي محمد بمراكش وهو يعالج داءهم فما نفع فيه ترياق إلى أن قدم مراكش قدمته هذه، فوفد عليه بها مائة وخمسون من أعيانهم، فانتهز فيهم الفرصة وقتلهم كلهم سوى القاضي، ثم سرب الخيول للغارة على حلتهم فانتسفوها وأبلغوا في النكاية، فانخضدت بذلك شوكتهم واستقامت طاعتهم وصلحت أحوالهم فيما بعد ذلك».

ثم دخلت سنة ست وسبعين ومائة وألف فيها جاء السلطان من مراكش إلى الغرب ونهب في طريقه آيت سيبر من زمور الثلج وبددهم، ولما وصل إلى مكناسة أمر القبائل بدفع الزكوات والأعشار فكانت الحياينة وشراقة وسائر الحوزية يدفعون واجبهم بهري فاس، وكان أهل الغرب وبنو حسن والبربر يدفعون بهري مكناسة، ثم نهض السلطان إلى غزو مرموشة فهزمهم ونهب أموالهم واستولى على معاقلهم وقتل منهم عدداً وافراً، وذلك بعد أن انتصروا على عسكر السلطان أولاً وظهروا عليه، فتقدم إليهم رحمه الله بنفسه وعبيده

المسخرين. فأوقع بهم وشردهم، ثم صار إلى تازا فأصلح شؤونها وثقف أطرافها وعاد سالماً مظفراً.

وفي هذه السنة توفي قائد القواد الذي كان من السلطان بمنزلة الوزير أبو عبد الله محمد بن حدو الدكالي الذي كان ولاه على دكالة لأول ولايته، ثم أضاف إليه تامسنا وتادلا مكان البوزراري الجابري عمود الدولة المحمدية رحمه الله، ولما توفي ولى السلطان مكانه ابن عمه القائد أبا عبد الله محمد بن أحمد.

ثم دخلت سنة سبع وسبعين ومائة وألف فيها أمر السلطان ببناء قبة الشيخ أبي الحسن علي بن حرزهم بفاس، وفيها ثار رجل اسمه أحمد الخضر بصحراء فجيج فكان يزعم أنه المولى عبد الملك، ثم صار يزعم أنه داعيته، وفتن الناس بتلك الجهات وجرت على يديه حروب وخطوب، فبعث السلطان إلى عرب تلك البلاد فقتلوه وبعثوا برأسه إليه، وهو بمكناسة، وكان السلطان يومئذٍ مريضاً فعافاه الله وسافر إلى مراكش.

ولما اجتاز برباط الفتح بعث منه الرئيس الحاج التهامي مدور الرباطي باشدورا إلى بلاد السويد ليأتيه بإقامة المراكب والبارود، وبعث أيضاً الرئيس أبا عبد الله محمد العربي المستيري الرباطي باشدورا إلى بلاد النجليز ليصلح بها قرصانه ويجعل له إقامة جديدة، فقدمها وجدد قرصانه واستصحب معه إقامة مركبين ومدافع نحاسية وغير ذلك وعاد لتمام السنة.

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين ومائة وألف فيها كانت وليمة عرس ولد السلطان المولى علي بن محمد بمراكش على ابنة عمه المولى أحمد بن عبد الله وعرس ابن أخيه سيدي محمد بن أحمد على ابنة السلطان، وكانت وليمة عظيمة حضرها عامة أهل المغرب بهداياهم وأبهاتم وشاراتهم واستقامت الأمور للسلطان رحمه الله.

# بناء مدينة الصويرة حرسها الله

لما فرغ السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله من وليمة عرس أولاده سار إلى ناحية الصويرة بقصد بنائها وعمارتها، فوقف على اختطاطها وتأسيسها وترك البنائين والعملة بها وأمر عماله وقواده ببناء دورهم بها وعاد إلى مراكش.

وقال الكاتب أبو العباس أحمد بن المهدي الغزال في رحلته ما ملخصه: إن السبب في بناء مدينة الصويرة هو: أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله كان له ولوع بالجهاد في البحر، واتخذ لذلك قراصين حربية تكون في غالب الأوقات بمرسى العدوتين ومرسى العرائش، وكان سفرها في البحر مقصوراً على شهرين في السنة زمان الشتاء لأن المراسي متصلة بالأودية، وفي غير إبان الشتاء يقل الماء ويعلو الرمل بأفواه المراسي فيمنع من اجتياز القراصين بها ويتعذر السفر، ففكر السلطان رحمه الله في حيلة يتأتى بها سفر قراصينه في سائر أيام السنة، فبنى ثغر الصويرة واعتنى به لسلامة مرساه من الآفة المذكورة.

وذكر غير الغزال: أن الباعث للسلطان المذكور على بناء الصويرة هو أن حصن آكادير كانت تتداوله الثوار من أهل السوس مثل: الطالب صالح وغيره، ويسرحون وسق السلع منه افتياتاً ويستبدون بأرباحها، فرأى أن حسم تلك المادة لا يتأتى إلا بإحداث مرسى آخر أقرب إلى تلك الناحية وأدخل في وسط المملكة من آكادير حتى تتعطل على أولئك الثوار منفعته فلا يتشوف أحد إليه، فاختط مدينة الصويرة وأتقن وضعها وتأنق في بنائها، وشحن الجزيرتين الدائرتين بمرساها كبرى وصغرى بالمدافع، وشيد برجاً على صخرة داخل البحر وشحنه كذلك، فصار القاصد للمرسى لا يدخلها إلا تحت رمي المدافع من البرج والجزيرة معاً.

ولما تم أمرها جلب إليها تجار النصارى بقصد التجارة بها وأسقط عنهم

وظيف الأعشار ترغيباً لهم فيها فأهرعوا إليها من كل أوب، وانحدروا إلى مرساها من كل صوب، فعمرت في الحين واستمر الترخيص لهم فيها مدة من السنين، ثم رد أمرها إلى ما عليه حال المراسي من أداء الصاكة وغيرها من اللوزام وهي الآن بهذا الحال، والله تعالى أعلم.

## هجوم الفرنسيس على ثغر سلا والعرائش ورجوعه عنهما بالخيبة

قد قدمنا ما كان للسلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله من الولوع بأمر البحر والجهاد فيه فلم تزل قراصينه تتردد في أكناف البحر وتجوس خلال ثغور الكفر فتقتل وتأسر وتغنم وتسبي إلى أن ضاق بهم رحب الفضاء، وكاد يستأصل جمهورهم حكم القضاء، فمنهم من فزع إلى طلب المهادنة وحسن الجوار، ومنهم من كذبته نفسه فتطاول إلى الأخذ بالثأر.

ومن هذا القسم الثاني جنس الفرنسيس فإن قراصين السلطان رحمه الله كانت قد غنمت منه مركباً ساقته إلى مرسى العرائش وغنمت منه غير ذلك في مرات متعددة فدعاه ذلك إلى أن هجم على ثغر سلا أواخر سنة ثمان وسبعين ومائة وألف. قال الغزال في رحلته: «رمى الفرنسيس بمرسى سلا من الأنفاض والبنب ما ظن أنه يحصل به على طائل فأجيب منها بضعف ذلك، فلم يلبث إلاوأجفانه هاربة تقفو أواخرها الأوائل وفر هارباً مهزوماً ساقط الألوية مذموماً، اهـ. ورأيت بخط الفقيه العلامة أبي العباس أحمد بن المكي السدراتي السلاوي رحمه الله ما صورته: هجم الفرنسيس على مدينة سلا يوم الجمعة الحادي عشر من ذي الحجة متم سنة ثمان وسبعين ومائة وألف فأقاموا يوم الجمعة ويوم السبت بظاهر البحر لم يفعلوا شيئاً، وفي يوم الأحد تقدمت سفنهم فرموا من البنب مائة وسبعاً وسبعين وهدمت الدور وفر النساء والصبيان خارج البلد ولم يبق بها إلا القليل. وكان يوماً مشهوداً، وفي

صبيحة يوم الاثنين أرسل الله عليهم الريح ففرقت مراكبهم ونفس الله عن المسلمين. وفي يوم السبت الآتي بعده رجعوا فرموا مائة وعشرين. وفي يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من الشهر المذكور رموا مائة ونيفاً وثلاثين ولم يستشهد من المسلمين في تلك المدة سوى رجل واحد اهـ. قال الغزال: ثم «إن الفرنسيس عالج ما انصدع من أجفانه في حرب سار ثم هجم على ثغر العرائش» قال السدراتي: فرمى عليها فيما ذكروا أربعة آلاف نفض ونيفاً وثلاثين نفضاً وخربوها وهدموا دورها ومسجدها. قال: وذلك مفتتح سنة تسع وسبعين ومائة وألف». وفي يوم الخميس الثاني من المحرم وقيل التاسع منه ليلة عاشوراء اقتحموا المرسى في خمسة عشر قارباً مشحونة من العسكر بنحو الألف وفيها من الشلطاظ والفسيان عدد كثير، وتصاعدوا مع مجرى الوادي إلى مراكب السلطان التي كانت هنالك فحرقوا سفينة منها وهي التي غنمها المسلمون منهم، وعمدوا إلى أخرى فكسروها بالمعاول والفؤوس، ثم تكاثر عليهم المسلمون وقاتلهم بنو جرفط وأهل الساحل حتى ردوهم على أعقابهم.

ولما انقلبوا راجعين إلى مراكبهم وجدوا عرب الغرب مع قائدهم حبيب المالكي قد أخذوا بمخنقهم على فم المرسى وانبثوا لهم على الحجر الذي هنالك، وبعث الله ريحاً من جهة البحر عظمت بها أمواجه ومنعتهم من الخروج، فكانوا إذا توسطوا الوادي ليخرجوا ردتهم الريح، وإذا انحازوا إلى أحد الشطين رماهم المسلمون بالرصاص حتى استأصلوا جمهورهم، ثم سبحوا إليهم حتى خالطوهم في قواربهم فاستاقوا أحد عشر قارباً ونجا أربعة، وتقسمهم المسلمون بين قتيل وأسير، وتفرقوا في الأعراب والبادية أيدي سبا ثم أمر السلطان بجمعهم وأعطى كل من أتى بأسير منهم مالاً وكسوة، فاجتمع منهم نحو الخمسين فبقوا في الأسر إلى أن توسط في فدائهم طاغية الإصبنيول ففدوا بمال له بال.

وأما رؤوس القتلى فقد أمر السلطان رحمه الله بتوجيه نحو الثمانين منها إلى سلا فعلقت بالصقالة القريبة من ضريح الشيخ ابن عاشر رضي الله عنه، وبعد هذا وقع الصلح مع جنس الفرنسيس وانعقدت الشروط معه كما سيأتي.

ثم إن السلطان رحمه الله قدم العرائش عقب الوقعة وأقام بها شهراً واعتنى بشأنها فبنى بها الصقائل والأبراج حتى صارت من أعمر الثغور. وبيد الله تصاريف الأمور.

## مراسلة السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله لطاغية الإصبنيول وما اتفق في ذلك

كان السبب الذي أوجب مراسلة السلطان سيدي محمد بن عبد الله لطاغية الإصبنيول. أن جماعة من أسرى المسلمين الذين كانوا بأصبانيا كتبوا مكاتيب عديدة إلى السلطان رحمه الله يعلمونه بما هم فيه من ضيق الأسر وثقل الإصر، وما نالهم من الكفار من الامتهان والصغار، وكان فيهم من ينتمي للعلم ومن يقرأ القرآن وغير ذلك، فلما وصلت كتبهم إلى السلطان وقرئت عليه تأثر لذلك ووقعت منه موقعاً كبيراً، وأمر في الحين بالكتب إلى طاغية الإصبنيول يقول له: «إنه لا يسعنا في ديننا إهمال الأسارى وتركهم في قيد الأسر، ولا حجة في التغافل عنهم لمن ولاه الله الأمر، وفيما نظن أنه لا يسعكم ذلك في دينكم أيضاً». وأوصاه أن يعتني بخواص المسلمين الذين هنالك من أهل العلم وحملة القرآن، وأن لا يسلك بهم مسلك غيرهم من عامة الأسارى، قال: «مثل ما نفعل نحن بأساركم من الفرايلية فإنا لا نكلفهم بخدمة ولا نخفر لهم ذمة».

فلما وصل هذا الكتاب إلى الطاغية أعظمه وكاد يطير سروراً به، وللحين أمر بإطلاق الأسارى الذين بحضرته، وبعث بهم إلى السلطان ووعده أن يلحق بهم غيرهم من الذين بقوا بسائر إيالته، فوقع ذلك من السلطان رحمه

الله الموقع وعظم في عينيه، وكان كريم الطبع يحب الفخر ويعنى به، فأطلق لطاغية الإصبنيول جميع من كان تحت يده من أسارى جنسه وعززهم بأسرى غير جنسه أيضاً لتكون للطاغية بذلك مزية على سائر الأجناس، وبعث معهم بهدية فيها عدد من الأسود على يد قائد سبتة. فاتصل ذلك كله بالطاغية فطارت نفسه شعاعاً من شدة الفرح، وشمر عن ساعد الجد وهيأ هدية استوفى فيها غاية مقدوره، وبعثها مع كبراء القسيسين والفسيان، وأصحبهم كتاباً أفصح به عما بين جنبيه للسلطان من المحبة والاعتراف بالفضل والمنّة، وطلب منه مع ذلك أن يتفضل عليه ببعث أحد أرباب دولته وكبرائها لتتشرف أرضه بمقدمه، وتشتهر هذه المواصلة والملاطفة عند أجناس الفرنج فيعظم بذلك قدره ويكمل فخره، فأسعفه السلطان رحمه الله بذلك، وبعث إليه خاليه الرئيسين أبا يعلى عمارة بن موسى، وأبا عبد الله محمد بن ناصر، وكلاهما من الودايا، ومعهما كاتبه أبو العباس أحمد الغزال بعثه كاتباً لهما لا غير، فلما وصلوا إلى جبل طارق كتب الغزال إلى بعض وزراء السلطان يقول له: إني أريد منك أن تعرف أمير المؤمنين أن هذين الرجلين لا معرفة لهما بقوانين النصارى، وإني قد خفت عاقبة الأمر فيما ينشأ عن رأيهما فلا يؤاخذني أمير المؤمنين بشيء من ذلك إن كان، فأخبر الوزير السلطان فقال: صدق، وقد ندمت على تقديمهما عليه وما راعيت إلا منزلتهما، والآن فاكتب إلى الطاغية وقل له إني قد بعثت إليك بكاتبي أحمد الغزالي باشدورا وابعث بالكتاب إلى الغزال، فإذا بلغه فليستمسك به وليحز الكتاب الأول الذي عندهما ويلي الأمر دونهما، فلما بلغه كتاب السلطان امتثل وقضى الغرض على الوجه المطلوب، وأبقى ذكراً جميلاً رحمه الله.

وفي هذه السنة أعني سنة تسع وسبعين ومائة وألف، ألزم السلطان أهل فاس ببعث الإدالة منهم إلى الصويرة وهي خمسون رامياً بقائدها وفقيه مدرس ومؤقت ومؤذن وشاهدان، وأسقط عنهم البعث الذي كانوا يفرضونه للمملوكِ

قبله، وهي: خمسمائة رام، فعينوا الإدالة المذكورة بعد التي واللتيا وبعثوهم إليه بمراكش، فبعثهم السلطان إلى الصويرة ورتب لهم المؤن والمرافق فكانوا يقومون على المرسى وينتفعون بمستفادها، فحسنت حالهم واغتبطوا بها واستمر الحال على ذلك.

وفي هذه السنة بعث أيضاً السلطان الرئيس أبا الحسن عليّاً مارسيل الرباطي إلى بلاد الفرنسيس لتقرير الصلح معهم، وقبض مال أسارى العرائش وشراء الإقامة منه، فبذلوا المال والإقامة معاً طائعين، وفيها بعث السلطان الفقيهين السيد الطاهر بن عبد السلام السلاوي، والسد الطاهر بناني الرباطي، باشدورين إلى صاحب الإسطنبول السلطان مصطفى العثماني وأصحبهما هدية نفيسة فيها خيل عتاق بسروج مثقلة بالذهب مرصعة بالجوهر والياقوت ونفيس الأحجار، وفيها أسياف محلاة بالذهب ومرصعة بالياقوت المختلف الألوان، وفيها حلى من عمل المغرب فقبل ذلك السلطان العثماني وابتهج به ثم كافأ عليه بمركب موسوق من آلة الحرب مدافع ومهاريس وبارود وإقامة كثيرة للمراكب القرصانية من كل ما تحتاج إليه.

وفي هذه السنة خرج السلطان إلى بلاد الريف فجعل طريقه على تطاوين ثم على بلاد غمارة وانتهى إلى جارت وبلاد الريف، فمهد تلك النواحي كلها، ورجع على طريق تازا، وفيها قدم المولى على ابن السلطان خليفة عن أبيه فنزل فاساً الجديد وأضاف إليه قبائل الجبل والريف، وفيها قدمت ربة الدار العالية المولاة فاطمة بنت سليمان من مراكش إلى فاس بقصد الزيارة، فركبت ذات ليلة إلى ضريح المولى إدريس رضي الله عنه، وضريح الشيخ أبي الحسن علي بن حرزهم، وضريح الشيخ أبي عبد الله التاودي، فطافت عليهم وتبركت بتربهم وذبحت أكثر من مائة ثور، وأخرجت صدقات كثيرة، ثم خرجت بعد ذلك إلى مدينة صفرو فزارت ضريح سيدي أبي سرغين، وضريح سيدي أبي علي، وذبحت وتصدقت

وعادت إلى فاس، ثم ذهبت إلى زيارة الشيخ عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه، فصحبها في ركابها أعيان فاس وأشرافها وعلماؤها، ولما كانت بأثناء الطريق اعترضها قواد الغرب بهداياهم وبشاراتهم وزيهم، ووافاها قواد الثغور بضريح الشيخ عبد السلام في مواكبهم وخيلهم ورجلهم، وذلك عن أمر من السلطان رحمه الله.

قال صاحب «البستان»: وكنت يومئذٍ والياً على العرائش فحضرت في جملتهم، ولما قضت أرب الزيارة فرقت الأموال على الأشراف من أهل جبل العلم، وغمرت الناس بالعطايا ثم عادت إلى القصر ومنه سارت إلى العرائش فأقامت بها ثلاثة أيام، وانفض قواد الثغور كل إلى محله، وسافرت المولاة المذكورة إلى مراكش في ألف فارس من العبيد، كانوا قد قدموا معها من مراكش عليهم القائد مصباح، وكان فعلها هذا من الآثار العظيمة، والمناقب الفخيمة رحمها الله.

## اعتناء السلطان سيدي محمد بن عبد الله بثغر العرائش وشحنه بآلة الجهاد

قد تقدم لنا أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله قدم العرائش عقب وقعة الفرنسيس فوقف عليها واعتنى بأمرها، وبنى بها الصقائل والأبراج وصونها، ثم كان قدوم ابنه المولى يزيد في هذا التاريخ إلى فاس، وفي ركابه جماعة من رؤساء البحر والطبجية أهل الإجادة في الرمي، وكان قدومه بأمر السلطان لجر المدافع، والمهاريس النحاسية التي كانت بفاس الجديد ومكناسة ونقلها إلى ثغر العرائش ففعلوا، وألزم السلطان القبائل الذين بالطريق أن يتولوا جرها، فكانت كل قبيلة تجرها إلى التي تليها إلى أن وصلوا إلى مشرع مسيعيدة من نهر سبو.

قال صاحب «البستان»: فورد علينا أمر السلطان بالعرائش أن نخرج إلى لقائهم في الجند وقبائل الحوز يعني حوز العرائش، قال: فوافيناهم على

وادي سبو فتولى أهل الغرب جر تلك المدافع والمهاريس إلى أن أوصلوها إلى وادي الدردار قرب تاجناوت، ثم جرها أهل العرائش وقبائل حوزها إلى المدينة، وكان يوم دخولها مهرجاناً عظيماً أخرجت فيه المدافع والمهاريس والبارود، وتسابقت القبائل على الخيول ولعبوا بالبارود إلى المساء، ثم رجع المولى يزيد ومن معه من الرؤساء والبحرية والطبجية إلى حضرة السلطان بمكناسة وقد تم الغرض المقصود.

## إيقاع السلطان سيدي محمد بن عبد الله بآيت يمور أهل تادلا ونقلهم إلى سلفات والسبب في ذلك

لما انقضى أمر العرائش تفرغ السلطان لقضاء ما كان قد بقي عليه من أمر الرعية، فخرج من مكناسة إلى تادلا مضمراً الإيقاع بآيت يمور لما كان يبلغه عنهم من الفساد في الأرض، فلم بلغها مكر بهم بأن أرسل إليهم يستنفرهم خيلاً ورجلاً وأراهم أنه يريد أن يذهب بهم في سرية هيأها لآيت ومالو، فلما قدموا عليه أمر بعرض العساكر كلها ووقف رحمه الله بإزاء القصبة، ثم عرضت عليه عساكر الجند، ثم القبائل بعضها إثر البعض وكلما مرت عليه قبيلة أوقفها في ناحية عينها لها، وكلما مر به جيش أوقفه كذلك، حتى غصت الأرض بالخيل والرجل واستدارت من كل الجهات ولم يبق إلا آيت يمور فجاؤوا في آخر العرض، ولما مثلوا بين يديه أمر أهل رحاه أن يرموهم بالرصاص على زناد واحد، فأطلقوا عليهم شؤبوباً منه تساقط له عدد كثير، وكان قد تقدم إلى العساكر المستديرة بهم أن ينفحوهم بالرصاص كلما قصدوا جهة من جهاتهم، فكانوا كلما قصدوا ناحية طالبين الخلاص منها رماهم أهلها فتتساقط منهم العصبة الكبيرة إلى أن خلصوا من ناحية أهل دكالة، بعد أن هلك منهم ما ينيف على الثمانمائة، فأمر السلطان برؤوسهم فجزت وبعث بها إلى فاس فعلقت على الأسوار، وأمر العساكر بنهب حللهم فانتسفوها وسيقت مواشيهم وخيامهم وأثاثهم، وفر من أفلت منهم إلى جبل

آيت يسري، ثم رحل السلطان عنهم إلى مراكش فوفدوا عليه بعد أيام خاضعين تائبين، فعفى عنهم ونقلهم إلى جبل سلفات من أحواز فاس فأوطنوه حيناً من الدهر.

## إغراء السلطان سيدي محمد بن عبد الله بآيت أدراسن والسبب في ذلك

لما كان من السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله لآيت أدراسن من الإحسان ما كان حتى أوقع بالودايا لأجلهم مع أنهم صميم الجند وركن الدولة، وأطال لهم الرسن في ذلك بما أطغاهم وحملهم على الدالة عليه، صدرت منهم هنات اعتدها السلطان عليهم، فانتدب لتأديبهم بأن كتب وهو بمراكش إلى الودايا لقتالهم، وإلى العبيد وجروان يأمرهم أن يجتمعوا على حربهم والإيقاع بهم، فكان ذلك عند الودايا من أكبر متمناهم، فاجتمعوا مع من ذكر ونهدوا إليهم فكبسوهم في ديارهم وجرت بينهم حرب فظيعة انهزم في آخرها آيت أدراسن ونهبت حللهم، وقتل منهم عدد كثير وأسر مثل ذلك، ووجهوا في السلاسل إلى السلطان بمراكش.

وفي هذه السنة أعني سنة تسع وسبعين ومائة وألف، أمر السلطان بجمع جند اليكشارية من قبائل الحوز، ووكل بجمعهم القائد عبد النبي المنبهي وأن يثبتهم في ديوان العسكر، وأن كل من كان عزباً وأراد الدخول في الجندية فليكتبه، فاجتمع له من ذلك أربعة آلاف وخمسمائة، فأعطاهم السلطان الكسي والسلاح واستخدمهم مدة، ثم كان مآلهم أن رجعوا إلى إخوانهم وقبائلهم، وضرب عليهم المغرم في جملتهم، وفيها مات عامل فاس الحاج محمد الصفار، فولى السلطان على فاس ابنه العربي بن محمد الصفار.

ثم دخلت سنة ثمانين ومائة وألف فيها قدم السلطان إلى مكناسة وقبض على القائد عبد الصادق بن أحمد الريفي صاحب طنجة، وعلى مائة من

قرابته وأهل بيته فأودعهم السجن، ثم سار إلى طنجة فدخلها ونهب دار عبد الصادق المذكور، ونقل إخوانه بأولادهم إلى المهدية، وولى عليهم محمد بن عبد الملك من بيتهم، ولم يترك بطنجة من أهل الريف إلا أهل المروءة والصلاح، وأنزل معهم ألفاً وخمسمائة من عبيد المهدية بعددهم بحيث لا يطمعون في قيام ولا يحدثون أنفسهم بثورة، ووقع بخط الفقيه أبو العباس أحمد السدراتي أن انتقال أهل الريف إلى المهدية كان بعد هذا بنحو أربع سنين والله أعلم.

## مقتل عبد الحق فنيش السلاوي ونكبة أهل بيته والسبب في ذلك

قد قدمنا في آخر دولة السلطان المولى عبد الله ما كان بحواضر المغرب وبواديه من الاضطراب، فسما بعض القواد والعمال بالأمصار إلى مرتبه الاستقلال، وطرحوا طاعة السلطان في زاوية الإهمال، فمنهم صاحب سلا عبد الحق بن عبد العزيز فنيش، كان قد استحوذ على مدينة سلا وأعمالها واستبد بأمرها، بما كان له من العشيرة والعصبية بها، ولما اجتاز سيدي محمد بن عبد الله بن مراكش إلى القصر أيام والده أغلق عبد الحق هذا أبواب سلا في وجهه، ولم يحفل به ذهاباً وإياباً حسبما مر.

ثم لما ولى الله السلطان أمر المسلمين أعرض عما أسلفه عبد الحق من جريرته وأبقاه في مدينته على رياسته، فاستمر على ذلك برهة من الدهر، وكان فظاً غليظاً، فقتل رجل من أعيان سلا قيل كان هذا الرجل من قرابته وقيل كان من أولاد زنيبير، فرفع أولياؤه أمرهم إلى السلطان بمكناسة وحضر عبد الحق معهم وثبت أن قتله للرجل كان على وجه الظلم، فحرك ذلك من السلطان ما كان كامناً في صدره عليه، فقبض عليه ودفعه إلى أولياء المقتول ليتولوا قتله بأيديهم، فجبنوا عنه لما كان له في قلوبهم من الهيبة، فأمر

السلطان الوزعة بقتله بمرأى منهم، فقتلوه فيما قيل بأيدي الفؤوس، ثم بعث السلطان من احتاط على أموال عبد الحق والفنانشة أجمع، وأمر ببيع أصولهم بعد إعمال الموجبات بأن الفنانشة مستغرقوا الذمة، وأن جميع ما بأيديهم اكتسبوه من الغصوبات وغيرها من وجوه الظلم وضرب الأتاوات على الضعفاء والمساكين حتى عند نكاحهم، فبيعت أصول عبد الحق وعشيرته لبني حسن، وكانت تنيف على مائة أصل من بين ربع وعقار، وكان ذلك سنة ثمانين ومائة وألف، ثم غربهم السلطان إلى العرائش فسجنوا بها مدة، وغرب بعضهم إلى الصويرة ثم عفا عنهم وقربهم وولاهم رياسة الرماية بالمهراس والمدفع المعروفة برياسة الطبجية، وفرقهم على الثغور، فكان بعضهم بالعرائش، وبعضهم بطنجة، وبعضهم برباط الفتح، وبعضهم بالصويرة وأعطاهم الدور المعتبرة والرباع المغلة، ورتب لهم الجرايات العظيمة حتى بلغوا من الثروة والعز والجاه ما لم يبلغه أحد في دولته رحمه الله، كذا في البستان.

ومن القواد الذين كانوا في حكم الاستبداد أيام السلطان المولى عبد الله ثم نكبهم ابنه السلطان سيدي محمد بعد حين القائد أبو الحسن الحاج علي بن العروسي الدكالي البوزراري، كان قائد المولى المستضيء بعد أيام ولايته، ولما أفضى الأمر إلى السلطان سيدي محمد قبض عليه وأودعه المطبق عدة أعوام، ثم سرحه وولاه مدينة شفشاون، وتوارث الرياسة بنوه من بعده ولهم آثار بثغر الجديدة، منها مسجدها مكتوباً عليه اسم بانيه إلى الآن، ومن القواد المستبدين قائد تامسنا المدعو ولد المجاطية، وقائد تادلا الرضي الورديغي، فعزلهم السلطان سيدي محمد وولى على تامسنا وتادلا القائد محمد بن حدو الدكالي المتقدم الذكر، ومنهم أبو عريف قائد بني حسن، فعزله السلطان وولى مكانه أبا عبد الله محمد القسطالي ومنهم الباشا حبيب المالكي قائد الغرب كان رأس الأمراء أيام أبيه، فقبض عليه وأودعه

المطبق وأمر بهدم قصره وحمل أنقاضه إلى العرائش، ونهب ماله وماشيته، ولما طرح الباشا حبيب بالمطبق منع نفسه من الطعام والشراب إلى أن مات ميتة جاهلية عياذاً بالله، فهؤلاء أنياب القبائل وأهل العصبية منهم تتبعهم السلطان واحداً بعد واحد إلى أن أراح الدولة من ضررهم والله أعلم.

وفي هذه السنة أعني سنة ثمانين ومائة وألف انعقدت الشروط بين السلطان سيدي محمد بن عبد الله وبين جنس الفرنسيس، وهي عشرون شرطاً، مضمنها ومرجعها إلى المهادنة والصلح، والمخالطة بالبيع والشراء مع التوقير والاحترام من الجانبين، وإذا سافرت مراكبهم من مراسيهم إلى إيالتنا فتصحب معها الورقة المسماة «بالباصبورط» من عند أمير البحر المرتب بكل مرسى من مراسيهم، فيها اسم المركب ورئيسه، وبيان ما اشتمل عليه من الوسق، ومن أين جاء وإلى أين يذهب، وعليه طابع أمير البحر وهو طابع الجنس، وإذا سافرت مراكبنا من مراسينا إلى إيالتهم، فتصحب كذلك خط يد القنصل المرتب بمرسانا من ذلك الجنس، باسم المركب ورئيسه، وما اشتمل عليه، مختوماً عليه بطابع الجنس أيضاً، وكان القياس أن مراكبهم تحمل طابعنا وخطنا ليحصل لها التوقير، كما نحمل نحن طابعهم وخطهم ليحصل لنا التوقير منهم، ولكن لما لم تجر العادة بترتب متأصلنا بمراسيهم اكتفي بطابعهم من الجانبين، إذ المقصود حاصل بذلك ولا يلتبس على رؤساء البحر طابع جنس بآخر، فإذا التقى مركب بمركب وأخرج كل ورقته عرف من أي جنس هو وعومل على مقتضى ذلك.

## ورود هدية السلطان مصطفى العثماني على السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمهما الله

وفي هذه السنة أعني سنة ثمانين ومائة وألف، بعث السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله خديمه الرئيس عبد الكريم راغون التطاوني

باشدورا إلى السلطان مصطفى العثماني، وأصحبه هدية نفيسة مكافأة له على هديته التي كان أرسلها مع السيد الطاهر بن عبد السلام السلاوي، والسيد الطاهر بناني الرباطي حسبما مر.

ثم لما دخلت سنة إحدى وثمانين ومائة وألف، قدم الحاج عبد الكريم المذكور من عند السلطان المذكور ومعه هدية عظيمة أعظم من الأولى، وهي مركب موسوق بالمدافع والمهاريس النحاسية، وإقامتها وإقامة المراكب القرصانية من صوار ومخاطيف وقلوع وقمن وحبال وبراميل وغير ذلك من آلات البحر، وفيها ثلاثون من مهرة المعلمين الذين لهم المعرفة بأفراع المدافع والمهاريس والكور والبنب، وبصناعة المراكب القرصانية، وفيهم معلم مجيد في الرمي بالمهراس إلى الغاية، فنزلوا بمرسى العرائش.

قال صاحب «البستان»: وكنت يومئذٍ والياً بها فورد أمر السلطان بتوجيه المعلمين إلى فاس يقيمون بها حتى يقدم السلطان من مراكش إلى مكناسة فيجتمعون به هنالك، ولما وصل السلطان إلى مكانسة وحضروا عنده فاوضهم في الخدمة وأراد أن يحيي آثار دار الصنعة التي كانت بسلا تصنع بها المراكب الجهادية على عهد الموحدين وبني مرين، فقالوا: نحتاج أن تبني لنا داراً على هيئة كذا، ومن نعتها كذا وكذا، ورسموا له شكلها في قرطاس فرأى أن أمرها لا يتم في عشر سنين ولا أكثر، ولا يكفي في بنائها مال فأعرض عن ذلك، وبعث معلمي البنب إلى تطاوين فكان أحدهم يفرغ البنبة من قنطارين، وبعث معلمي المراكب إلى سلا فأنشؤوا فيها ثلاث شكظريات، وبعث معلم الرمي إلى رباط الفتح فكان يعلم بها الطبجية من أهل سلا والرباط، وتخرج على يديه نجباء. ومن ثم توارث أهل العدوتين هذه الصناعة مدة إلى أن لم يبق بها اليوم إلا الاسم، وورد أصحاب المدافع والمهاريس إلى فاس فأقاموا بها إلى أن توفوا هنالك رحمهم الله.

وفي هذه السنة انعقدت الشروط بين السلطان سيدي محمد بن عبد الله وبين جنس الدينمرك، وهي عشرون شرطاً ترجع إلى تمام الصلح والأمن من الجانبين أيضاً والأول منها مضمنة خروج أمر المراسي المغربية من يد تجار الدينمرك فلا يتصرفون فيها بشيء، لكون الكمبانية التي كانت تدفع من المراسي قد تفرقت بعد التزام قنصلهم بأداء اثني عشر ألف ريال وخمسمائة ريال التي بقيت بذمة تجارهم من ذلك، ولا تعود المراسي لأيديهم بحال، والآخر منها مضمنة أن يدفع طاغية الدينمرك للسلطان كل سنة خمسة وعشرين مدفعاً من مدافع المعدن وزر كورتها من ثمانية عشر رطلاً إلى أربعة وعشرين، ويدفع معها ثلاثين قمنة، ومن اللوح الرويلي ألفي لوحة مختلطة، ومن الريال ستة آلاف وخمسمائة، والكل واصل إلى المحل الذي يريده السلطان، وإن أراد الطاغية أن يدفع بدلاً عن جميع ذلك خمسة وعشرين ألف ريال فله ذلك ومثل هذا انعقد مع جنس السويد أيضاً، إلا أن قدر المدفوع من جانبه عشرون ألف ريال فقط في كل سنة، ومع أجناس أخر وظائف أخر، واستمرت هذه السنة إلى أن انقطعت سنة إحدى وستين ومائتين وألف في دولة السلطان المولى عبد الرحمٰن بن هشام رحمه الله حسبما نذكر ذلك في محله.

وفي هذه السنة أعني سنة إحدى وثمانين ومائة وألف، كانت فتنة الدعي كلخ بمراكش، وهو رجل صعلوك اسمه عمر، كان ينتسب إلى الشيخ أبي العزم سيدي رحال، وكان يظهر للعامة الكرامات الكاذبة، وتبعه السواد الأعظم من جهلة البادية، لأنه وعدهم أن يفتح لهم بيت المال ويهيلون منه الذهب والفضة هيلاً، من غير ممانع، فأهرع الناس إليه وتقدم إلى مراكش، فدخلها في عالم من الأوباش شعارهم هاتان الكلمتان: كلخ، شلخ رافعين بها أصواتهم وهم كالسيل المنحدر من عل، فوقع الهرج بالمدينة وغلقت الأسواق، واتصل الخبر بالسلطان وهو بداره، فأمر الوزعة والعبيد

فاعترضوهم دون القصبة وقبضوا عليه، ولما صار في أيديهم فر من كان معه من الطغام وساقوه إلى السلطان، فقتله وسكنت جعجعته للحين.

## انعقاد الصهر بين السلطان سيدي محمد بن عبد الله وبين سلطان مكة الشريف سرور رحمه الله

كان السلطان سيدي محمد بن عبد الله يحب الفخر، ويعنى به، وله رغبة في الخير وأهله. ولما كان سلطان مكة الشريف سرور رحمه الله بالمحل الذي أكرمه الله به بلداً ومحتداً، رغب السلطان سيدي محمد رحمه الله في مصاهرته، وسمحت نفسه الشريفة ببذل كريمته.

فلما دخلت سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف، وعزم ركب الحاج المغربي على السفر إلى الحجاز بعث معهم السلطان المذكور ابنته وزفها على بعلها المذكور وبعث ولده الأكبر وخليفته الأشهر المولى علي بن محمد لإقامة فريضة الحج ومعه شقيقه المولى عبد السلام صغيراً دون بلوغ ليكون مع أخته وكلاهما في صحبة الركب المغربي كما قلنا، وأصحبهما هدية لأمير طرابلس وهدية لأمير مصر والشام، وهدية عظيمة لأهل الحرمين الشريفين ومالاً كثيراً يفرق على أشراف الحجاز واليمن، وجوائز سنية للعلماء والنقباء وأرباب الوظائف بمكة والمدينة، وبعث معهما من وجوه أهل المغرب وأولاد أمراء القبائل وأشياخهم، ومن أكابر خدامه وأصحاب أشغاله بالخيول المسومة والسلاح الشاكي، والشارة الحسنة، ما تحدث به أهل المشرق دهراً، وكان في جهاز ابنة السلطان ما يزيد على مائة ألف دينار من الحلى والياقوت والجوهر، وكان يوم دخولها إلى مكة يوماً مشهوداً، حضره عامة أهل الموسم الأعظم من الآفاق، وتناقلت حديثه الركبان والرفاق.

## اعتناء السلطان سيدي محمد بن عبد الله بعبيد السوس والقبلة وجلبهم إلى أجدال رباط الفتح

وفي هذه السنة، أعني سنة اثنتين ومائة وألف، بعث السلطان سيدي محمد بن عبد الله ابن عمه المولى علي بن الفضيل وكاتبه أبا عثمان سعيد الشليح الجزولي إلى بلاد السوس لجمع عبيد المخزن الذين بها، وبعث وصيفه المحجوب ابن قائد رأسه لإقليم طاطا وآقاوتيشيت من بلاد القبلة لجمع العبيد الذين هنالك فجاؤوا بألفين من عبيد السوس بأولادهم، وألفين من عبيد القبلة بأولادهم كذلك، فأنزلهم السلطان بظاهر مراكش إلى أن أعطاهم السلاح والكسي، وولى عليهم القائد المحجوب المذكور.

ثم لما سار إلى رباط الفتح أمر بقطع جنات أجدال الذي بظاهر البلد، وأنزل العبيد به وبنى لهم الدور والمسجد والمدرسة والحمام والسوق، وزاد عليهم ألفين وخمسمائة من الودايا جلبها من القبائل، وكتب الجميع في الديوان وجعلهم في مقابلة عبيد مكناسة والودايا الذين بها، وأفاض فيهم العطاء الكثير لسكناهم بثغر من ثغور الإسلام.

## فتح الجديدة

قد ذكر لويز مارية خبر هذا الفتح ونحن نلخص ما ذكره من ذلك قال: لما ولي السلطان سيد محمد بن عبد الله سلطنة المغرب، كان لا يقر له قرار من أجل مشاركة البرتغال له في قطعة من أرضه، وكان شهماً ذا أنفة وإباية، فاستشار أهل الرأي من دولته في غزو الجديدة وفتحها، فقالوا له: لا يظن سيدنا أن أخذها يكون بأن تحمل المسلمون عليها دفعة واحدة حتى يقتحموها مثلاً، فإن ذلك لا يجدي شيئاً، ولا يحصلون إلا على القتل، كما وقع في أيام السلطان الغالب بالله السعدي، وإنما يتوصل إلى فتحها بالحصار

والمطاولة براً وبحراً، فعمل على ذلك بعد أن كرهه أولاً، ولما عزم على النهوض إليها، جمع جيشاً كثيفاً من قبائل مراكش والحوز والسوس وغير ذلك.

زعم لويز أنه اجتمع له من المقاتلة نحو سبعين ألفاً، ويظن أن هذا من مبالغته على عادته في ذلك، وكان نزوله على الجديدة، في رابع مارس العجمي، سنة ثمان وستين وسبعمائة وألف مسيحية، وفي تواريخ الإسلام، أن نزوله عليها كان في فاتح رمضان من سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف عربية، ولما نزل عليها أمر بحفر الأساس لاتخاذ أشبار من جميع جهاتها، ونصب عليها خمسة وثلاثين مدفعاً بين كبير وصغير، ورمى عليها كوراً وبنباً كثيراً في أيام متعددة سقط منه داخلها أكثر من ألفين، وهدمت كثيراً من أبنيتها، وقتلت عدداً وافراً من أهلها، وكان من جملة أهلها رجل عسكري قد أناف على السبعين سنة وعجز عن حضور القتال، وله زوجة وأولاد، فلما رأى تساقط البنب مثل المطر طلب النجاة لنفسه وعياله، ففر إلى هري هنالك كان فوقه خزائن قمح فاختفى تحته، واختفى معه أناس آخرون وظنوا أن البنبة لا تنفذ في خزين القمح وتخرق السقف الذي تحته وتصل إلى الهري الذي هم به، فقضى الله تعالى بأن سقطت به بنبة تجاوزت القمح والسقف وسقطت على الشيخ فقتلته ومن معه، وكانوا تسعة أنفس، وانجرح آخرون.

ولما طال الحصار على أهل الجديدة كتبوا إلى طاغيتهم فأشار عليهم بالخروج إن عجزوا عن المدافعة، وكانت هذه المكاتبة من غير علم من العامة، وبينما هم كذلك إذ ورد عليهم مركب من أشبونة ظنوه مدداً لهم، فإذا به قد أتى بكتاب الطاغية يأمرهم بالخروج، ويتحملوا بأولادهم وعيالهم في مراكبه ويدفعوا البلد للمسلمين، ولما علم العامة بذلك امتنعوا وحاصوا حيصة حمر الوحش، وسبوا الكتاب ومن أرسله وقالوا: لا نخرج منها حتى نهلك عن أخرنا، إذ هي مأثرة أجدادنا عجنت طينتها بدمائهم، وفنيت عليها

نفوس أكابرهم وأشرافهم، ثم توسط بين عامتهم وكبيرهم القسيسون وسهلوا عليهم الأمر حتى انقادوا، وبعث كبيرهم إلى السلطان سيدي محمد بن عبد الله يطلب منه أن يكف عن القتال ويؤجله ثلاثة أيام ليدفع له البلد، فأجابه السلطان إلى ذلك، واشترط عليه أن لا يخرجوا إلا في ثيابهم التي على ظهورهم، ولا يحملوا معهم شيئاً غيرها فامتثلوا.

قال لويز: حتى أن عسكرياً منهم حمل معه كسوة أخرى لم تسمح بها نفسه فرآها كبيرهم وهو يريد أن يصعد إلى المركب فانتزعها منه وألقاها في البحر، ولما أيسوا من حمل شيء معهم أحرقوا الأثاث والفراش، وعرقبوا الخيل، وقتلوا الماشية، وكسروا الأواني والعدة وفلسوا أكثر من مائة مدفع وآخر الأمر أنهم دفنوا مينات البارود في حوماتها كل مينا فيها أكثر من أربعين برميلاً، وتركوا رجلاً حداداً اسمه بطروس، فيقال إنه الذي أوقد المينا عند دخول المسلمين إليها، فهلك فيها نحو خمسة آلاف وتهدم السور الجنوبي منها.

ولما وصلوا إلى أشبونة أسكنهم طاغيتهم ببلدة يقال لها: بلين فأصابهم الوخم وهلك منهم أكثر من ثلاثمائة نفس، ثم انتقلوا إلى بلاد البرازيل، فبنوا هنالك مدينة سموها مازكان الثانية باسم الجديدة، هذا ملخص ما ذكره لويز. ومن خط الفقيه العلامة أبي العباس أحمد السدراتي، أن فتح الجديدة كان صبيحة يوم السبت الثاني من ذي القعدة سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف، ووافق ذلك اليوم الثامن والعشرين من فبراير العجمي وهو ثالث أيام الحسوم اهـ. وكان ممن شهد هذا الفتح المعلم الحاج سليمان التركي المجيد في صناعة الرمي بالمهراس فأبدأ وأعاد، وحضرها أيضاً جماعة من فنانشة سلا فأبلوا بلاء حسناً، وعمرها السلطان بأهل دكالة إذ هي في وسط أرضهم، وأضاف إليهم حصة من عسكر اليكشارية وأعقابهم بها لهذا العهد والله أعلم.

# سعي السلطان سيدي محمد بن عبد الله في فكاك أسرى المسلمين وما يسر الله على يديه من ذلك

قد تقدم أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله كان قد بعث خاليه: عمارة بن موسى، ومحمد بن ناصر، الوديين وكاتبه أبا العباس الغزال إلى طاغية الإصبنيول، وأن الغزال قد أحكم الصلح وقضى الغرض على ما ينبغي، وفي تلك السفرة وقع التفادي بين السلطان والطاغية في الأسرى التي كانت بينهما حسبما مر.

فلما كانت هذه السنة التي هي سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف، كتب طاغية الإصبنيول إلى السلطان يقول: إنه لم يبق ببلادي أحد من أسرى إيالتكم، ولم يبق عندي إلا أسرى أهل الجزائر الذين عندهم أسرانا، وطلب منه مع ذلك أن يتوسط له عند صاحب الجزائر في المفاداة بينه وبينه، وكانت أسرى الإصبنيول تزيد على أسرى الجزائر بكثير، وطلب أن تكون هذه المفاداة على يديه أعني على يد السلطان رحمه الله، الرئيس بالرئيس والبلوط بالبلوط، واليكانجي باليكانجي، والبحري بالبحري، والجندي بالجندي، ومن فضلت عنده فضلة فالبحيري بخمسمائة ريال، والرئيس بألف، فأسعفه السلطان في طلبه، وانتدب للسعي في إنقاذ المسلمين من أيدي الكفار ابتغاء مرضاة الله ورجاء ثوابه، وكان السلطان قد كتب إليه مع الغزال وصاحبيه ليمن تحت أيديهم من سائر أسرى المسلمين، فبعثوا إليه بأهل المغرب فقط، واعتذروا بأنهم حبسوا أسرى الجزائر ليفكوا بهم أسراهم.

ولما كاتب السلطان أهل الجزائر وعرض عليهم ما طلبه طاغية الإصبنيول امتنعوا من الفداء، فكتب السلطان إلى باي الجزائر ثانياً فامتنع، ثم

أعاد إليهم الكتابة ثالثاً وحضهم على فكاك أسرى المسلمين ووعظهم وخوفهم عقاب الله ورغبهم في ثوابه، فأذعنوا وامتثلوا، وطلبوا منه أن يبعث إليهم رجلاً من خاصته يقف على المفاداة بنفسه، ويدفعون إليه أسراهم في يده، ويتسلم مثل عددهم من إخوانهم، فلما ورد على السلطان كتاب أهل الجزائر بالامتثال كتب إلى الطاغية يأمره أن يبعث بما عنده من أسرى المسلمين في مركب إلى الجزائر وينتظر هنالك الباشدور الذي يوجهه من قبله حتى تكون المفاداة على يده، وبعث السلطان لهذا الغرض كاتبه أبا العباس الغزال وصاحبيه، وعند وصولهم إلى الجزائر أرسى مركب الإصبنيول بظاهر مرساها وأنزل من أسرى المسلمين ألفاً وستمائة ونيفاً، فأخرج أهل الجزائر من أسرى النصارى مثلهم ألفاً وستمائة ونيفاً أيضاً، وبقيت عندهم من أسرى النصارى فضله ففداها الإصبنيول بالمال وانفصلوا، ورجع الباشدور ومن معه إلى حضرة السلطان وكتب الله أجر ذلك في صحيفته.

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين ومائة وألف فيها غزا السلطان قبائل تادلا لإفسادهم ومحاربة بعضهم بعضاً، فنهب أموالهم، وشردهم في كل وجه، وولى عليهم القائد صالح بن الرضي الورديغي، فاستصفى أموالهم وأفقرهم حتى لم يقدروا على الانتقال من محل إلى آخر من قلة الظهر.

ثم دخلت سنة أربع وثمانين ومائة وألف فيها غزا السلطان برابرة جروان لما ظهر منهم من الفساد، وإغرائهم ابنه المولى يزيد بالانتزاء على الملك، واجتماعهم على محمد وناصر المعروف بمهاوش رأس الفتنة، وتباريهم في خدمته، فقدم من مراكش وطرقهم وادي كريكرة فأوقع بهم ونهب أموالهم وقتل منهم نحو الخمسمائة، وتركهم عالة يتكففون الناس بمكناسة وفاس، ثم نقلهم إلى بسيط آزغار وأنزلهم وسط العرب فانحسمت مادة فسادهم.

# حصار السلطان سيدي محمد بن عبد الله مدينة مليلية من ثغور الإصبنيول

لما كانت أواخر سنة أربع وثمانين ومائة وألف، غزا السلطان سيدي محمد بن عبد الله مدينة مليلية وفيها نصارى الإصبنيول، فأحاطت عساكره بها ونصب عليها المدافع والمهاريس، وشرع في رميها أول يوم من المحرم سنة خمس وثمانين ومائة وألف، واستمر على ذلك أياماً فكتب إليه طاغية الإصبنيول يعاتبه على حصارها ويذكره المهادنة والصلح الذي انعقد بينه وبينه ويقول له: هذا خط كاتبك الغزال الذي كان واسطة بيني وبينك في عقد الصلح لا زال تحت يدي، فأجابه السلطان رحمه الله بأن قال: إنما عقدت معك المهادنة في البحر، فأما المدن التي في إيالتنا فلا مهادنة فيها ولو كانت فيها مهادنة لخرجتم إلينا ودخلنا إليكم، فكيف ادعاء المهادنة مع هذه المداهنة، فبعث إليه الطاغية عقد الصلح بعينه فإذا هو عام في البر والبحر، فكف عن حربها وأفرج عنها وترك هنالك جميع آلات الحرب من مدافع ومهاريس وكراريص وبنب وكور وبارود، وشرط على الطاغية حملها في البحر وردها إلى الثغور التي جلبت منها لما في جرها في البر من المشقة على المسلمين، فأنعم بذلك وبعث مراكبه فحملت بعضها إلى تطاوين، وبعضها إلى الصويرة، وذلك محلها الذي سيقت منه، وكان ذلك سبب تأخيره الغزال عن كتابته، وبقي عاطلاً إلى أن كف بصره ومات رحمه الله.

وسمعت من بعض فقهاء العصر وقد جرت المذاكرة في كيفية هذا الصلح فقال: إن الغزال رحمه الله لما أعطى خط يده بالصلح والمهادنة، كتب في الصك ما صورته: وإن المهادنة بيننا وبينكم بحراً لا براً، فلما حاز النصارى خط يده كشطوا لام الألف وجعلوا مكانها واواً فصار الكلام هكذا بحراً وبراً، وأن السلطان رحمه الله إنما أخره لاختصاره الكلام وإجحافه به حتى سهل على النصارى تحريفه، وكان من حقه أن يأتي بعبارة مطولة مفصلة

حتى لا يمكن تحريفها، فيقول: مثلاً والمهادنة بيننا وبينكم إنما هي في البحر، وأما البر فلا مهادنة بيننا وبينكم فيه، أو نحو هذا من الكلام فيصعب تحريفه، وقد نص أهل علم التوثيق على هذا وأن الموثق يجب عليه أن يبسط الكلام ما استطاع ويجتنب الاختصار المجحف وما يؤدي إليه بوجه من الوجوه والله أعلم.

## نهوض السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى برابرة آيت ومالو والسبب في ذلك

ثم دخلت سنة ست وثمانين ومائة وألف فيها خرج السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله إلى جبال آيت ومالو، وكان ذلك في غرض قائده بلقاسم الزموري، فإنه كان قد ولاه عليهم فلم يقبلوه، فطلب من السلطان الإعانة عليهم فأمده بثلاثة آلاف فارس مضافة إلى من معه من إخوانه زمور وبني حكم، وسار إليهم فلما نزل على وادي أم الربيع من ناحية تادلا زحفوا إليه فولى عنهم مدبراً ولم يعقب، واتصل خبر هزيمته بالسلطان فاغتاظ على آيت ومالوا، وأخذ في الاستعداد لغزوهم، وبرزت العساكر بظاهر مكناسة، وبعث السلطان إلى أمراء القبائل من العرب والبربر يستنفرهم فوافاه بمكناسة على الصعب والذلول، ولما تكاملت الجنود نهض إليهم.

قال صاحب البستان: وهو الكاتب أبو القاسم الصياني بالصاد المشممة زاياً كلفظ صراط في قراءة حمزة، وكنت معه في هذه السفرة وساق الحديث عنها بأن قال: كنت مع السلطان وأنا يومئذٍ في حيز الإهمال، أتوقع الموت في كل وقت، بسبب ما كتب إليه في شأني القائد بلقاسم الزموري المذكور آنفاً، وأني أنا الذي أفسدت عليه قومه، ولما وصل السلطان إلى محلة بلقاسم ونزلت عساكره في بسيط كريكرة أشار على السلطان بأن يقسم تلك الجيوش على ثلاثة أقسام: ثلث منها ينزل بتاسماكت من وراء العدو، وثلث

ينزل بزاوية أهل الدلاء على طريق بلادهم، وثلث يذهب معه على طريق تيقيط، ويتقدم السلطان في عساكره حتى ينزل بآدخسان، وتقصدهم العساكر من كل وجه، وقرب على السلطان الأمد البعيد، باللسان والرأي الذي لا يفيد، وكان هو لا يعرف البلاد، ومن الغد افترقت العساكر فتوجه كل إلى ناحيته التي عينت له، وتقدم السلطان إلى آدخسان، ولما عبر وادي أم الربيع قدم كروان أمامه للغارة عليهم، فساروا إلى أن بلغوا قصبة آدخسان فلم يجدوا بها نافخ نار، فأقاموا هنالك إلى أن لحق بهم السلطان فقال: أين هؤلاء؟ قالوا: ما رأينا أحداً، وهذه قصبة آدخسان، فأمر بنزول الجيوش وبقي هو على فرسه متحيراً فاستدعى أبا القاسم الصياني، قال: فأسرعت نحوه فقال لي: أتعرف هذه البلاد؟ قلت: نعم أتم المعرفة قال: وأين أهلها؟ قلت: في جبلهم، قال: أو ليس هذا جبلهم وهذا آدخسان؟ قلت: لا هذه قصبة المخزن. والجبل من تلك الثنايا السود فما خلفها، وأريته الثنايا، فقال: وأين الزاوية التي سار إليها الجيش مع قدور بن الخضر ومسرور؟ قلت: هي عن يمين الثنايا في البسيط، قال: وأين تاسماكت التي سارت إليها أمم البربر مع ولد محمد واعزيز؟ قلت: بيننا وبينها مرحلتان من وراء الثنايا، قال: ومن أين يأتي القائد بلقاسم: فأريته الثنية التي يطلع منها وقلت له: إنه لا يصل إلينا إلا غداً إن سلم! قال: وما صنعنا نحن؟ قلت: ضربنا في حديد بارد فإن الذي بالزاوية لا يجدي، والذي بتاسماكت لا يجدي، وآيت ومالو متحصنون بالجبل، وبلقاسم رجل مشؤوم عافى الله مولانا من شؤمه، قال: فظهر للسلطان خلاف ما سمع من بلقاسم، وتحقق فساد رأيه، وعلم أنه قد أخطأ فيما ارتكبه من التغرير بالمسلمين قال: ثم بينت له السبب الذي نفر به آيت ومالو عن بلقاسم حتى عرفه، قال: اكتب إلى قومك صيان يقدموا علينا فإني قد سامحتهم، فكتب إليهم وبعثت بالكتاب من آدخسان مع بعض الأشراف، واثنين من أصحاب السلطان، فخاضوا إليهم الليل واجتمعوا بهم،

ومن الغد أصبح عندنا أربعة منهم بهديتهم، فدخلت بهم على السلطان فأكرمهم، وقبل هديتهم، وقال: إني سامحتكم لوجه كاتبي فلان، وردهم مبشرين إلى إخوانهم، وباتت العساكر تلك الليلة بلا علف ولا تبن، ومن الغد ظهرت محلة بلقاسم ومعه مختار والعبيد وكانوا قد باتوا على القتال طول ليلتهم، ولما وصلوا إلى السلطان أمر أن ينزل العبيد بجواره وينزل بلقاسم مع قومه زمور وبني حكم، وأعرض عنه ثم أمره بتسريح إخوانه إلى بلادهم، وسرح القبائل كلها إلى بلادها، وفرق ذلك الجمع وارتحل راجعاً إلى تادلا.

وأما الذين نزلوا بتاسماكت مع ولد محمد واعزيز، فبيتهم آيت ومالو بغارة شعواء شردوهم بها في كل وجه، ونهبوا محلتهم، وقتلوا منهم عدداً كثيراً ورجعوا إلى مكناسة مفلولين، ولما بات السلطان بالزرهونية ورد عليه أصحاب قدور بن الخضر بكتابه يقول فيه: إن البربر قد تألبوا علينا من كل أوب، فإن لم يدركنا سيدنا هلكنا، قال الصياني: فأمرني السلطان بالمسير إليهم والاحتيال في خلاصهم بكل ما يمكن، وبعث معي مائة فارس، فوافيت الزاوية الدلائية فوجدت قبائل البربر محيطة بهم، فاجتمعت بآيت يسري ووعدتهم من السلطان بالعطاء الجزيل إن هم فسحوا لجيشه حتى يسلك في بلادهم فأنعموا بذلك، ورحل الجيش مع الفجر وعدلنا به من آيت ومالو وعبرنا الوادي إلى بلاد آيت يسري، وسار معنا نحو المائة من أعيانهم إلى أن أخرجونا إلى وادي تاقبالت من تادلا ورجعوا، قال: وتقدمت إلى السلطان فأخبرته بخلاص الجيش ووصوله إلى وادي تاقبالت، فسره ذلك ودعا لي بخير وقال: لا بد أن ترجع إليهم الساعة وأعطاني مالاً أفرقه عليهم، وأرسم لهم المنازل التي ينزلونها في مسيرهم إلى مكناسة، وبها ينتظرون السلطان، فرجعت إليهم في الحين وأخبرتهم برأي السلطان في المسير إلى مكناسة، ورسمت لهم المنازل على نحو ما أمر، ولما أصبحنا فرقت عليهم المال

وارتحلوا إلى مكناسة، وانقلبت إلى السلطان فوجدته قد أصابته حمى أقام لها بقصبة تادلا، وكان الطبيب أبو العباس أحمد آدراق يعالجه ولا يدخل عليه إلا أنا وهو، وصاحب طعامه الحاج عبد الله إلى أن عوفي فوصل الطبيب بألف دينار، ثم سافر إلى مكناسة وبوصوله إليها قبض على بلقاسم الزموري، ونكبه واستصفى أمواله وولي على زمور وبني حكم ولد محمد واعزيز، قال الصياني: ومن ذلك الوقت رفع السلطان منزلتي على أقراني وصار يقدمني في المهمات.

ثم دخلت سنة سبع وثمانين ومائة وألف فيها انعقدت الشروط بين السلطان وبين البرتغال، وهي اثنان وعشرون شرطاً، مضمنها الصلح والأمان كالشروط المتقدمة.

## ذكر ما آل إليه أمر اليكشارية الذين استخدمهم السلطان من قبائل الحوز

لما جمع السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله هذا الصنف من رماة الجند وسماهم اليكشارية كالذين من قبلهم، وكان جمعهم على يد القائد عبد النبي المنبهي حسبما سبق، حصل منهم ضرر كبير للرعية في المال والحريم، وصاروا يعيثون في غلل جناتهم مما يمرون به أيام أسفارهم حتى صار ذلك الفساد عندهم عادة، وما من منزل يبيتون به إلا ويكلفون أهله ما لا يطيقون، فإذا كلمهم أعيان الرعية في الرفق بالناس قالوا: هذه عادة لا نتركها وهي من قوانين الدولة، ولما علم السلطان بما يرتكبونه من العسف أسقطهم من الجندية، ونزع منهم السلاح، وردهم إلى المغرم مع إخوانهم وأراح الناس من شرهم.

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين ومائة وألف فيها عزل السلطان القائد محمد بن أحمد البوزراري عن قبائل تامسنا وتادلا وما اتصل بهما، ولم يترك

له إلا إخوانه من أهل دكالة، وولى على السراغنة أبا عبد الله محمد المعروف بالصغير، وعلى أهل تادلا صالح بن الرضي الورديغي، وعلى أولاد أبي رزك المزابي القائد صاحب الطابع، وعلى أولاد أبي عطية عمر بن أبي سلهام المزابي، وأمر محمد بن أحمد أن يقبض من إخوانه الذين كانوا عمالاً على هذه القبائل ما احتجبوه من الأموال أيام ولايتهم، واستصفى منهم مائة وخمسين ألفاً.

## خروج العبيد على السلطان سيدي محمد بن عبد الله ومبايعتهم لابنه المولى يزيد وما نشأ عن ذلك

ثم دخلت سنة تسع وثمانين ومائة وألف فيها كانت الفتنة العظمى التي هي خروج العبيد على السلطان سيدي محمد بن عبد الله وبيعتهم لابنه المولى يزيد، وكان السبب في ذلك أن السلطان كتب إليهم وهو بمراكش يأمرهم أن يعينوا منهم ألف كانون ينتقلون بأولادهم إلى طنجة يكونون بها، وبعث إليهم بالكتاب مع القائد الشاهد رأس الفتنة، وولاه على ذلك الألف، فلما أتاهم بكتاب السلطان، قال لهم: لا يذهب معي إلا الأعيان ومن له دار وأرض وضيعة، ولا يذهب معي إلا أمثالي، فلما سمع اقتراحه أولئك الأجلاف ركبوا رأسهم في سبيل الخلاف، واستفزهم الشيطان حتى صرحوا بخلع السلطان جرياً في ذلك على مذهبهم القديم، والتفاتاً إلى فعل سلفهم الذميم، فلما أنهى خبرهم إلى السلطان بعث إليهم ابنه المولى يزيد وكان عنده بمراكش كي يستصلحهم به، فازداد فسادهم وعظم عنادهم.

قال صاحب البستان: وكنت يومئذٍ برباط الفتح، فلما ذهبت إلى مراكش لقيت المولى يزيد بالسانية ـ موضع على نحو نصف يوم منها ـ قال: فسألني عن خبر العبيد فقصصته عليه، فسره ذلك وجد في السير، ففهمت قصده وعرفت ما يؤول إليه أمره فيهم، وزعم أنه لما قدم على السلطان لامه في

بعثه المولى يزيد، فاعترف بالخطأ في ذلك، ولما وصل المولى يزيد إلى مكناسة واجتمع بالعبيد لم يقدموا شيئاً على بيعته والخطبة به، ففتح بيوت الأموال وأعطاهم حتى رضوا، ثم فتح مخازن السلاح والبارود ففرقه فيهم، ثم دخل في بيعته من كان قريباً من قبائل العرب والبربر، غير الودايا، وآيت أدراسن، وجروان، الذين هم شيعة السلطان فإنهم تعصبوا له.

قال صاحب البستان: وبعد ثلاث بعثني السلطان إلى الودايا وأحلافهم بمكاتيب، فقدمت عليهم بها وأقمت عندهم إلى أن زحف إليهم المولى يزيد في جيش العبيد وهم بالأروى، وكان آيت أدراسن وجروان قد دخلوا مع الودايا وظاهروهم على العبيد، فوقعت الحرب بالمشتهى داخل القصبة فانهزم العبيد وسلطانهم، وقتل منهم نحو الخمسمائة، وأما الجرحى فبلا عدد، وانقلبوا مفلولين.

واتصل الخبر بالسلطان فخرج من مراكش في الجند وقبائل الحوز يريد مكناسة، ولما وصل إلى سلا وسمع المولى يزيد بقدومه فر إلى ضريح الشيخ أبي الحسن علي بن حمدوش، ثم إلى ضريح المولى إدريس الأكبر رضي الله عنه بزرهون، فتقدم السلطان إلى زرهون، ولما دخل الضريح الشريف أتاه أشراف زرهون بابنه المولى يزيد فعفا عنه وسامحه، واستصحبه معه إلى مكناسة، ولما وجه إليها خرج إليه نحو المائة من العبيد من ذوي أسنانهم ومعهم الأشراف والمرابطون والنساء والصبيان فعفا عنهم وسامحهم على شرط الخروج من مكناسة فأذعنوا، وأقام السلطان بمكناسة يدبر أمرهم إلى أن فرقهم على الثغور، فبعث منهم رحيين إلى طنجة، ورحيين إلى العرائش، ورحى إلى رباط الفتح، وقصد بتفرقتهم دفع غائلتهم وتوهين عصبيتهم، ثم عمد إلى الذين كانوا برباط الفتح ففرقهم أيضاً، فبعث ألفين منهم إلى السوس، وألفاً إلى مراكش، وأبقى ألفين برباط الفتح مع عبيد مكناسة المغربين إليها، واستراحت الدولة من شرهم استراحة ما.

ثم إن العبيد الذين بطنجة وثبوا على قائدهم القائد الشيخ وعلى قائد أهل الريف محمد بن عبد الملك، وأرادوا قتلهما فهربا لآصيلا، والسلطان يومئذٍ لا زال بمكناسة، ولما أنهى إليه خبرهم، كتب إلى أعيانهم يتوعدهم فقبضوا على أصحاب الفعلة وبعثوا بهم إليه وتبرؤوا منهم، فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، فاستكانوا بعض الشيء ورجع القائدان إلى طنجة، ثم لما سافر السلطان إلى مراكش أخذ معه عبيد مكناسة فأنزل أهل القصبة منهم بالمنصورية قرب وادي النفيفيخ لأنهم كانوا رأس العصاة، واستصحب الباقين إلى مراكش، فأنزلهم بها بعد أن عزل عنهم قوادهم الذين حضروا فعلة المولى يزيد، وأبقاهم عاطلين مهملين، وولى عليهم أناساً من غيرهم.

## ذكر ما سلكه السلطان سيدي محمد بن عبد الله في حق العبيد من التاديب الغريب

ثم إن العبيد الذين بالثغور عاثوا بها وأضروا بأهلها في جناتهم وأموالهم وأعراضهم، فأنهى خبرهم إلى السلطان أيضاً، ولما أعياه أمرهم ورأى أن تأديبهم بالتفرقة لم يفد فيهم، انتقل رحمه الله معهم إلى مرتبة أخرى من التأديب لم يسبق إليها، كانت ترياقاً لقطع دائهم، وناراً لحسم عرق بلائهم، وذلك أنه لما بلغه ما هم عليه من الجور والطغيان، نهض من مراكش عازماً على الإيقاع بهم، فلما وصل إلى رباط الفتح، كتب إلى أهل طنجة والعرائش منهم يقول: إني قد رضيت عنكم وبررت قسمي في نقلكم من مكناسة إلى الثغور، والآن إذا وصلتكم الإبل والبغال التي أبعثها إليكم فلتحمل أهل طنجة بأولادهم ومتاعهم وليقدموا إلى دار عربي من بلاد سفيان فلينزلوا بها، ثم يبعثوا الإبل والبغال إلى أهل العرائش ليتحملوا بأولادهم ومتاعهم إلى دار عربي كذلك، فإذ اجتمعتم أنتم وهم بها فإني أبعث إليكم بغالي تتحملون عليها إلى مكناسة كلكم، فلما وصل إليهم كتاب السلطان بذلك طاروا فرحاً وأحبوا الرجوع إلى مكناسة.

ولما وردت عليهم الإبل والبغال ارتحلوا من طنجة، وفي أثناء ذلك

بعث إليهم السلطان قائدهم سعيد بن العياشي الذي خلعوه أيام الفتنة، وأوصاه أن يقيم بدار عربي حتى يقدم عليه عبيد طنجة والعرائش، فانتهى إليها ووافاه بها عبيد طنجة فنزلوا عليه بقضهم وقضيضهم، ووصلت الإبل والبغال إلى أهل العرائش فجاؤوا حتى نزلوا مع إخوانهم كما رسم السلطان.

ثم إن السلطان رحمه الله نهض من رباط الفتح حتى وافى مشرع مسيعيدة من وادي سبو، ثم انتقل منه إلى سوق الأربعاء من بلاد سفيان ثم تقدم إلى قبائل الغرب وبني حسن أن يسيروا إلى العبيد ويعسكروا عليهم من جميع الجهات فامتثلوا، ولما استداروا حولهم وأحاطوا بهم إحاطة بياض العين بسوادها، قدم السلطان ودعا رؤساء القبائل فحضروا عنده، فقال لهم: إني قد أعطيتكم هؤلاء العبيد بأولادهم وخيلهم وسلاحهم، وكل مالهم فاقتسموهم الآن وكل واحد منكم يأخذ عبداً وأمة وأولادهما، فالعبد يحرث والأمة تطحن، والولد يرعى الماشية، فحذوهم وتقلدوا سلاحهم واركبوا خيولهم، والبسوا كساهم بارك الله لكم فيهم، فأنتم عسكري وجندي دونهم، فلما سمعت قبائل الغرب وبني حسن هذا الكلام من السلطان وثبوا على العبيد من غير أن تكون منهم وقفة، واقتسموهم في أسرع من لحس الكلب أنفه، وتوزعوهم شذر مذر، وصيروهم عبرة لمن اعتبر.

وقفل السلطان راجعاً إلى رباط الفتح، ولما دخله نفى العبيد الذين بها إلى مراكش، فأنزلهم بها بعد أن عزل عنهم قوادهم، وولى مكانهم غيرهم، واستمر عبيد طنجة والعرائش موزعين في القبائل أربع سنين، ثم عفا عنهم واستردهم من القبائل إلى الجندية، وأركبهم وكساهم وسلحهم، لكنه ميزهم وجعلهم قبائل في الخلط وطليق منهم أنزلهم بقصر كتامة وسفيان، وبنو مالك أنزلهم بمسيعيدة، وبنو حسن أنزلهم بسيدي قاسم والحياينة، وأهل الجبل أنزلهم بتامدرت من أعمال فاس، وأقاموا هنالك عدة سنين يوجهون حصتهم في البعوث ويعسكرون مع السلطان متى احتاج إليهم، ثم جمعهم رحمه الله بعد ذلك ونقلهم إلى مراكش وأقبل عليهم بالعطاء إلى أن عادوا أحسن مما

كانوا حالاً، ثم بدا له فيهم فبعث عبيد السوس إلى تارودانت، وعبيد حاحة والشبانات إلى الصويرة، وعبيد السراغنة وتادلا ودمنات إلى تيط الفطر، وعبيد دكالة إلى آزمور، وعبيد الشاوية إلى آنفي، وعبيد زعير والدغماء إلى المنصورية، وعبيد بني حسن إلى المهدية، وأبقى معه بمراكش عبيد سفيان وبني مالك والخلط وطليق والمسخرين من أصحاب العباس.

وكان قيام هؤلاء العبيد سبباً لافتراق الكلمة وانحلال نظام الملك بالمغرب، وسرى فسادهم في القبائل كلها عرباً وبربراً، وكثر الهرج وانحبس المطر ووقع القحط وعظمت المجاعة واستمر الحال على ذلك نحواً من سبع سنين، من سنة تسعين إلى سنة ست وتسعين ومائة وألف، فكانت هذه المدة كلها مجاعة، أكل الناس فيها الميتة والخنزير والآدمي. وفنى أكثرهم جوعاً، والسلطان في ذلك كله يكابد المشاق العظام ويصير على الجنود الأموال الثقال، راتباً بعد راتب، وعطاء بعد عطاء، إلى أن خلصوا من المجاعة وصلحت أحوال الجماعة، وكان رحمه الله قد رتب الخبز في كل مصر، يفرق على ضعفائه في كل حومة، وأسلف القبائل الأموال الطائلة يقتسمونها على ضعفائهم إلى أن يؤدوها زمان الخصب والرخاء.

ولما عاش الناس وهموا بأدائها سامحهم بها وقال: ما أعطيتها بنية الاسترجاع وإنما ذكرت السلف لئلا يستبد بها الأشياخ والأعيان إذا سمعوا أنها هبة، فرحم الله تلك الهمة الشريفة، ما كان أعلاها وأعظمها وأرأفها وأرحمها، وأسقط رحمه الله في تلك المدة جميع الوظائف والمغارم عن قبائل المغرب إلى أن عاشوا وتمولوا، وكان يعطي التجار الأموال ليجلبوا بها الأقوات من بر النصارى، فإذا وصلت أمرهم أن يبيعوها بثمنها الذي اشتريت به رفقاً بالمسلمين، وشفقة على الضعفاء والمساكين.

ولما دخلت سنة سبع وتسعين ومائة وألف مطر الغرب وعاش الناس، وحرثوا وأدرك الزرع، ورخصت الأسعار، وازدهت الدنيا، ودرت الجبايات، وأخذ أمير المؤمنين رحمه الله في تمهيد المغرب ثانية واستئناف العمل والجد والله غالب على أمره.

# إيقاع السلطان سيدي محمد بن عبد الله بأولاد أبي السباع وتشريدهم إلى الصحراء وما يتبع ذلك

لما كان بالمغرب ما تقدم من الفتنة وشغل السلطان بإنعاش الضعفاء عن ضبط الأطراف وقمع البغاة بها، نبغت نوابغ الفتن ببعض القبائل منها، وعادت هيف إلى أديانها، فمن ذلك قبيلة أولاد أبي السباع بأحواز مراكش، فلطالما ارتكبوا العظائم واجترحوا وغدوا في الفتنة وراحوا، واستطالوا على من بجوارهم وغزوهم في أرضهم وديارهم.

فلما كانت هذه السنة التي هي سنة سبع وتسعين ومائة وألف، جهز إليهم السلطان العساكر فقاتلوهم وقتلوهم، وانتهبوا أموالهم وشردوهم إلى السوس، وقبض السلطان على كثير من أعيانهم فأودعهم سجن مكناسة إلى أن هلكوا به، وأوعز إلى قبائل السوس أن يطردوا بقيتهم، وينفوهم إلى بلاد القبلة مسقط رأسهم ومنبت شوكتهم وبأسهم ففعلوا، ثم نقل قبيلة زمران بعد الإيقاع بهم إلى بلاد أولاد أبي السباع فعمروها، ثم نقل تكنة ومجاط وذوي بلال من شوشاوة الحوز إلى الغرب فنزلوا بفاس الجديد وأعماله، ثم أعاد آيت يمور من جبل سلفات إلى تادلا ثم نقل كطاية وسمكت ومجاط من تادلا إلى الغرب، ثم أعاد جروان من آزغار إلى الجبل.

وفي هذه السنة أيضاً كانت فتنة الدعي محمد والحاج اليموري، كان يزعم أنه من الأولياء ويتكلم في المغيبات ويشيع أنه ينتظر صاحب الوقت فسرى فساده في قبيلته وتجاوزها إلى غيرها فقصده جهلة البربر من كل قبيل، وأغرى آيت يمور بمن جاورهم من قبائل العرب، وكانوا يومئذٍ لا زالوا بسلفات فتصدى لهم قائد سفيان أبو عبد الله محمد الهاشمي السفياني وجمع له الجموع من قبائل الغرب وصمد إليه وهو في قبيلة آيت يمور فعبر نهر سبو وأنشب الحرب معهم فكانت الدبرة عليه وانهزمت جموع الغرب وقتل القائد

الهاشمي المذكور وعدد كبير من وجوه قومه، وتركوا محلتهم بما فيها للبربر، وعظم أمر هذا الدعي وشمخت أنوف قبيلته به وشرى ضلالهم، ولما قدم السلطان إلى مكناسة بعث من قبض عليه وساقه إليه فقتله وأراح الناس من وساوسه. وفي هذه السنة بعث السلطان ولده المولى عبد السلام لأداء فريضة الحج لأنه لم يكن أدرك الحلم عام حج مع أخيه المولى علي.

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين ومائة وألف فيها غزا السلطان برابرة زمور وبني حكم فلما أظلهم قدومه انشمروا إلى شعاب تافوديت وتحصنوا بها، فاحتال عليهم بأن قام عنهم وأوعز إلى آيت أدراسن وكروان أن يرصدوهم متى برزوا إلى الفضاء فلينهبوهم، فلما توجه السلطان قافلاً إلى مراكش خرجت زمور من شعابها فلم يرعهم إلا آيت أدراسن وكروان قد أحاطوا بهم فانتهبوا حللهم وتوزعوا أموالهم وتركوهم عالة يتكففون الناس.

## ذهاب السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى تافيلالت وتمهيده إياها والسبب في ذلك

كان الشريف المولى حسن بن إسماعيل عم السلطان مقيماً بتافيلالت وكان آيت عطة وآيت يفلمان من برابرة الصحراء شيعة له، فكان إذا حدث بينه وبين أشراف سجلماسة حادث استكثر بهم عليهم وحاربهم وربما قتل منهم، وكان السلطان يبلغه بعض ذلك عنه فيسوءه إلا أنه كان يثقل عليه أن ينال عمه منه مكروه، ولأنه كان مشغولاً بما هو أهم، فاستمر الحال إلى أن ترددت أشراف سجلماسة بالشكاية منه فلم يسع السلطان إلا زجره وقطع عادية بربره عن الأشراف، فعزم على المسير بنفسه إلى سجلماسة وكان ابنه المولى يزيد يومئذٍ بالمغرب فلم يرد السلطان أن يتركه خلفه لئلا ينشأ عنه ناشيء فتنة، فاحتال في إبعاده بأن وجهه إلى الحجاز لقضاء فريضة الحج

في غير ركب، بل أفرده عنه وأصحبه أميناً يصير عليه وأناساً قليلين يكونون في خدمته دفعاً لغائلته، ثم سافر السلطان إلى سجلماسة برسم زيارة تربة جده المولى علي الشريف رضي الله عنه وحسم داء عمه المولى حسن وشيعته، ولما شارف السلطان تافيلات قدم أمامه أبا القاسم الصياني لإخراج البربر من قصورهم في الأمان وإن كان عندهم ما يثقلهم من زرع أو تمر يعطيهم ثمنه لينقطع بذلك عذرهم، وإن أقاموا حتى أدركهم السلطان بها فإنما إثمهم على أنفسهم، فامتثل البربر الأمر وخرجوا إلى الصحراء ولم يأت السلطان حتى لم يبق منهم أحد بتلك القصور، وأفرد المولى حسن وانكسرت شوكته، ثم بعث إليه أبا القاسم الصياني أيضاً يعرض عليه السكنى بمكناسة وينفذ له ما يكفيه من الظهر لحمل عياله وأثقاله، قال الصياني: فذهبت إليه وباشرت أمره إلى أن أجاب، ومن الغد سرت به إلى مكناسة وأمرني السلطان أن أعطيه داراً يسكنها، ورتب له ثلاثمائة مثقال لكل شهر ينفقها على نفسه وعياله: وأمرني مع ذلك إذا فرغت من شأن عمه المذكور أن أصحب معي أولاده الثلاثة المولى سليمان والمولى حسن والمولى حسين، وأن أصحب معهم قدراً من المال وعدداً من المدافع والمهاريس والبنب، وطائفة من الطبجية من علوج اللمان وألفاً من عسكر الثغور رجّالة لجر تلك المدافع والمهاريس، قال: فقضيت الغرض على ما ينبغي وعدت إليه وهو بسجلماسة بجميع ما أمرني به، فبلغنا ونحن أثناء الطريق وفاة ولد السلطان وخليفته بفاس المولى علي بن محمد، وكان من سادة العلويين ونجبائهم ومن أهل المروءة والأوصاف المحمودة عقلاً وعلماً وأدباً وكرماً وعلو همة.

زاد في **البستان** وكان مجلسه مجمع الفضلاء والأدباء والنبلاء يتشبه بأخلاق المولى محمد العالم ابن المولى إسماعيل في كرمه وأدبه، وكان له اعتناء كبير بنسخ كتب العلم الغريبة وكتب الأدب وكان كثيراً ما يبعث بأشعاره

ومخاطباته لأهل عصره وأدباء وقته من الفاسيين والبكريين والقادريين كما كان المولى محمد العالم مشغوفاً بأشعار أولاد السلطان صلاح الدين بن أيوب الكردي رحم الله الجميع.

ولما بلغ أولاد السلطان إلى أطراف سجلماسة قدموا الأعلام إلى السلطان واستأذنوا في التقدم فخرج رحمه الله لملاقاتهم وأمر الأشراف وسائر أهل البلد أن يخرجوا للسلام عليهم ويشاهدوا آلة الحرب التي ليست ببلادهم. فخرجوا وخرج السلطان في موكبه، وركبت العساكر خلفه في أحسن زي وأكمل ترتيب، فكان ذلك اليوم من أيام الزينة، ولما قضى غرضه من سجلماسة وثقف أطرافها ورتب عربها وبربرها وحسم داء آيت عطة وآيت يفلمان، ولى عليهم القائد علي بن حميدة الزراري من كبار قواده وأعيان دولته، ثم نهض السلطان إلى مراكش بعد أن أقام بسجلماسة شهراً وكان سلوكه إلى مراكش على طريق الفائجة.

قال صاحب البستان: وكان قد ردني إلى الغرب لآتيه بجيش من أولاد عبيد الثغور ألقاه بهم بمراكش ليزيدهم في جيشه ويقبضوا السلاح والكسوة بها، ولما انتهى السلطان في طريقه إلى ثنية الكلاوي نزل عليه الثلج الكبير فسد المسالك وتفرقت العساكر في كل وجه، وحال الثلج بينهم وبين أخبيتهم ورحالهم، وبات السلطان منتبذاً ناحية عن مضاربه وقبابه معزولاً عن طعامه وشرابه، ولم تلتق طائفة من العسكر مع صاحبتها إلى أن طلعت الشمس فرفع الله عنهم الثلج وأصبح ذلك اليوم عيد الأضحى فخطب السلطان الناس بنفسه ودعا للسلطان عبد الحميد بن أحمد العثماني ودخل مراكش سالماً معافى وسلم الله العسكر من ذلك الثلج فلم يهلك منه أحد والحمد لله.

# خروج السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى الصويرة بقصد النزهة واغتنام الراحة وما اتفق له في ذلك

لما قدم السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله من سجلماسة إلى مراكش أقام بها إلى أن دخل فصل الربيع، فاعتزم على الخروج إلى الصويرة والوقوف عليها ومعاينة مبانيها ومعالمها، إذ كان له ولوع بهذه المدينة التي أنشأها واغتبط بها، وقصد أيضاً زيارة رجال رجراجة بالساحل والتبرك بآثارهم، وكانت سفرته هذه سفرة فرجة وجمام نفس واغتنام لذة، فأشخص معه جماعة من علماء العصر وأئمته فكان يملي عليهم الحديث النبوي ويؤلفونه على مقتضى إشارته، منهم الفقيه العلامة المشارك أبو عبد الله محمد بن الإمام سيدي عبد الله الغربي الرباطي، والفقيه العلامة المحقق أبو عبد الله محمد المير السلاوي، والفقيه الدراكة أبو عبد الله محمد الكامل الرشيدي، والفقيه العلامة أبو زيد عبد الرحمٰن أبو خريص هؤلاء أهل مجلسه الذين كانوا يؤلفون له ويسردون ويخوضون فيما يجمعه ويستخرجه من كتب الحديث التي جلبها من المشرق، كمسند الإمام أحمد، ومسند أبي حنيفة وغيرهما، وكان معه جماعة وافرة من الكتاب المعتبرين في الإنشاء والترسيل، كالسيد المهدي الحكاك المراكشي والسيد عبد الرحمٰن بن الكامل المراكشي، والسيد أحمد بن عثمان المكناسي، والسيد أحمد الغزال الفاسي، والسيد محمد سكيرج الفاسي، والسيد الطاهر بناني الرباطي، والسيد الطاهر بن عبد السلام السلاوي والسيد سعيد الشليح الجزولي، والسيد إبراهيم إقبيل السوسي، وصاحب البستان أبي القاسم الصياني وغيرهم.

وكان خروجه لهذه الفرجة سنة ثمان وتسعين ومائة وألف، في فصل الربيع فضربت قبابه بظاهر مراكش ثم ضرب عليها السياج المحيط بها

المسمى بأفراك، وفي وسط تلك القباب القبة العظمى التي أهداها إليه طاغية الفرنج، وكانت مبطنة بالديباج ومحاريبها من الموبر الحر المختلف الألوان، وسفائفها من الكالون الإبريز، وأطنابها من الحرير الصافي، زعموا: أن مبلغ ما صير عليها الطاغية نحو خمسة وعشرين ألف دينار، ومصداق ذلك أن تفاحتها التي تكون في أعلى العامود وتسميها العامة بالجمور، كانت من الذهب الخالص، وزنها أربعة آلاف مثقال ذهباً، وكان السلطان رحمه الله قد أخرجها في هذه النوبة ابتهاجاً بها، وخرج معه الخاصة من القواد والكتاب وغيرهم بفازاتهم الرفيعة، ومضاربهم البديعة.

ثم توجه في ذلك الموكب العجيب يرتاد البلاد النزهة، والأماكن البهجة، التي تروق الطرف وتستغرق الوصف، وتبسط النفس، وتجلب الأنس، فأقام شهرين كاملين يتقلب في تلك البسائط ويستوفي اللذات، ويتقرى المعاهد، ويقتنص الطائر والشارد، إلى أن وصل إلى ثغر الصويرة فوقف عليه وقضى غرضه منه على الوجه الأكمل، وانقلب راجعاً إلى حضرته فاجتاز في طريقه برباط شاكر وهو من مزارات المغرب المشهورة، وكان مجمعاً للصالحين من قديم الزمان، ووقع في التشوف أن شاكراً الذي ينسب إليه هذا الرباط من أصحاب عقبة بن نافع الفهري فاتح المغرب، وأنه هنالك، فلما مر به السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله في سفرته هذه أمر بتجديد مسجده وحفر أساسه وتشييده وفي قفوله طلع مع وادي نفيس إلى أن بلغ مدينة أغمات، فزار ضريح الشيخ أبي عبد الله الهزميري وغيره من صلحائها، ونزل بمحلته تحت القرية، ولما استقر به المنزل جاءه جماعة من أهلها مع قاضيهم بكبش جيد وآنية فيها شيء من الشهد، فدخل القاضي على السلطان ولما مثل أمامه أنسه السلطان بالكلام وسأله عن أشياخه فأجاب بما لا طائل تحته فقال السلطان للحاجب: ابعث بالقاضي إلى خباء القاضي أبي زيد

عبد الرحمٰن بن الكامل، وهو الذي يتوجه قاضياً مع المحلة إلى السوس إن شاء الله، فأنزله عليه وادفع له هذا الكبش وهذا العسل، فسار الحاجب بالقاضي وبالكبش والعسل إلى خباء قاضي العسكر أبي زيد بن الكامل وأمره أن يكرم القاضي ليلته، ومن الغد ارتحل السلطان قافلاً إلى مراكش، فلما تعالى النهار نزل على وادي نفيس وضرب له هنالك صيوان الراضة على شاطىء النهر، ثم استدعى القاضي أبا زيد وسائر الكتاب، ولما جلسوا بين يديه سأل القاضي على وجه المداعبة وقال له: بم أجزت ضيفك على كبشه وعسله، فتعلثم في الجواب وعلم أن السلطان قصد اختباره بذلك، وأنه لم يصنع شيئاً حيث أهمل أمره، ولما رأى رحمه الله خجلته قال: فلعلك لم تجزه فلو مدحته على كبشه وعسله لصادفت المقصود وخرجت من العهدة وما بعثت إليكم إلا بسبب هذا الكبش والعسل، فإني سهرت ليلتي ولم أنم وذكرت ما اتفق للمنصور السعدي مع كتابه في مثل هذه القضية، وعلمت أنه لم يبق في وقتنا هذا كتاب ولا أدباء ولا أمراء، وسأسمعكم ما اتفق للمنصور في زيارته هذه القرية الأغماتية، ثم أمر كاتبه ابن المبارك أن يقرأ عليهم ما حكاه الفشتالي في مناهل الصفا عن خروج المنصور السعدي إلى أغمات بقصد الزيارة والنزهة، وما اتفق للقاضي أبي مالك عبد الواحد الحميدي مع من أهدى له الكبش والعسل من الشعر، والذي شايعه عليه جماعة من كتاب الدولة، وقد ألممنا بخبر هذه الخرجة للمنصور عند ذكر أخباره حسبما مر، وقد ذكر صاحب النزهة أبيات الحميدي ومن قفا نهجه من الكتاب فلتنظر هنالك، فقرأ الكاتب المذكور الترجمة كلها على الكتاب حتى سمعوها وعاب السلطان عليهم تقصيرهم في قضيتهم الموافقة لها، وفي ظني أن السلطان رحمه الله أمرهم بنسخ ذلك ومراجعته تحريكاً لهمتهم والله أعلم.

## ذكر السبب الذي هاج غضب السلطان سيدي محمد بن عبد الله على ابنه المولى يزيد رحمه الله

ثم دخلت سنة تسع وتسعين ومائة وألف فيها قدم ولد السلطان المولى عبد السلام من الحجاز فولاه السلطان رحمه الله تارودانت والسوس وما إليها، ثم لما حضر زمان خروج الركب الحجازي أحضر السلطان صهره وابن عمه المولى عبد الملك بن إدريس، وكاتبيه أبا عبد الله محمد بن عثمان المكناسي، وأبا حفص عمر الوزريق، وشيخ الركب أبا محمد عبد الكريم بن يحيى، وحملهم على وجه الأمانة مالاً لأشراف مكة والمدينة وسائر الحجاز واليمن، وقدره ثلاثمائة ألف ريال وخمسون ألف ريال، وبعث معهم صلات أخر لأناس معينين في حقاق مختوم عليها مكتوب على كل واحد منها اسم صاحبه، وأمرهم أن يذهبوا أولاً إلى القسطنطينية حتى يكون مسيرهم إلى الحجاز مع أمين الصرة الذي يوجهه السلطان العثماني إلى الحرمين كل عام، وإنما ارتكب السلطان هذه المشقة حذراً من ابنه المولى يزيد أن يعترضهم في الطريق وينتزع منهم المال، فبعثهم السلطان في البحر في بعض قراصين السلطان عبد الحميد وكتب إليه أن يبعثهم مع أمين صرته، فلما وصلوا إلى القسطنطينية وجدوا أمين الصرة قد سافر بالركب إلى الحجاز فأقاموا بها إلى العام القابل، وحينئذٍ سافروا صحبة الركب ولما وصلوا إلى المدينة المنورة فرقوا على أهلها وعلى سائر شرفاء الحجاز حظهم من المال.

ولما وصلوا إلى مكة وجدوا المولى يزيد بها يترصدهم، ففرقوا على أهل مكة حظهم وبقي عندهم حظ اليمن والحقاق التي فيها صلات الذهب، فتغفلهم المولى يزيد وقت القيلولة وهجم عليهم في جمع من أصحابه، وهم بدار شيخ الركب عبد الكريم بن يحيى، فانتزع منهم ما قدر عليه وأخذ الحقاق وذهب، فذهب شيخ الركب والمولى عبد الملك والكاتبان إلى أمير

مكة الشريف سرور وأخبروه الخبر فبعث أعوانه إلى المولى يزيد فحضر عنده وألزمه رد المال وتهدده فرد البعض وجحد البعض، فبسبب هذا فيما قيل غضب السلطان عليه وتبرأ منه، وكتب بالبراءة منه مناشير بعث بها إلى الآفاق فعلق أحدها بالكعبة، والآخر بالحجرة النبوية، والثالث ببيت المقدس، والرابع بضريح الحسين بمصر، والخامس بضريح المولى علي الشريف بتافيلالت، والسادس بضريح المولى إدريس بزرهون، والسابع بضريح المولى إدريس بفاس، وكتب إلى السلطان عبد الحميد بأن لا يقبله إذا أوى إليه، واستمر المولى يزيد مقيماً بالمشرق ولم يقدر أن يواجه أباه لسوء صنيعه إلى سنة ثلاث ومائتين وألف كما سيأتي إن شاء الله.

وفي هذه السنة أعني سنة تسع وتسعين ومائة وألف، أسر أهل الجزائر نصرانية من قرابة طاغية الإصبنيول كانت متوجهة في مركبها من أصبانيا إلى نابل لزيارة ابن عمها الذي هو صاحب نابل، فلما عرف أهل الجزائر محلها من قومها امتنعوا من فدائها بكل وجه، فكتب طاغية الإصبنيول إلى السلطان رحمه الله يسأله أن يشفع له في فدائها بكل ما يطلبون، فأسعفه وكتب لصاحب الجزائر في شأنها فاعتذر إليه بأن النصرانية في سهم العسكر ولا يمكنه إكراههم على فدائها، فلما رد صاحب الجزائر شفاعة السلطان كتب إلى السلطان عبد الحميد بذلك، فكتب عبد الحميد رحمه الله إلى أهل الجزائر يوبخهم على رد شفاعة السلطان ويقول لهم: إن الواجب أن تسرحوها له بدون مال، وما عسى أن يبلغ ثمن هذه النصرانية، ولو طلب مني سلطان المغرب ألف نصرانية لبعثتها إليه، وحتى الآن نأمركم أن تبعثوا إليه بهذه النصرانية ولو كانت هي الملكة، ولا تقبضوا فيها فداء أو ما رأيتم ما افتكه ملك المغرب من أسرى الترك من كل جنس حتى لم يبق في أسر الكفار مسلم؟! وأنتم تردون شفاعته في نصرانية لا بال لها، فلا تعودوا لمثل هذا فيكون سبباً لتغير باطننا عليكم والسلام.

ولما ورد عليهم فرمان السلطان عبد الحميد لم يسعهم إلا إرسال النصرانية إلى حضرة السلطان رحمه الله، وكتبوا إليه بالاعتذار وقالوا: إنما امتنعنا من فدائها خوف بلوغ خبرها إلى ملكنا فلم نر أن نفتأت عليه، وذلك هو الواجب علينا من طريق الخدمة والطاعة، فنحب من سيدنا أن يقبل عذرنا ولا يظن بنا خلاف هذا والسلام.

## ذكر ما كان من السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى أهل زاوية أبي الجعد حماها الله

هذه الزاوية من أشهر زوايا المغرب، ولها الفضل الذي يفصح عنه لسان الكون ويعرب، تداولها منذ أزمان فحول أكابر، ورثوا مقام الولاية والرياسة بها كابراً عن كابر، قد عرف لهم ذلك السوقة والملوك، والغني والصعلوك، ولم تزل الملوك من هذه الدولة وغيرها تعاملهم بالإجلال والإعظام والتوقير والاحترام.

ولما كانت دولة السلطان الجليل، الماجد الأصيل، نقم على كبيرها لوقته المرابط البركة أبي عبد الله سيدي محمد العربي بن الشيخ الأكبر سيدي المعطي بن الصالح بعض ما ينقمه الأمير على المأمور، والإنسان غير معصوم والمخلوق ناقص إلا من أكمله الله، فاتفق أن كان السلطان رحمه الله قافلاً في هذه السنة من رباط الفتح إلى مراكش، فجعل طريقه على تادلا ونزل على زاوية أبي الجعد فأمر على ما قيل بهدمها وطرد الغرباء الملتفين على آل الشيخ بها، ثم نقل سيدي العربي المذكور وعشيرته إلى مراكش فأسكنهم بها واستمروا على ذلك إلى أن توفي السلطان سيدي محمد رحمه الله وبويع ابنه المولى هشام بن محمد بمراكش، فأذن لهم في الذهاب إلى بلادهم فعادوا إلى زاويتهم واطمأنوا

بها برهة من الدهر.

ولما كانت دولة السلطان المولى سليمان بن محمد نقم أيضاً على سيدي العربي المذكور أموراً نقلها إليه الوشاة عنه، فأمر بنقله إلى فاس بعد مكاتبات ومعاتبات يطول جلبها، فانتقل إليها وأقام بها مدة ثم سرحه إلى بلاده.

ثم دخلت سنة مائتين وألف فيها بعث السلطان سيدي محمد رحمه الله كاتبه أبا القاسم الصياني باشدورا إلى السلطان عبد الحميد العثماني بهدية عظيمة، من جملتها أحمال من سبائك الذهب الخالص مثل بارات الحديد، وكان السلطان رحمه الله يقصد بمثل ذلك الفخر على الملوك وإظهار الغنى وكمال الثروة، وذلك من غريب السياسة لمن أقدره الله عليها، فقدم أبو القاسم القسطنطينية وألفى بها عبد الملك بن إدريس وشيخ الركب والكاتبين لا زالوا مقيمين بها ينتظرون الموسم من العام القابل، قال: فأقمت بالقسطنطينية ثلاثة أشهر وعشرة أيام، وقضيت الغرض وانقلبت إلى السلطان، وبعث معي السلطان عبد الحميد أحد خدامه بهدية إلى السلطان رحمه الله، قال: ولما قدمنا على السلطان نوه بقدري وقال: لا أوجه الهدايا للعثماني إلا معك، وكان الرئيس الطاهر بن عبد الحق فنيش السلاوي حاضراً، وقال: لا أوجه القراصين الحربية إلا مع الطاهر يسليه بذلك، قال: وسألني عن مقدار راتب عسكر الترك الذي يقبضونه في كل ثلاثة أشهر فقلت له: ستون أوقية لكل واحد، فاستقل ذلك فقلت له: إنه لا يكلفهم في أيام الغزو بمؤنة ولا علف خيل كل أمور السفر عليه.

ثم ذكر الصياني هنا كلاماً طويلاً في وصف القسطنطينية العظمى وحال أهلها خارجاً عن موضوع كتابنا هذا والله الموفق.

# ذكر عدد عسكر الثغور في دولة السلطان سيدي محمد بن عبد الله وما كان يقبضه من الراتب

كان بثغر الصويرة أيام السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله ما بين جيش وطبجية وبحرية ألفان وخمسمائة، وبآسفي مائتان من الطبجية، ومائتان من البحرية، وبتيط خمسمائة من العبيد، وبآزمور خمسمائة منهم كذلك، وبآنفي ألفان من العبيد، وبالعدوتين ألفان من الطبجية والبحرية، وبالمهدية ألفان وخمسمائة من العبيد، وبالعرائش ألف وخمسمائة ما بين جيش وطبجية وبحرية، وبآصيلا والساحل مائتان مابين طبجية وبحرية، وبطنجة ثلاثة آلاف وستمائة من أهل الريف، وبتطاوين ثمانمائة ما بين جيش وطبجية وبحرية، فكانت جملة عساكر الثغور ستة عشر ألفاً وخمسمائة، وراتبهم ثلاثين أوقية لكل واحد في كل ثلاثة أشهر، من حساب مثقال للرأس في كل شهر، وكانوا في ابتداء الأمر يقبضون راتب كل شهر عند انتهائه.

فلما كانت هذه السنة أعني سنة مائتين وألف، أنعم السلطان رحمه الله على عساكر الثغور بتعجيل راتب خمس عشرة سنة بحساب مثقال للرأس في كل شهر، وهذا مال له بال فإنه يقارب ثلاثة ملايين، فعل ذلك رحمه الله إعانة لهم وتوسعة عليهم، ثم أمر أن يجعل في كل مرسى من مراسي المغرب بيت مال وعند تمام كل ثلاثة أشهر يفتح بيت المال ويعطي لعسكر ذلك الثغر ثلاثون أوقية للرأس حضروا أم غابوا، إعانة لهم على عيالهم، وأما عطاء الغزو وعطاء عاشوراء والصلات والصدقات، فكان يبعث بذلك كله من عنده لا من بيوت الأموال، واستمر الحال على ذلك إلى أن توفي رحمه الله فوثب عبيد الثغور على بيوت أموالها وفتحوها واكتسحوها ثم ساروا إلى مكناسة مسقط رأسهم، وكان ذلك بإشارة المولى يزيد رحمه الله.

ثم دخلت سنة إحدى ومائتين وألف فيها غزا السلطان قبيلة شراقة بأحواز فاس فنهبهم وشردهم، فلجؤوا إلى ضريح الشيخ أبي الشتاء بفشتالة فعفا عنهم، ثم سار إلى الحياينة فأطلق الجيش في زروعهم فحصدوها ودرسوها واستصفوها عن آخرها، ثم جرد الخيل في طلبهم فاكتسحوا حللهم وأثاثهم.

قال صاحب البستان: وكنت يومئذٍ قد توجهت بجيش إلى عامل وجدة أبلغه إياه، فلما رجعت أدركت السلطان ببلاد الحياينة، فقلدني ولاية تازا وأعمالها، فسرت إليها وأقمت بها سنة كاملة، وفي هذه السنة قدم ولد السلطان المولى مسلمة بن محمد من المشرق مفارقاً لأخيه المولى يزيد.

ثم دخلت سنة اثنتين ومائتين وألف فيها أرسل السلطان رحمه الله إلى آيت عطة يأمرهم أن يبعثوا بستمائة رجل منهم، وبأربعمائة من عبيد تافيلالت، فالمجموع ألف ليكسوهم ويسلحهم ويستعملهم في خدمة البحر، وجنديته فبعثوا بهم إليه.

قال صاحب البستان: ولما قدموا عليه بمكناسة استدعاني من تازا فقدمت عليه فأمرني أن أتوجه بهم إلى تطاوين كي يقبضوا السلاح والكسوة بها، ثم أسير بهم إلى طنجة يكونون بها، وأمرني أن أكون أتعاهدهم بركوب الغلائط العشرين التي بمرساها، والخروج بها إلى البوغاز وسواحل أسبانيا، والتردد فيها بينهما ليتدربوا على البحر ويتمرنوا به، قال: فذهبت بهم إلى تطاوين على ما رسم السلطان رحمه الله، فأخذوا السلاح والكسوة ونفذنا إلى طنجة فأقمنا بها شهرين وكل يوم يركبون السفن ويتطاردون بها فيما بينهم، فتارة يخرجون إلى البوغاز وتارة يطرقون سواحل أصبانيا، وتارة يرجعون، إلى أن زالت عنهم دهشة البحر وفارقهم ميده وألفوه، ولما أقبل فصل الشتاء كتب إلى السلطان بالقدوم بهم، فلما حللنا مكناسة أمر رحمه الله بعمارة

المشور لدخولنا عليه، فلما مثلنا بين يديه دنا منا إلى أن كان في وسطنا وكلم البربر بلسانهم وسألهم عن حالهم في سفرهم، فذكروا خيراً فسره ذلك منهم ونشط، ثم قال لهم: هذا كاتبي وصاحبي قد وليته عليكم وعلى أولادي وبني عمي وسائر أهل الصحراء فاسمعوا له وأطيعوا، قال: ففزعت وخرس لساني وفهم السلطان عني الكراهية لذلك ثم دخل بستانه وبعث إلي فدخلت عليه فقال لي: طب نفساً ولولا أني أحبك ما وليتك على أولادي وأهل بيتي وإني لا أستغني عنك وهذا ابن حميدة الذي وليناه بسجلماسة لم تظهر له ثمرة، وكل يوم يأتيني بشكوى بولدي الحسين وتطاوله على الناس، ولا يمنعه من ذلك، وما وليتك عليهم إلا لهذا الغرض فإنهم يهابونك لمحلك مني، ثم كتب إلى جميع أولاده وأعيان سجلماسة وأمر لي بمال الصائر والبناء وعينه، ثم ودعته وانفصلت فخرجت من مكناسة إلى فاس ثم منها إلى سجلماسة، فدخلتها واستوطنتها وجاء العامل الذي كان بها قبلي حتى قدم على السلطان فقبض عليه ونكبه.

## قدوم المولى يزيد من المشرق واحترامه بضريح الشيخ عبد السلام ابن مشيش رضي الله عنه والسبب في ذلك

لما كانت سنة ثلاث ومائتين وألف قدم ولد السلطان المولى يزيد بن محمد من المشرق في ركب الحاج الفيلالي، وقصد سجلماسة، فلما كان بقرية أبي صمغون لقيه رفقة من أهل سجلماسة فسألهم عن البلاد وأهلها ومن المتولي عليها قالوا: أبو القاسم الصياني فلما سمع المولى يزيد ذلك سقط في يده ووجم، ثم التفت إلى شيخ الركب الشريف المولى عبد الله بن علي والي الأشراف الذين معه فقال لهم: إني كنت عازماً على الوصول معكم إلى بلدكم والاستيجار بضريح جدي المولى عليّ الشريف وأبعث مع أعيان بني

عمي وذوي أسنانهم من يشفع لي عند أبي، والآن حيث كان الوالي بهذه البلدة هو الصياني فلا يستقيم لي معه أمر، ولا يخيط بيني وبين والدي بخيط أبيض، وهؤلاء عيالي فخذوهم بارك الله فيكم واذهبوا بهم مع أصحابي ينزلون بدار أخي المولى سليمان، ويكونون بها، وأما أنا فسأسير إلى ضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش أكون به حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً، ثم قدم عياله مع أصحابه في جملة الركب وكتب إلى أخيه المولى سليمان يوصيه بعياله خيراً، وكتب أيضاً إلى شقيقته المولاة حبيبة بالرتب، وإلى بني عمه الذين هنالك وبعث بالمكاتيب مع أصحابه، ولما وصل الركب إلى بلاد القنادسة تقدم أحد أصحابه بالمكاتيب إلى المولى سليمان، ولما قرأها توقف ولم يدر ما يصنع، ثم جاء بها إلى أبي القاسم الصياني وأخبره الخبر وقال: إن والدي غاضب عليه وإن أنا قابلت عياله فربما ألحقني به، فما العمل؟ فكتب أبو القاسم إلى شيخ الركب ينهاه عن استصحاب عيال المولى يزيد معه وحذره غضب السلطان عليه وقال له: إن أردت السلامة لنفسك فابعث بالعيال إلى المولاة حبيبة بالرتب والسلام، ولما وصل كتابه إلى شيخ الركب وكانت فيه غفلة نجع فيه كلامه فحبس الركب إلى أن وصل أصحاب المولى يزيد بعياله فبعث معهم من يدلهم على طريق الرتب فسلكوا على وادي كثير ونزلوا عند المولاة حبيبة، وكتب أبو القاسم الصياني بالخبر إلى السلطان فزعم أنه استحسن فعله ثم أمره أن يهيىء الظهر والزاد ويبعث بهما إلى عيال المولى يزيد مع ثلاثين من العبيد ليأتوا بهم إلى دار الدبيبغ يكونون بها مع أمه، وكان السلطان قد أخرجها من الدار وأسكنها بدار الدبيبغ ففعل الزياني ذلك كله، وبهذه القضية كان المولى يزيد يعتد على الصياني حتى أنه لما أفضى إليه الأمر قبض عليه وضربه وامتحنه.

ولما وصل المولى يزيد إلى ضريح الشيخ عبد السلام رضي الله عنه بعث جماعة من أشراف العلم للشفاعة فيه فأمرهم السلطان أن يأتوا به

فراودوه على الإتيان فامتنع، ثم بعث إليه ثانياً فأبى، ثم ثالثاً فأبى، فكتب إليه بالعفو مراراً فلم يقبل وتصدى للخلاف وكشف وجه العصيان، وصار يكتب لوالده بما يحفظه، هكذا زعم الصياني، ولا يخفى أن الرجل كان مناوئاً له فلا ينبغي أن نسمع منه جميع ما ينسبه إليه والله أعلم بحقيقة الأمر.

ثم إن السلطان بعث إليه شقيقه المولى مسلمة في عسكر وأمره أن ينزل بقربه ويضيق عليه ويمنعه النزول من الحرم، ثم بعث إليه عسكراً آخر مع القائد العباس البخاري فنزلوا بقرب الحرم من الناحية الأخرى وضيقوا عليه حتى منعوه التصوف بكل حال، وفي مدة مقامه هنالك أخذ في تأسيس داره وبناء مسجده ولا زالت جدرانها قائمة أسفل الجبل إلى الآن، واستمر المولى يزيد محصوراً هنالك إلى أن بلغه خبر وفاة أبيه رحمه الله فكان من أمره ما نذكره إن شاء الله.

## وفاة أمير المؤمنين سيدي
## محمد بن عبد الله رحمه الله

لما اعتصم المولى يزيد بضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه، وراوده السلطان على النزول مراراً فأبى، نهض إليه من مراكش وأراد أن يحضر عنده بنفسه لعله تسكن نفسه، ويذهب ما بصدره من الجزع والنفرة، وكان عند خروجه من مراكش به مرض خفيف، فتحمل المشقة وجد السير فتزايد به المرض في الطريق فوصل إلى أعمال رباط الفتح في ستة أيام، فأدركته منيته رحمه الله وهو في محفته على نحو نصف يوم أو أقل من رباط الفتح، فأسرعوا به إلى داره من يومه ذلك وهو يوم الأحد الرابع والعشرون من رجب سنة أربع ومائتين وألف، ومن الغد اجتمع الناس لجنازته وانحشروا من كل وجه، فجهز ودفن بقبة من قباب داره، وتأسف الناس لفقده خاصة وعامة رحمه الله ورضي عنه.

# بقية أخبار السلطان سيدي محمد ابن عبد الله ومآثره وسيرته

كان السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله محبّاً للعلماء وأهل الخير مقرباً لهم لا يغيبون عن مجلسه في أكثر الأوقات، وكان يحضر عنده جماعة من أعلام الوقت وأئمته منهم الفقيه العلامة المشارك أبو عبد الله محمد ابن الإمام سيدي عبد الله الغربي الرباطي، والفقيه العلامة المحقق أبو عبد الله سيدي محمد المير السلاوي، والفقيه الدراكة أبو عبد الله محمد الكامل الرشيدي، والفقيه السيد أبو زيد عبد الرحمٰن المدعو بأبي خريص، هؤلاء هم أهل مجلسه الذين كانوا يسردون له كتب الحديث ويخوضون في معانيها ويؤلفون له ما يستخرجه منها على مقتضى إشارته، وكانت له عناية كبيرة بذلك، وجلب من بلاد المشرق كتباً نفيسة من كتب الحديث لم تكن بالمغرب، مثل مسند الإمام أحمد ومسند أبي حنيفة وغيرهما، وألف رحمه الله في الحديث تآليف بإعانة الفقهاء الذين ذكرناهم آنفاً، منها كتاب مسانيد الأئمة الأربعة، وهو كتاب نفيس في مجلد ضخم التزم فيه أن يخرج من الأحاديث ما اتفق على روايته الأئمة الأربعة أو ثلاثة منهم، أو اثنان، فإذا انفرد بالحديث إمام واحد أو رواه غيرهم لم يخرجه، وهذا المنوال لم يسبق إليه رحمه الله، وكان كثيراً ما يجلس بعد صلاة الجمعة في مقصورة الجامع بمراكش مع فقهائها ومن يحضره من علماء فاس وغيرهما للمذاكرة في الحديث الشريف، وتفهمه، ويحصل له بذلك النشاط التام، وكان كثيراً ما يتأسف أثناء ذلك ويقول: والله لقد ضيعنا عمرنا في البطالة ويتحسر على ما فاته من قراءة العلم أيام الشباب، ولما فاته الاشتغال بفنون العلم في حال الصغر اعتكف أولاً على سرد كتب التاريخ وأخبار الناس وأيام العرب ووقائعها إلى أن تملى من ذلك وبلغ فيه الغاية القصوى، وكاد يحفظ ما في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، من كلام العرب وشعراء الجاهلية

والإسلام، ولما ولاه الله أمر المسلمين بعد وفاة والده زهد في التاريخ والأدب بعد التضلع منهما وأقبل على سرد كتب الحديث والبحث عن غريبها وجلبها من أماكنها، ومجالسة العلماء والمذاكرة معهم فيها، ورتب رحمه الله لذلك أوقاتاً مضبوطة لا تنخرم حذا بها حذو المنصور السعدي في أوقاته المرسومة عند الفشتالي في مناهل الصفا، حتى أنه كان إذا خرج لزيارة أو صيد أو نزهة أيام الربيع وأقام الأسبوع ونحوه فإذا حانت الجمعة ودخل تحرى النزول بمنازل المنصور التي كان ينزل بها وقت خروجه لزيارة أغمات ونحوها ورجوعه، ويقول: هذه منازل المنصور رحمه الله، وهو أستاذنا في مثل هذه الأمور، ومن عجيب سيرته رحمه الله أنه كان يرى اشتغال طلبة العلم بقراءة المختصرات في فن الفقه وغيره وإعراضهم عن الأمهات المبسوطة الواضحة تضييع للأعمار في غير طائل، وكان ينهى عن ذلك غاية ولا يترك من يقرأ مختصر خليل ومختصر ابن عرفة وأمثالهما، ويبالغ في التشنيع على من اشتغل بشيء من ذلك حتى كاد الناس يتركون قراءة مختصر خليل، وإنما كان يحض على كتاب الرسالة والتهذيب وأمثالهما، حتى وضع في ذلك كتاباً مبسوطاً أعانه عليه أبو عبد الله الغربي، وأبو عبد الله المير وغيرهما من أهل مجلسه.

ولما أفضى الأمر إلى السلطان العادل المولى سليمان رحمه الله صار يحض الناس على التمسك بالمختصر، ويبذل على حفظه وتعاطيه الأموال الطائلة، والكل مأجور على نيته وقصده غير أنا نقول: الرأي ما رأى السلطان سيدي محمد رحمه الله. وقد نص جماعة من أكابر الأعلام النقاد مثل الإمام الحافظ أبي بكر بن العربي، والشيخ النظار أبي إسحاق الشاطبي، والعلامة الواعية أبي زيد عبد الرحمٰن بن خلدون وغيرهم، أن سبب نضوب ماء العلم في الإسلام ونقصان ملكة أهله فيه إكباب الناس على تعاطي المختصرات الصعبة الفهم وإعراضهم عن كتب الأقدمين المبسوطة المعاني، الواضحة الأدلة، التي تحصل لمطالعها الملكة في أقرب مدة ولعمري لا يعلم هذا يقيناً

إلا من جربه وذاقه، وقد تقدم لنا في صدر هذا الكتاب أن ملوك بني عبد المؤمن كانوا يحملون الناس على الرجوع في الأحكام إلى الكتاب والسنة، كل ذلك اعتناء بالعلم القديم ومحافظة على أصوله والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وكان السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله ينهى عن قراءة كتب التوحيد المؤسسة على القواعد الكلامية المحررة على مذهب الأشعرية رضي الله عنهم، وكان يحض الناس على مذهب السلف من الاكتفاء بالاعتقاد المأخوذ من ظاهر الكتاب والسنة بلا تأويل، وكان يقول عن نفسه حسبما صرح به في آخر كتابه الموضوع في الأحاديث المخرجة من الأئمة الأربعة: أنه مالكي مذهباً حنبلي اعتقاداً، يعني أنه لا يرى الخوض في علم الكلام على طريقة المتأخرين، وله في ذلك أخبار ومجريات.

**قلت**: وهو مصيب أيضاً في هذا، فقد ذكر الإمام أبو حامد الغزالي رضي الله عنه في كتاب الإحياء: إن علم الكلام إنما هو بمنزلة الدواء لا يحتاج إليه إلا عند حدوث المرض، فكذلك علم الكلام لا يحتاج إليه إلا عند حدوث البدعة في قطر، وقد حرر الناس القدر المحتاج إليه في حق العامة وغيرهم، والمبتدئين والمنتهين، والأغبياء والأذكياء، بما ليس هذا محل بسطه، وكان السلطان سيدي محمد رحمه الله عالي الهمة يحب الفخر ويركب سنامه، ويخاطب ملوك الترك مخاطبة الأكفاء، ويخاطبونه مخاطبة السادة، ويمدهم بالأموال والهدايا حتى علا صيته عندهم وحسبوه أكثر منهم مالاً ورجالاً، وكان يعطي عطاء من لا يخاف الفقر، ويضع الأشياء مواضعها، ويعرف مقادير الرجال، ويؤدي حقوقهم ويتجاوز عن هفواتهم، ويراعي لأهل السوابق سوابقهم، ويتفقد أحوال خدامه في الصحة والمرض، ولا يغفل عمن كان يعرفه قبل الملك، وكان من الشجعان المذكورين في وقته، يباشر الحروب بنفسه، ويهزم الجيوش بهيبته، وكان يقتني الرجال

ويصطنعهم ويعدهم لأيام الكريهة، وينادي كل واحد باسمه وقت اللقاء والحضور عنده، ويوجه كل بطل منهم مع قبيلة أو كتيبة من كتائب الجند، ويعمل بقواعد السياسة في الحروب، وكان إذا وجه أحداً ممن يعرف نجدته وكفايته ينشد قول ابن دريد:

والناس ألف منهم كواحد    وواحد كالألف إن أمر عنا

وبالجملة فقد كان رحمه الله من عظماء الملوك، وخلد آثاراً كثيرة بالمغرب، فمن ذلك بمراكش تجديد ضريح الشيخ أبي العباس السبتي ومسجده ومدرسته، وضريح الشيخ التباع ومسجده، وضريح الشيخ الجزولي ومسجده، وضريح الشيخ الغزواني ومسجده، وضريح الشيخ ابن صالح ومسجده، وضريح المولى علي الشريف ومسجده الأعظم، وضريح الشيخ ميمون الصحراوي ومسجد الملوك ببريمة ومدرستاه، وتجديد جامع المنصور والمسجد الأعظم بباب دكالة، والمسجد الأعظم بباب هيلانة، والمسجد الأعظم بالرحبة، ومساجد القصبة ومدارسها الست، ومسجد زاوية الشرادي، ومسجد رباط شاكر، ومدينة الصويرة بمساجدها ومدارسها وصقائلها وأبراجها وكل ما فيها، ومسجد آسفي ومدرسته، ومسجد مدينة تيط ومدينة آنفا، ومسجدها ومدرستها وحمامها وصقائلها وأبراجها، ومدينة فضالة ومسجدها ومدرستها، والمصورية ومسجدها، وجامع السنة برباط الفتح ومساجد أجدال الستة وأبراجه، والصقالتين الكبيرتين بسلا ورباط الفتح، ومسجد العرائش ومدرسته وصقائلها وأبراجها وسوقها، وصقائل طنجة وأبراجها، والمسجد الأزهر ومدرسته بإصطبل مكناسة، ومسجد البردعيين بها، وضريح الشيخ ابن عيسى وضريح الشيخ أبي عثمان سعيد ومسجده، ومدرسة الصهريج، ومدرسة الدار البيضاء، ومسجد بريمة ومدرسته ومسجد هدراش ومسجد باب مراح وثلاثة أقواس بقنطرة وادي سبو خارج فاس، وضريح الشيخ علي بن حرزهم، وضريح الشيخ دراس بن إسماعيل،

وضريح أبي عبد الله التاودي، ومدرسة باب الجيسة، ومسجد تازا ومدرسته، وضريح المولى عليّ الشريف بسجلماسة وقصبة الدار البيضاء بها ومسجدها ومدرستها، ومسجد الريصاني ومدرسته وأوقافه على المارستان بفاس ومراكش.

فهذه الآثار كلها مما سمت إلى تخليد همته الشريفة، بعضها أنشأها وبعضها أصلحه وجدده، ورتب للأشراف بتافيلات في كل سنة مائة ألف مثقال سوى ما ينعم به عليهم في أيام السنة متفرقاً، ورتب لأهل الحرمين الشريفين وشرفاء الحجاز واليمن مائة ألف مثقال أيضاً في السنة، ولشرفاء المغرب مائة ألف مثقال كذلك، وأما الطلبة والمؤذنون والقراء وأئمة المساجد كانت تأتيهم صلاتهم في كل عيد، وأما ما كان ينفقه في الجهاد على رؤساء البحر وطبجيته وما يضيره على المراكب الجهادية والآلات الحربية التي ملأ بها بلاد المغرب فشيء لا يحصيه الحصر، وأما ما أنفقه من الأموال في فكاك أسرى المسلمين فأكثر من ذلك كله حتى لم يبق ببلاد الكفر أسير لا من المغرب ولا من المشرق، ولقد بلغ عددهم في سنة مائتين وألف ثمانية وأربعين ألف أسير وزيادة، وأوقافه بالحرمين الشريفين وكتبه العلمية المحبسة بهما لا زالت قائمة العين والأثر إلى الآن، وأما اعتناؤه بالمراكب القرصانية فقد بلغ عددها في دولته عشرين كباراً من المربع، وثلاثين من الفراكط والغلائط، وبلغ رؤساء البحر عنده ستين رئيساً كلها بمراكبها وبحريتها، وبلغ عسكر البحرية ألفاً من المشارقة وثلاثة آلاف من المغاربة، ومن الطبجية ألفين، وبلغ عسكره من العبيد خمسة عشر ألفاً، ومن الأحرار سبعة آلاف، وأما عسكر القبائل الذي كان يغزو من الجند فمن الحوز ثمانية آلاف، ومن الغرب سبعة آلاف.

وكانت له هيبة عظيمة في مشوره وموكبه يتحدث الناس بها، وهابته ملوك الفرنج وطواغيتهم، ووفدت عليه رسلهم بالهدايا والتحف، يطلبون مسالمته في البحر، بلغ ذلك رحمه الله بسياسته وعلو همته حتى عمت

مسالمته أجناس النصارى كلهم إلا المسكوب فإنه لم يسالمه لمحاربته للسلطان العثماني، ولقد وجه رسله وهديته إلى طنجة فردها السلطان رحمه الله وأبى من مسالمته، ووظف على الأجناس الوظائف فالتزموها وكانوا يؤدونها كل سنة واستمر ذلك من بعده إلى أن انقطع في هذه السنين المتأخرة، وكانوا يستجلبون مرضاته بالهدايا والألطاف وكل ما يقدرون عليه، ومهما كتب إلى طاغية في أمر سارع إليه ولو كان محرماً في دينه، ويحتال في قضاء الأغراض منهم بكل وجه أحبوا أم كرهوا، وكان أعظم طواغيتهم طاغية النجليز وطاغية الفرنسيس، فكانا يأنفون من أداء الضريبة علانية مثل غيرهم من الأجناس، فكان رحمه الله يستخرجها منهم وأكثر منها بوجه لطيف، وكان له عدة أولاد أكبرهم أبو الحسن علي والمأمون وهشام وعبد السلام، هؤلاء لربة الدار المولاة فاطمة بنت عمه سليمان بن إسماعيل ثم عبد الرحمٰن أمه حرة هوارية من هوارة السوس، ثم يزيد ومسلمة، أمهما علجة من سبي الإصبنيول، ثم الحسن وعمر، أمهما حرة من الأحلاف، ثم عبد الواحد أمه حرة من أهل رباط الفتح، ثم سليمان والطيب وموسى لحرة من الأحلاف أيضاً، ثم الحسن وعبد القادر لحرة من الأحلاف أيضاً، ثم عبد الله لحرة من عرب بني حسن، ثم إبراهيم لعلجة رومية.

ومما مدح به السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله من الشعر أرجوزة الأديب البليغ أبي العباس أحمد الونان المعروفة بالشمقمقية التي يقول في مطلعها:

مهلاً على رسلك حادي الأينق ولا تكلفها بما لم تطق

وهذه الأرجوزة مشهورة بين الناس وهي من الشعر الفائق، والنظم البديع الرائق، أبان منشئها عن باع كبير واطلاع غزير، على أخبار العرب وأيامها وحكمها وأمثالها بحيث أن من حفظها وعرف مقاصدها أغنته عن غيرها من كتب الأدب، وقد كنت في أيام التعاطي اعتنيت بتصحيح ألفاظها والتتبع لأخبارها وأمثالها والتنقير عن تلميحاتها وتلويحاتها حتى فضضت ختامها واستوعبت مبدأها وتمامها، ثم شرعت في كتابة شرح عليها يحيط بمعانيها

ويستوعب دقائق مبانيها، فكتبت منه نحو أربعة كراريس، ثم عاقت الأقدار عن إتمامه نسأله سبحانه وتعالى أن يصرف عنا العوائق فيما ينفعنا في ديننا ودنيانا، ويحفنا بالسعادة الدنيوية والأخروية في متقلبنا ومثوانا، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

ومن وزراء السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله: الوزير الشهير أبو عبد الله محمد العربي قادوس المدعو أفاندي، كان من موالي السلطان وغرس نعمته وربي دولته وأصله من أعلاج الإصبنيول، وكان شعلة من الذكاء والفطنة وركناً شديداً من أركان الدولة المحمدية في حسن التدبير والحزم الذي لا يعزب عنه من أمور الحضرة قليل ولا كثير، وقد أدرك من فخامة الجاه وضخامة الرياسة غاية تفرد بها في وقته بحيث كانت الأعاظم من وجوه الدولة تقف ببابه اليومين والثلاثة فلا يتيسر لهم لقاؤه.

ولما توفي السلطان سيدي محمد رحمه الله امتحن المولى يزيد هماماً الوزير في جملة من امتحنه من أهل مراكش كما سيأتي.

## الخبر عن دولة أمير المؤمنين المولى يزيد بن محمد وأوليته ونشأته رحمه الله

كان المولى يزيد هذا عند والده رحمه الله بعين العناية ملحوظاً، ومن النقائص محروساً ومحفوظاً، وكان عامة أهل المغرب وخاصتهم من الجند والرعية متشوفين له ومغتبطين به يهتفون باسمه ويلهجون بذكره، لما كان عليه من الكرم والشجاعة والتمسك بمذاهب الفتوة والدين والاعتناء بجوائز أهل البيت، ومحبة أهل الخير وإكرامهم وإقامة الصلوات لأوقاتها حضراً وسفراً لا يشغله عن ذلك شاغل، فأصابته عين الكمال وصار ينتقل من حال إلى حال، حتى خالطته جماعة من الأغمار كانوا في خدمته فلزموه وحسنوا له الاستبداد على والده والخروج عليه، وأتوه من بين يديه ومن خلفه، حتى وقر ذلك في صدره وارتسم فيه، وكان ذلك على حين أوان الشبيبة وأخذها

منه مأخذها، وكانت همته طماحة لا تقف به عند غاية، فاستعجل الأمر قبل أوانه وخرج على والده بجيش العبيد حسبما مر ولسان حاله ينشد:

فإن يك عامر قد قال جهلاً فإن مظنة الجهل الشباب

فسقطت منزلته عند أبيه بعد أن بلغ من الحظوة لديه ما بلغ، وكان يرشحه للخلافة ويقدمه على كبار إخوته، لما ظهر له من نجدته واقتداره، وجوده في محل الجود، ورغبته في الجهاد وولوعه بصناعة الرمي بالمهراس، فأسند إليه أمر الطبجية والبحرية، وصار يوجهه مع الرؤساء والطبجية إلى الثغور كل سنة ليقف على الملازمين لصقائلها وأبراجها، ويعلمهم ما يحتاجون إلى تعلمه، ولما رآه والده مغتبطاً بذلك وتوسم فيه النجابة أقبل عليه بالعطاء، ثم ولاه الكلام مع قناصل الأجناس الذين بالمراسي واستنابه في ذلك.

وفي سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف ولاه السلطان على قبيلة كروان، وهم يومئذٍ أعظم قبائل البربر خيلاً ورجالاً، فأسند إليه أمرهم، وتقدم إليه في أن يكفهم عن الحرب مع آيت أدراسن، فسار إليهم واغتبطوا به واغتبط بهم وصار أحداثهم وأبناء أعيانهم يركبون معه للصيد فغمرهم بالعطاء، وأنعم عليهم بالخيل والسلاح والكسي، ولزموا مجلسه حتى أفسدوا قلبه وحسنوا له الانتزاء على الملك، وقالوا: هذا بيت المال الذي بقبة الخياطين هو في يدك وليس دونه مانع وبه يقوم ملكك، ومتى استدعيت إخواننا آيت ومالو لم يتوقفوا عنك طرفة عين، ولا يقوم لهم شيء من الجند وغيره ولم يزالوا يفتلون له في الذروة والغارب حتى شرهت نفسه وصار لا حديث له إلا في ذلك، واطلع على ذلك قائد الودايا أبو محمد عبد القادر بن الخضر، وكان محبّاً في جانب السلطان صادق الخدمة والطاعة له، فكتب إليه بما عليه ولده مع جروان وأنهم يأتون إليه بالمائة والمائتين، ويبيتون عنده بالقصبة ونحن خفنا أن يبرز من ولدك أمر فتعاقبنا عليه، فأخبرناك بالواقع.

ولما وصل كتابه إلى السلطان بعث للحين قائده العباس البخاري في مائة من الخيل للقبض على المولى يزيد وأصحابه، وقد قلنا لك أن الجند والرعية معاً كانوا مغتبطين بالمولى يزيد، فلما وصل القائد العباس إلى سلا دس إلى المولى يزيد أنه مقبوض فلينج بنفسه، فخرج المولى يزيد من مكناسة ليلاً في خاصته وأصحابه من جروان، وقصدوا آيت ومالو، ولما وصل القائل العباس إلى مكناسة ألفاها مقفرة من المولى يزيد وشيعته، فأقام بها وكتب إلى السلطان يعلمه بالخبر، فبعث السلطان إلى المولى يزيد كاتبه أبا عثمان سعيد الشليخ، فقدم عليه بزاوية آيت إسحاق لأنه لم يجد من قبائل آيت ومالو إلا مهاوش وشقيرين فتجاوزهم إلى الزاوية المذكورة ولما أتاه أبو عثمان المذكور بكتاب والده وأمانه سار معه إلى مراكش، ولما وصل إليها دخل ضريح أبي العباس السبتي فاحترم به ثم عفا عنه السلطان، واجتمع به فتنصل مما رمي به ونسب ذلك إلى سفهاء جروان وأنه لم يوافقهم على ذلك، فأضمر السلطان الإيقاع بهم، ولما قدم من مراكش سنة أربع وثمانين ومائة وألف قصدهم بالكريكرة وأوقع بهم، وقتل منهم نحو الخمسمائة حسبما مر، وأنزل المولى يزيد مع أخويه المولى علي، والمولى عبد الرحمٰن بفاس، فأقام بها مدة ثم حدثت حرب بينه وبين أخيه المولى عبد الرحمٰن بوسط فاس العليا، وهلك فيما بينهما عدد وبلغ خبر ذلك إلى السلطان فقدم مكناسة وبعث من يقبض عليهما فقبض على المولى عبد الرحمٰن وأصحابه، وفر المولى يزيد إلى ضريح المولى إدريس الأكبر بزرهون، فأتي به الأشراف إلى والده فسامحه، ثم سرح المولى عبد الرحمٰن وسأل عن أحوال أصحاب الأخوين معاً ثم عرف صالحهم من طالحهم فأخرجهم من السجن، وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وكانوا ثلاثين رجلاً، وسرح الباقين، ونقل المولى عبد الرحمٰن إلى مكناسة وترك المولى يزيد بفاس، ثم إن المولى عبد الرحمٰن كان يسابق يوماً في الميدان ويلعب بالبارود فقتل رجلاً من بني مطير، فجاء إخوانه إلى

قائدهم محمد بن محمد واعزيز فأدى ديته من عنده وعفوا، وكتب عليهم سجلاً بذلك وسكنت الهيعة، فاتفق أن وجه السلطان قائده العباس إلى مكناسة لقتل أناس كانوا بسجن مكناسة فلما سمع به المولى عبد الرحمٰن ظن أنه قدم في شأن المطيري المقتول، وأن خبره قد بلغ السلطان ففر من مكناسة ليلاً إلى وجدة، ثم إلى تلمسان، واتصل خبر فراره بالسلطان فسأل عن السبب فأخبره القائد العباس بالواقع، فبعث إليه الأمان فلم يثق، ثم سار إلى تلمسان إلى سجلماسة فبعث إليه السلطان من يؤمنه ويأتي به إليه فلم يثق، وفر إلى السوس فبعث إليه السلطان أماناً إلى السوس ففر إلى القبلة، وأقام يتردد في قبائلها إلى أن توفي السلطان رحمه الله فجاء إلى تارودانت فأقام بها وطلب الأمر فلم يتم له أمر، ومات رحمه الله، وأما المولى يزيد فإنه أقام بفاس إلى أن استدعاه والده للقدوم عليه بمراكش فقدم عليه.

ثم اتفق قيام العبيد على السلطان بسبب الإدالة التي أمرهم بتوجيهها إلى طنجة حسبما مر، فبعث المولى يزيد لإصلاحهم وردهم عن غيهم، فلما وصل إليهم استفزوه بقولهم، وحركوا منه ما كان ساكناً، واستخرجوا ما كان كامناً، فبايعوه وخطبوا به حسبما مر الخبر عن ذلك مستوفى، وانحرف قدور بن الخضر بالودايا عنه، ولما فتح المولى يزيد بيت المال وأعطى العبيد بعث إلى الودايا بعطائهم يستهويهم به وكان شيئاً كثيراً، فردوه عليه وانضم محمد واعزيز في بربره إلى الودايا فقصدهم المولى يزيد والتقوا بالمشتهى من مكناسة فهزموه، وقتل من العبيد ما ينيف على الخمسمائة ثم قدم السلطان في العساكر وجموع القبائل ففر المولى يزيد إلى زرهون فتبعه السلطان وزار المولى إدريس رضي الله عنه، فشفع له الأشراف الأدارسة فيه فقبل شفاعتهم وعفا عنه حسبما مر، ثم بعد هذا بعثه إلى المشرق وصدر منه بمكة في حق شيخ الركب ما صدر فكانت تلك الفعلة هي المخالفة وبها تبرأ السلطان منه، ثم قفل من المشرق سنة ثلاث ومائتين وألف والتجأ إلى ضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش إلى أن توفي والده حسبما قصصنا عليك من قبل وبالله التوفيق.

# بيعة أمير المؤمنين المولى يزيد بن محمد رحمه الله

لما توفي السلطان سيدي محمد رحمه الله في التاريخ المتقدم وبلغ خبر موته المولى يزيد وهو بالحرم المشيشي بايعه الأشراف هنالك وسائر أهل الجبل وتقدم إليه السابقون من الجند الذين كانوا محاصرين له فبايعوه، واستتب أمره فتوجه إلى تطاوين إذ هي أقرب الثغور إليه فبايعه أهلها، والقبائل المجاورة لها، وأطلق الجند على يهود تطاوين فاستباحهم واصطلم نعمتهم، ثم وفد عليه أهل طنجة والعرائش وآصيلا فقابلهم بما يجب، ثم توجه إلى طنجة فخرج عسكرها للقائه ففرح بهم وأحسن إليهم وبها قدم عليه وفد أهل فاس من أشرافها وعلمائها وأعيانها فأكرمهم وولى عليهم أبا عبد الله محمد العربي الذيب، ثم انتقل إلى العرائش فوفاه بها حاشية أبيه وخدمه ووجوه دولته بمتخلف والده وقبابه وخيله وبغاله وسائر أثاثه فأحسن إليهم وصاروا معه في ركابه إلى زرهون، ولما وصل إليها قدم عليه أخوه المولى سليمان من تافيلالت بقبائل الصحراء عربها وبربرها ومعه بيعة أهل سجلماسة، وكان قد استجار به محمد واعزيز فإنه كان خائفاً على نفسه من المولى يزيد لانحرافه عنه أيام أبيه، فسار في صحبته بقبائله، ولما اجتمع بالسلطان سامحه وأبقاه على قومه، ولما دخل مكناسة قدمت عليه قبائل الغرب كلها عربها وبربرها حتى عصاة آيت ومالو ودجالهم مهاوش فأعطى مهاوش وحده عشرة آلاف ريال وأعطى الذين قدموا معه مائة ألف ريال، ثم قدمت عليه قبائل الحوز كله من عرب وبربر لم يتخلف عن بيعته أحد، وقدم عليه أهل مراكش وأعمالها ببيعتهم، ونصها:

«الحمد لله المنفرد بالملك والخلق والتدبير، الذي أبدع الأشياء بحكمته واخترع الجليل منها والحقير، الغني عن المعين والمرشد والوزير، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير، يؤتي الملك من يشاء ويعز من يشاء وهو

المدبر القدير، جاعل الملوك كفاً للأكف العادية، وولايتهم مرتعاً للعباد في ظل الأمن والعافية، وبيعتهم أمناً من الهرج والفساد، وقمعاً لأهل الشر والعناد، فهم ظل الله على الأنام، وحصن حصين للخاص والعام، حسبما أفصح بذلك سيد الأنام، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، فتبارك الله ربنا الذي شرف هذا الوجود، وزين هذا العالم الموجود، بهذه الخلافة المباركة، والإمامة الحسنية الهاشمية العلوية، والطلعة القرشية المحمدية، التي انصرفت الوجوه إلى قبلتها المشروعة، واستبان الحق عند مبايعتها والانقياد لدعوتها المسموعة، نحمده تعالى على ما منّ به علينا من هؤلاء الإمامة السعيدة، ونشكره جل جلاله شكراً نستوجب به من الهنا أفضاله ومزيده، ونشهد أنه الله الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له ليس في الوجود إلا فعله، أجرى الأقدار على حسب ما اقتضاه حكمه وعدله، ونشهد أن سيدنا ونبينا ومولانا محمداً عبده ورسوله، ومصطفاه من خلقه وخليله، سيد المخلوقات كلها من إنس وجان، المصفى من ذؤابة معد بن عدنان، صاحب الشريعة المطهرة التي لا يختلف في فضلها اثنان، والدين القويم الذي هو أفضل الأديان، الذي اختصه الله ما بين الأنبياء بمزية التفضيل والتقديم، وافترض على أمته الغراء فريضة الصلاة والتسليم، وأثنى عليه في كتابه الحكيم، فقال جل ثناؤه وتقدست صفاته وأسماؤه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]، صلى الله عليه صلاة متصلة الدوام متعاقبة بتعاقب الليالي والأيام، وعلى آله الكرام الأطهار وصحابته النجباء البررة الأخيار الذين أوضحوا لنا الحق تبياناً، وأسسوا لهذه الملة السمحة قواعد وأركاناً، وعلى من اقتفى أثرهم القويم واهتدى بهديهم المستقيم إلى يوم الدين. أما بعد، فإن الله تعالى جعل صلاح هذا العالم وأقطاره المعمورة ببني آدم، منوطاً بالأئمة الأعلام، محوطاً بالملوك الذين هم ظل الله على الأنام، فطاعتهم ما داموا على الحق واتقوا الله سعادة والاعتصام بحبلهم إذ ذاك واجب وعبادة قال عز من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ

أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن ﴾ [النساء:59] وقال عليه السلام: «**إن أمر عليكم عبد مجدع أسود يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له وأطيعوا**» وقال عليه السلام: «**على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة**» وقال عليه السلام: «**من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية ومن قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبية أو يدعو إلى عصبية أو ينصر عصبية فقتل فقتلته جاهلية، ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها ولا يتحاشى مؤمنها ولا يفي لذي عهدها فليس مني ولست منه**» أخرجها مسلم كلها وقال عليه السلام: «**السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه الضعيف وبه ينتصر المظلوم، ومن أكرم سلطان الله في الدنيا أكرمه الله يوم القيامة**» أو كما قال. وقال عليه السلام: «**السلطان العدل المتواضع ظل الله ورمحه في الأرض يرفع الله له عمل سبعين صديقاً**» ولما كان أهل بيت سيد المرسلين أعظم قريش في قلوب المؤمنين، وأكرمهم منزلة عند رب العالمين، أنالهم الله تعالى في خلقه فضلاً كبيراً، ومنحهم إجلالاً ورفعة وتعظيماً وتكبيراً، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب:33]. وقال عليه الصلاة والسلام: «**النجوم أمان لأهل السماء وأهل بيتي أمان لأمتي**» وإن ممن امتن الله به علينا من أهل هذا البيت الشريف، الذي أولاه الله أشرف التعظيم وأعظم التشريف وقدمه تعالى لسلطانه العزيز، ورفعه جل وعلا على منصة التبريز، عميد المجد الذي لا يتناهى فخره، ووحيد الحسب جل منصبه وقدره، الإمام الذي ألقت له الإمامة زمامها، وقدمته الأفاضل لفضله إمامها، من جاءت له الخلافة تجر أذيالها، وأخذها دون بني أبيه ولم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها، ومن جبلت قلوب الخلائق على محبته، وألقى له القبول في الأرض لمجده ولعلو همته، السلطان السعيد، الواثق بربه المعين الرشيد، أبا المكارم والمفاخر سيدنا ومولانا يزيد ابن مولانا الإمام السلطان

الهمام، المرحوم بالله سيدي محمد ابن أمير المؤمنين سيدنا ومولانا عبد الله ابن السلطان الجليل، أمير المؤمنين مولانا إسماعيل، ابن موالينا السادة الأشراف، ذوي الفضل والكرم والإنصاف، قدس الله أرواحهم في أعلى الجنان، ومنحهم بفضله الرضا والرضوان، أيد الله ببقائه الدين، وطوق بسيفه الملحدين، وكتب تحت لوائه المعتدين، وكتب له النصر إلى يوم الدين، وأعاذ به الأرض من لا يدين بدين، وأعاد بعدله أيام آبائه الخلفاء الراشدين، وأسكن في القلوب سكينته ووقاره، ومكن له في الوجود وجمع له أقطاره، هو والله ممن فيه استحقاق ميراث آبائه الأعلام، وتراث أجداده الكرام، المجمع عليه أنه في هذه الأيام فرد هو الأنام، وواحد وهكذا في الوجود الإمام، الراقي في صبح سماء هذه الذروة المنيفة، الباقي بعد الأئمة الماضين نعم الإمام ونعم الخليفة، سلالة الأخيار، وخلاصة أبناء النبي المختار، أسمى الله إيالته الشريفة، وأنار البسيطة بأنوار مملكته الشامخة المنيفة، انعقد الإجماع من أهل هذه الحضرة المراكشية حاطها الله وما حولها من أهل السوس وكافة الرحامنة وغيرهم من قبائل عديدة حسبما تضمنته أسماء من يكتب اسمه منهم عقبه بخط من يكتب منهم، أو خطوط العدول الثقات عمن لم يكن يحسن الكتابة وأذنوا لمن يكتب عنهم بيعة تم بمشيئة الله تمامها، وعم بالصوب المغدق غمامها، سعيدة ميمونة، شريفة لها السلامة في الدين والدنيا مضمونة، صحيحة شرعية، ملحوظة مرعية، دائبة دائمة، لازمة جازمة، صحيحة صريحة، متعبة مريحة، على الأمن والأمانة، والعفاف والديانة، وعلى ما بويع به مولانا رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده، والأئمة المهتدون الموفون بعهده، وعلى السمع والطاعة، وملازمة السنة والجماعة، قرت بها نواظرهم، وشهدت بذلك على صفاء بواطنهم ظواهرهم، وأعطوا بها صفقة أيديهم وأمضوها إمضاء يدينون به في السر والجهر والمنشط والمكره، واليسر والعسر، أجمع عليها أرباب العقد

والحل، وأصحاب الكلام فيما قل وجل، ومن يوصف بعلم وقضاء، ومن يرجع إليه في رد وإمضاء، لم يخالف فيها إمام مسجد ولا خطيب، ولا ذو فتوى يسأل فيجيب، ولا من يجتهد في رأي فيخطىء أو يصيب، ولا معروف بدين وصلاح، ولا فرسان حرب وكفاح، ولا طاعن برمح ولا ضارب بصفاح، ولا ولاة الأمر والأحكام، ولا حملة العلم الأعلام، ولا حماة السيوف والأقلام، ولا أعيان السادة الأشراف، ولا أكابر الفقهاء ومن انخفض قدره ومن أناف، بيعة تمت بها نعمة من وحد الله قائلين: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:43] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح:10] الآية، فمن حضر خواص من ذكر وعوامهم قيد شهادته بمضمن العقد المنصوص، ملتزماً لجميع ما اقتضاه من العموم والخصوص، باسطاً كفه بالدعاء والابتهال، والتضرع لذي العزة والجلال، قائلاً: اللّهم كما خصصت مولانا أمير المؤمنين بمزيد الكرامة وارتضيته لمقام الإمامة، وانتخبته من أشراف الناس، وصنت به وجوههم عن الباس، فانصره اللّهم نصراً مؤزراً، واجعل نصيبه من عنايتك وكفايتك جزيلاً موفراً، وأن له في كل مرام فتحاً مبيناً، وظفراً ميسراً معيناً، وأسعدنا اللّهم بأيامه، واكلأه بكلاءتك في ظعنه ومقامه، واجعل بيعته المباركة بيعة تخلد بها مآثرة تخليداً، وتؤيد علوه وتأييده ونصره تأييداً، وأبقه على الأنام شفيقاً، وبجميعهم باراً رفيقاً، وأعنه اللّهم على ما وليته من أمور عبادك، ومهد له أتم التمهيد في أقطار بلادك، وكن له فيما يرضيك مؤيداً وظهيراً، واجعل له من لدنك ولياً وسلطاناً نصيراً، أجب دعاءنا إنك يا مولانا ولي ذلك وبه قدير، وأنت نعم المولى ونعم النصير، وبالإجابة جدير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي الكبير، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، في ثامن عشر شعبان عام أربعة ومائتين وألف انتهت.

## انتقال الوادايا من مكناسة إلى فاس وعبيد الثغور منها إلى مكناسة

لما كان السلطان المولى يزيد رحمه الله بمكناسة أمر الودايا أن ينتقلوا منها إلى فاس الجديد مسقط رؤوسهم ومنبت شوكتهم وبأسهم، وبذل لهم خمسين ريالاً للرأس إعانة لهم على نقلتهم، فعادوا إلى فاس الجديد واستوطنوه بعد تغريبهم عنه بمكناسة ثلاثين سنة كما سبق، ثم أمر عبيد الثغور أن ينتقلوا منها إلى مكناسة لتجتمع كلمتهم بها، وأنعم على أهل كل ثغر منهم ببيت ماله الذي به فاقتسموه وانقلبوا إلى مكناسة مغتبطين.

## نقض الصلح مع جيش الإصبنيول وحصاره سبتة

قال منويل القشتيلي في كتابه الموضوع في أخبار المغرب: لما ولي المولى يزيد بن محمد رحمه الله أظهره معاداة الإصبنيول وصمم على حربهم فتفادى طاغيتهم من حربه بكل وجه وبعث باشدوره إليه بطنجة يهنئه بالملك ويتملق له فأعرض عن ذلك ولم يحفل به ولا بهديته، بل عمد إلى من كان بمراسيه من نصارى الإصبنيول تجاراً وفرايلية وغيرهم وقبض عليهم وسلكهم في السلاسل، وساقهم إلى طنجة فحبسهم بها، قال: وكانت قراصين المسلمين الحربية يومئذٍ ستة عشر قرصاناً وفيها من المدافع ثلاثمائة مدفع وستة مدافع.

**قلت**: قد تقدم أن القراصين أكثر من ذلك بكثير، واستمر النصارى محبوسين بطنجة إلى أن اتفق أن كان قرصان للإصبنيول يطوف بساحل العرائش فظفر بمركب هنالك وأسر بعضهم، وكان المولى يزيد يومئذٍ بالعرائش فنظر إليهم بمرآة الهند وهو على سطح داره إذ أسروهم وبعث الصريخ في أثرهم ففاتوه، ثم وقع التفادي بينه وبين الطاغية في أولئك الأسرى بأسرى طنجة اهـ. كلام منويل.

ثم إن السلطان المولى يزيد رحمه الله زحف إلى سبتة واستنفر الناس لجهادها والمرابطة عليها، واستصحب معه آلة الحرب من المدافع والمهاريس، ونصب عليها سبعة أشبارات كان جلها لفنانشة سلا، وأهرعت إليه المتطوعة من حاضر وباد، ونسلوا إليه من كل حدب وواد، وأقام على حصارها مدة ثم أفرج عنها وسار إلى ناحية مراكش لأمر اقتضى ذلك، فلما وصل إلى مدينة آنفا بدا له من الرجوع فرجع ونزل عليها واستأنف الجد، وأرهف الحد، وأرسل إلى قبائل الحوز يستنفرهم للجهاد والمرابطة فتقاعدوا عنه بعد أن أشرف على فتحها وكان ما نذكره.

## انتقاض أهل الحوز على السلطان المولى يزيد ابن محمد وبيعتهم لأخيه المولى هشام رحمهما الله

لما قدمت قبائل الحوز على السلطان المولى يزيد بمكناسة ظهر لهم منه بعض التجافي عنهم وأنزلهم في العطاء دون البربر والودايا وغيرهم، فساءت ظنونهم به وانفسدت قلوبهم عليه، ولما رجعوا إلى بلادهم تمشت رجالاتهم بعضها إلى بعض، وخب الرحامنة في ذلك ووضعوا، واتفقت كلمتهم مع أهل مراكش وعبدة وسائر قبائل الحوز فقدموا المولى هشام بن محمد للقيام بأمرهم وآتوه بيعتهم وطاعتهم، ولما اتصل خبر ذلك بالمولى يزيد وهو محاصر لسبتة أقلع عنها وسار إلى الحوز فشرد قبائله، ووصل إلى مراكش فدخلها عنوة، يقال: إن دخوله إليها كان من الباب المعروف بباب يغلى، فاستباحها وقتل وسمل، وكان الحادث بها عظيماً، ثم استجاش عليه المولى هشام قبائل دكالة وعبدة وقصده بمراكش فبرز إليه المولى يزيد ولما التقى الجمعان بموضع يقال له تازكورت انهزم جمع المولى هشام وتبعهم المولى يزيد فأصيب برصاصة في خده فرجع إلى مراكش يعالج جرحه، فكان في ذلك حتفه رحمه الله. وذلك أواخر جمادى الثانية سنة ست ومائتين وألف

ودفن بقبور الأشراف قبلي جامع المنصور من قصبة مراكش، ولقد كان رحمه الله من فتيان آل علي وسمحائهم وأبطالهم له في النجدة والكفاية المحل الذي لا يجهل، والسبق الذي لا يلحق، والغبار الذي لا يشق، ولا يضره تنقيص من نقصه من الحسدة عفا الله عنا وعنهم فإن مكان الرجل غير مكانهم وهمته العالية فوق تزويراتهم تغمد الله الجميع بعفوه وغفرانه آمين. ولنذكر ما كان في هذه المدة من الأحداث.

ففي شعبان سنة اثنتين وأربعين ومائة وألف توفي الفقيه العلامة القاضي بسلا أبو عبد الله محمد السوسي المنصوري ودفن قرب الولي الصالح سيدي مغيث من طالعة سلا، وله شرح على مختصر السنوسي في المنطق وآخر على كبراه، وفي ضحى يوم السبت الثامن والعشرين من المحرم فاتح سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف توفي الفقيه المرابط البركة سيدي الحاج الغزواني ابن البغدادي، من حفدة الولي الأشهر سيدي محمد الشرقي رضي الله عنه، ودفن بداره بجوار سيدي مغيث أيضاً.

وفي يوم الأربعاء الثامن والعشرين من صفر سنة أربع وأربعين ومائة وألف توفي الفقيه العلامة الإمام صاحب التصانيف المفيدة، والأجوبة العتيدة، أبو عبد الله سيدي محمد بن عبد الرحمٰن بن زكري الفاسي رحمه الله ورضي عنه.

وفي يوم الجمعة الرابع من رجب سنة ست وأربعين ومائة وألف كمل بناء قبة ولي الله تعالى أبي العباس سيدي الحاج أحمد بن عاشر رضي الله عنه على يد القائد أبي عبد الله الحوات، وفي الشهر نفسه توفي الفقيه القاضي النوازلي أبو العباس سيدي أحمد الشدادي بزاوية زرهون.

وفي سنة خمسين ومائة وألف ولد الشيخ أبو العباس أحمد التجاني شيخ الطائفة التجانية، وسيأتي الكلام عليه إن شاء الله وفيها كانت المجاعة العظيمة بالغرب والفتن ونهب الدور بالليل بفاس وغيرها. وصار جل الناس لصوصاً

فكان أهل اليسار لا ينامون لحراستهم دورهم وأمتعتهم، وهلك من الجوع عدداً لا حصر له حتى لقد أخبر صاحب المارستان أنه كفن في رجب وشعبان ورمضان ثمانين ألفاً وزيادة سوى من كفنه أهله، هذا بفاس وليقس عليها غيرها.

وفي زوال يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شوال سنة ثمان وخمسين ومائة وألف توفي قاضي سلا الفقيه العلامة السيد أبو عمرو عثمان التواتي ودفن داخل روضة سيدي الحاج أحمد بن عاشر رضي الله عنه.

وفي سنة ثلاث وستين ومائة وألف كان الوباء بالمغرب وانحباس المطر فلحق الناس من ذلك شدة ثم تداركهم الله بلطفه.

وفي سنة تسع وستين ومائة وألف كانت الزلزلة العظيمة بالمغرب التي هدمت جل مكناسة وزرهون ومات فيها خلق كثير بحيث أحصي من العبيد وحدهم نحو خمسة آلاف وتكلم لويز مارية على هذه الزلزلة فقال: إنها مكثت ربع ساعة وتشققت الأرض منها واضطراب البحر وفاض حتى ارتفع ماؤه على سور الجديدة وفرغ فيها، ولما رجع البحر إلى مقره ترك عدداً كثيراً من السمك بالبلد، وفاض على مسارحهم ومزارعهم وأشباراتهم فنسف ذلك كله نسفاً واضطربت المراكب والفلك بالمرسى فتكسرت كلها وفر نصارى البلد إلى الكنيسة وتركوا ديارهم منفتحة ومع ذلك لم يفقد منها شيء لاشتغال الناس بأنفسهم، وتكلم صاحب نشر المثاني على هذه الزلزلة فقال: وفي ضحوة يوم السبت السادس والعشرين من المحرم ستة تسع وستين ومائة وألف زلزلت الأرض زلزالها، ومادت شرقاً وغرباً، واستمرت كذلك نحو درج زماني، وفاض ماء البرك والصهاريج على البيوت وتكدرت العيون ووقف ماء الأودية عن الجري وسقطت الدور وتصدعت الحيطان وأخذ الناس في هدم ما تصدع خوف سقوطه، وفزع الناس وتركوا حوانيتهم وأمتعتهم، ووقع بمدينة سلا أن ماء البحر انحصر عنه إلى أقصاه فجاء الناس ينظرون إليه فرجع الماء إلى جهة البر وتجاوز حده المعتاد بمسافة كبيرة،

فأغرق جميع من كان خارج المدينة في تلك الجهة وصادف قافلة ذاهبة إلى مراكش فيها من الدواب والناس عدد كثير فأتلف الجميع، ورمى بالقوارب والزوارق التي في الوادي إلى مسافة بعيدة جداً، ثم بعد هذه بنحو ستة وعشرين يوماً عادت زلزلة أخرى أشد من الأولى بعد صلاة العشاء هي التي أثرت في مكناسة غاية، وهلك تحت الهدم بها نحو عشرة آلاف نفس، وفعلت بفاس أيضاً فعلاً شنيعاً انظر تمام كلامه فقد أطال في وصفها.

وفي يوم الأحد التاسع والعشرين من رمضان سنة سبع وسبعين ومائة وألف انكسفت الشمس وبقي منها مثل الهلال ثم انجلت بعد حين.

وفي فجر يوم الأحد الثامن والعشرين من ربيع الثاني سنة إحدى وثمانين ومائة وألف توفي الشريف البركة مولاي الطيب بن محمد الوزاني وعمره ينيف على الثمانين سنة، وبعد صلاة العصر من يوم الأربعاء الثامن والعشرين من جمادى الأولى سنة اثنتين وتسعين ومائة وألف انكسفت الشمس وظهرت النجوم لكثرة الظلام ثم انجلت ورجعت لحالها بعد نصف ساعة ونحوها.

وفي أعوام تسعين ومائة وألف كانت المجاعة الكبيرة بالمغرب وانحبس المطر ووقع القحط وكثر الهرج ودام ذلك قريباً من سبع سنين.

وفي أواخر ربيع الثاني سنة أربع وتسعين ومائة وألف توفي الشيخ العلامة الإمام المحقق البارع أبو عبد الله محمد بن الحسن بناني الفاسي الفقيه المشهور صاحب التآليف الحسان، مثل حاشيته البديعة على شرح الشيخ عبد الباقي الزرقاني على مختصر خليل، حكى العلامة الرهوني في حاشيته قال: لما أخبر الشيخ التاودي ابن سودة بوفاته جاء فزعاً وهو يبكي فلقيه بعض الناس فقال له: الله يجعل البركة فيكم فقال: لم تبق بركة بعد هذا الرجل وذلك لمعرفته بمكانته.

وفي ضحى يوم السبت الثامن عشر من صفر سنة ست وتسعين ومائة وألف توفي الشريف البركة المولى أحمد بن الطيب الوزاني رحمه الله ونفعنا به وبأسلافه آمين.

## حدوث الفتنة بالمغرب وظهور الملوك الثلاثة من أولاد سيدي محمد بن عبد الله وما نشأ عن ذلك

لما قتل المولى يزيد رحمه الله بمراكش افترقت الكلمة بالمغرب، فأقام أهل الحوز وأهل مراكش على التمسك بدعوة المولى هشام وشايعه على أمره القائد أبو زيد عبد الرحمٰن بن ناصرالعبدي صاحب آسفي وأعمالها، والقائد أبو عبد الله محمد الهاشمي بن علي بن العروسي الدكالي البوزراري، وكان المولى مسلمة بن محمد شقيق المولى يزيد خليفة عنه ببلاد الهبط والجبل يدبر الأمر بثغورها وينظر في أمورها، فلما اتصل به خبر وفاة أخيه دعا إلى نفسه أهل تلك البلاد فبايعوه واتفقت كلمتهم عليه ووصل خبر موت المولى يزيد إلى فاس وأعمالها فبايعوا المولى سليمان بن محمد رحمه الله وكان من أمره ما نذكره.

## الخبر عن دولة أمير المؤمنين أبي الربيع المولى سليمان بن محمد رحمه الله

كان المولى سليمان بن محمد رحمه الله أعلق بقلب أبيه من سائر إخوته على ماقيل لسعيه فيما يرضي الله ورسوله ويرضي والده واشتغاله بالعلم والعكوف عليه بسجلماسة وغيرها، ولم يلتفت قط إلى شيء مما كان يتعاطاه إخوته الكبار والصغار من أمور اللّهو كالصيد والسماع ومعاقرة الندمان وما يزري بالمروءة، ولم يأت فاحشة قط من صغره إلى كبره، وكان رحمه الله يرى له ذلك ويثيبه عليه بالعطايا العظيمة والذخائر النفيسة والأصول المعتبرة التي تغل الألف وأكثر، وينوه بذكره في المحافل ويبعث إليه بأعيان الفقهاء والأدباء إلى سجلماسة ليقرأ عليهم ويأخذ عنهم، ويدعو له في كل موقف على رؤوس الأشهاد ويقول: إن ولدي سليمان رضي الله عنه لم يبلغني عنه قط ما يكدر باطني عليه فأشهدكم أني عنه راض، ونشأ رحمه الله نشأة حسنة

طيبة، وكانت شمائل الملك لائحة عليه إلى أن أظفره الله به، وكنا قدمنا أنه قدم على أخيه المولى يزيد بقبائل الصحراء فأجل مقدمه وأكرم وفادته، فأقام المولى سليمان رحمه الله بفاس إلى أن كانت وفاة المولى يزيد في التاريخ المتقدم، فاتصل خبر موته بأهل فاس ومكناسة فقاموا على ساق واتفق العبيد والودايا والبربر وأهل فاس على بيعته، لما كان عليه من العلم والدين والفضل وسائر الأوصاف الحميدة، التي تفرد بها عن غيره ولما قدم العبيد والبربر من مكناسة إلى فاس اجتمعوا بأعيان الودايا وأهل فاس ودخلوا ضريح المولى إدريس رضي الله عنه وبايعوا أمير المؤمنين المولى سليمان يوم الاثنين سابع عشر رجب سنة ست ومائتين وألف، ولما تمت بيعته انتقل إلى فاس الجديد فاستقر بدار الملك منها وقدمت عليه وفود القبائل من العرب والبربر بهداياهم، ثم قدم عليه بعدهم قبائل بني حسن وأهل الغرب ثم أهل العدوتين سلا ورباط الفتح، وانحرف بعض أهل رباط الفتح عن بيعته كما سيأتي، ثم قدم عليه أهل الثغور الهبطية بعد أن توقفوا عن بيعته مدة يسيرة لأنهم كانوا قد بايعوا المولى مسلمة كما مر.

ونص بيعة أهل فاس: الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه، الحمد لله الذي نظم بالخلافة شمل الدين والدنيا، وأعلى قدرها على كل قدر فكانت لها الدرجة العليا، وأشرق شمسها على العوالم، وأنار بنورها المعالم، وأصلح بها أمر المعاش والمعاد، وألف بها بين قلوب العباد، من الحاضر والباد، وجعلها صوناً للدماء والأموال والأعراض، وغل بها أيدي الجبابرة فلم تصل إلى مفاسد الأغراض، وقام بها أمر الخلق واستقام، وأقيمت الشرائع والحدود والأحكام، ونصب منارها علماً هادياً، وأقامه إلى الحق داعياً، فأوى لظلها الوريف القوي والضعيف، والمشروف والشريف، فسبحان من قدر فهدى، ولم يترك الإنسان سدى، بل أمره ونهاه، وحذره اتباع هواه، وطوقه القيام بالنفل والفرض، وهو أحكم

الحاكمين، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: 251] فمن رحمته نصب الملوك ومهد الطريق للسير والسلوك، ولو ترك الناس فوضى لأكل بعضهم بعضاً، وآل الأمر إلى الخراب وأفضى، لولا الخلافة لم تؤمن لنا سبل، وكان أضعفنا نهباً لقوانا، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للأنام أصل الوجود ومبدأه، وغاية الكمال ومنتهاه، سيد الأولياء وإمام الأنبياء، وقائد الأصفياء، وعلى آله أولي المجد العميم، والقدر العظيم، وأصحابه الخلفاء الراشدين، والهداة المهتدين، الذين شيدوا أركان الدين، ومهدوا قواعده للمشيدين، وأخبروا عنه وأسندوا إليه ﷺ أنه قال: «**إن الله اختص بهذا الأمر قريشاً**»، وأنزل عليه ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: 247]، هذا ولما قضى الله سبحانه وله البقاء والدوام، بنزول ما لا بد منه من فجأة الحمام، لمن كان قائماً بهذا الأمر العظيم، وانتقاله إلى دار عفوه ورضوانه العميم، أسكنه الله فسيح الجنان، وسقى ثراه سحائب الرحمة والغفران، وجب على الناس نصب إمام لقوله عليه الصلاة والسلام: «**من مات وليست في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية**»، فجالت أفكارهم وخاضت عقولهم وأنظارهم فيمن يقدمون لهذا المنصب الأعظم، ويسلك بهم السبيل الأقوم، فهداهم التوفيق والتسديد والرأي الصالح السديد، إلى من نشأ في عفة وصيانة، ومروءة وديانة، وعكوف على تحصيل العلم الشريف، ودؤب على التحلي بحلى العمل المنيف، مع نجدة ونباهة، وذكاء وفطانة ونزاهة، وعلو همة وقوة عزمة وتدبير وسياسة، وخبره بالأمور وفراسة، فتى جمع الله له بين الصرامة والحلم، وزاده بسطة في العلم والجسم، وألبسه الهيبة والوقار، ورقاه أعلى رتب العز والفخار، وهو السري المقدم الشهم الأبر الهمام، ذو الأخلاق الطاهرة الزكية، والمآثر الظاهرة السنية، عالي القدر والشأن، فريد العصر ووحيد الأوان، أبو الربيع مولانا سليمان ابن مولانا أمير المؤمنين محمد ابن

مولانا أمير المؤمنين عبد الله ابن مولانا أمير المؤمنين إسماعيل ابن مولانا الشريف فانعقد الإجماع من أهل هذه الحضرة الإدريسية وما حولها من البقاع على تقدمه وإمامته، واستبشروا بإمرته وخلافته، وبادروا إلى تعيينه وبايعوه بيعة انعقد على ألوية النصر عقدها، وطلع في أفق الهناء سعدها، حضرها الصدور والأعيان، وأهل الوجاهة في هذا الزمان، وذوو الحل والعقد، ومن إليهم القبول والرد، من علماء وأعلام، وأصحاب الفتاوى والأحكام، وعظماء أشراف كرام، ورماة كبرا، وولاة أمرا، ورؤساء أجناد، والمتقدمين في كل ناد، من عرب البدو والحضر، وجيوش العبيد والبربر، فانعقدت بحمد الله مؤسسة على التقوى، واشتد بها عضد الإسلام وتقوى، بيعة تامة محكمة الشروط، وفية العهود وثيقة الربوط، جارية على سنن السنة والجماعة، سالمة من كل كلفة ومشقة وتباعة، رضي الكل بها وارتضاها، وألزم حكمها بالسمع والطاعة وأمضاها، شهد بذلك الحاضرون على أنفسهم طوعاً، وأدوا إليه تعالى ما وجب عليهم شرعاً، جعلها الله رحمة على الخلق، وأقام بها في البسيطة العدل والحق، وأيد بعونه وتأييده وتوفيقه وتسديده من تلقاها بالقبول، وأحيا به سنة سيدنا ومولانا الرسول ﷺ، وشرف وكرم، فهنيئاً لأرضنا إذ ألقت مقاليدها إلى من يحمي حماها ويحقن دماها، ويكبت عداها ويدفع رداها، وينصر الشريعة ويشيد مبناها ويعلن بحقيقة الحق ويوضح معناها، نصره الله ونصر به، وأمات البدع والضلالة بسببه، ودمر به شيعة الجور والفساد، وأبقى الخلافة في بيته إلى يوم التناد، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيئين وعلى آله وأصحابه أجمعين، والراوين عنهم والمتلقين منهم آمين. وفي ثامن عشر رجب الفرد الحرام من ستة ومائتين وألف من هجرة المصطفى عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، أفقر العبيد إلى الله سبحانه عبد الله تعالى محمد التاودي بن الطالب ابن سودة المري كان الله له ولياً وبه حفياً، أحمد بن التاودي المذكور، أخذ

الله بيده وكان له في جميع الأمور، وأناله الثواب والأجور، وعبد الله تعالى محمد بن عبد السلام الفاسي لطف الله به آمين. وعبد القادر بن أحمد بن العربي بن شقرون أمنه الله بمنّه آمين. ومحمد بن أحمد بنيس كان الله له ولياً ونصيراً آمين. وعبد ربه وأفقر عبيده إليه محمد بن عبد المجيد الفاسي لطف الله به. وعبد ربه سبحانه يحيى بن المهدي الشفشاوني الحسني لطف الله به. وعبد ربه علي بن إدريس كان الله له ولطف به آمين. وعبد ربه تعالى محمد بن إبراهيم لطف الله به. وعبد ربه سبحانه محمد بن مسعود الطرنباطي وفقه الله بمنّه آمين. وعبد ربه سبحانه سليمان بن أحمد الشهير بالفشتالي كان الله له وأصلح حاله. وعبد ربه محمد الهادي بن زين العابدين العراقي الحسيني وفقه الله. وعبد ربه سبحانه محمد التهامي طاهر الحسني وفقه الله آمين. وعبد الملك بن الحسن الفضيلي الحسني لطف الله به آمين. وعبد ربه إدريس بن هاشم الحسني الجوطي لطف الله به آمين، انتهى.

## حرب السلطان المولى سليمان لأخيه المولى مسلمة وطرده إلى بلاد المشرق

لما تمت بيعة السلطان المولى سليمان بن محمد رحمه الله بفاس باتفاق أهل الحل والعقد من الجند والعلماء والأشراف وسائر الأعيان، تداعى أمر المولى مسلمة إلى الاختلال، وكان أول ما ابتدأ به عمله بعد تلك البيعة المستعجلة أن بعث جريدة من الخيل إلى نظر القائد أبي عبد الله محمد الزعري إلى رباط الفتح، وذلك باستدعاء محتسبها أبي الفضل العباس مرينو، وأبي عبد الله محمد المكي بن العربي فرج من أهلها، المنحرفين عن المولى سليمان إلى التمسك بدعوة المولى مسلمة، وكان أهل رباط الفتح يومئذٍ على فرقتين: فرقة دخلت في طاعة المولى سليمان، وفرقة أقامت بالتمسك ببيعة المولى مسلمة.

ولما اتصل بالمولى سليمان خبر مسير الزعري إلى رباط الفتح، عقد لأخيه المولى الطيب على بني حسن، وبعثه في اعتراضه، فتوافى الجيشان معاً برباط الفتح، ووقعت الحرب فانهزم الزعري وشيعته، وقتل العباس مرينو وفر المكي فرج إلى الزاوية التهامية فاستجار بها، وقبض المولى الطيب على الزعري وجماعة من أصحابه، ثم سرحه بأمر السلطان المولى سليمان، واجتمعت كلمة أهل العدوتين على طاعته، هكذا ساق صاحب البستان هذا الخبر، وآل فرج يثبتونه ويقولون: إن أصل هذه الفتنة أن آل مرينو كانت لهم الوجاهة مع المولى يزيد رحمه الله فسعوا عنده بآل فرج وقالوا له: إنهم تقاعدوا على مال الوزير أبي عبد الله محمد العربي قادوس الذي أمّنه عندهم، فبطش بهم المولى يزيد وصادرهم، واستحكمت العداوة يومئذٍ بينهم وبين آل مرينو، فلما توفي المولى يزيد بادر آل مرينو ومن لافهم إلى بيعة المولى مسلمة، وانحرف عنهم إلى بيعة المولى سليمان من لم يكن من حزبهم، ولما قتل العباس مرينو عمد أوباش رباط الفتح إلى شلوه وربطوا في رجله حبلاً وجروه في أسواق المدينة وعرضوه على حوانيتها حانوتاً حانوتاً إذ كان في حياته محتسباً رحمه الله. وكان السلطان المولى سليمان في هذه المدة مقيماً بفاس لم يتحرك منه، ثم أن المولى مسلمة صاحب بلاد الهبط بعث ولده إلى آيت يمور وأمرهم أن يشنوا الغارة على أهل زرهون الذين هُم في طاعة السلطان ففعلوا وكثر عيثهم في الرعايا، فسار السلطان المولى سليمان إلى مكناسة واستنفر جيش العبيد وقبائل البربر، ثم وافاه الودايا وأهل فاس وشراقة فاجتمع عليه الجم الغفير وصمد بهم إلى آيت يمور فألفاهم على نهر سبو بالموضع المعروف بالحجر الواقف، فصمدت إليهم العساكر وأوقعت بهم وقعة شنعاء وفر ولد المولى مسلمة فلحق بأبيه، ولجأ آيت يمور بقضهم وقضيضهم إلى جبل سلفات، وبقيت حلتهم بماشيتها وأثاثها بيد السلطان فانتهبتها جيوشه من العبيد والودايا والبربر وبات السلطان هنالك، ولما أصبح بعث إليه آيت يمور نساءهم وأولادهم للشفاعة وطلب العفو فعفا عنهم وثابوا إليه وبايعوه، فأنعم عليهم بماشيتهم وزرعهم وعاد إلى فاس، ثم

بلغه أن المولى مسلمة معسكر ببلاد الحياينة فنهض إليه من فاس فأوقع به، فانهزم المولى مسلمة وجيشه ونهب جيش السلطان حلة الحياينة وجاؤوا تائبين فعفا عنهم ونظمهم في سلك الجماعة، وتفرق عن المولى مسلمة كل من كان معه من عرب الخلط وأهل الجبل، ولم يبق معه إلا خاصته وأولاده وابن أخيه المولى حسن بن يزيد فسار إلى جبل الزبيب فلم يقبلوه، ثم انتقل إلى الريف فأهملوه، ثم صعد إلى جبل بني يزناسن فطردوه، ثم توجه إلى ندرومة فمنعه صاحبها من الوصول إلى الباي صاحب الجزائر، وكان ذلك عن أمر منه فتوجه إلى تلمسان وأقام بها.

قال صاحب البستان: وهناك اجتمعت به في ضريح الشيخ أبي مدين بالعباد يعني حين قدم تلمسان مفارقاً للسلطان المولى سليمان، وزعم أن المولى مسلمة لما اجتمع به لامه على تخذيل الناس عن بيعته، وحضه إياهم على بيعة أخيه المولى سليمان، قال: فبينت له حال المولى سليمان وما هو عليه من اتباع سيرة والده في العدل والرفق بالرعية، وبذلك أحبه الناس، فلما سمع كلامي بكى واعترف بالحق وتلا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ [الأعراف:188] ثم طلب من صاحب الجزائر أن يأذن له في الذهاب إلى المشرق والمرور بإيالته فأبى، وبعث من أزعجه من تلمسان إلى سجلماسة.

ولما اتصل خبره بالسلطان المولى سليمان وأنه عاد إلى سجلماسة أرسل إليه مالاً وكسى وعين له قصبة ينزلها ورتب له ما يكفيه في كل شهر كسائر إخوته فلم يطب له مقام بها وسار إلى المشرق فاجتاز في طريقه بصاحب تونس الأمير حمودة باشا ابن علي باي.

قال صاحب الخلاصة النقية: قدم المولى مسلمة بن محمد على الأمير حمودة باشا شريداً أثر خلعه من مملكة فاس، فأنزله أسنى منزلة، وأجرى عليه جراية سلطانية وبالغ في بره اهـ، ثم أن المولى مسلمة سافر إلى المشرق فأقام بمصر مدة، ثم توجه إلى مكة فنزل على سلطانها صهره على أخته فأكرمه، ورتب له جراية ثم عاد من مكة إلى مصر، وساءت حاله في هذه المدة وضاقت عليه الأرض بما رحبت، فرجع إلى تونس ونزل على حمودة

باشا المذكور فعاود إكرامه، ثم طلب منه أن يشفع له عند أخيه المولى سليمان فكتب له بذلك فأخذ كتابه وانحدر إلى وهران، وطلب من أميرها الشفاعة أيضاً فكتب له، وبعث بمكاتيب الأميرين إلى السلطان المولى سليمان فقبله، وأمره أن يذهب إلى سجلماسة ينزل بها بدار والده، ويرتب له ما يكفيه من مؤنة وكسوة. ويقاسمه نعمته، ويبقى بعيداً عن سماسرة الفتن حتى لا يجدوا سبيلاً إلى إيقاد نار الفتنة، فلما بلغه جواب أخيه لم يرض ذلك وعاد إلى المشرق فبقي يتردد به إلى أن وافته منيته واستراح من تعب الدنيا رحمه الله.

## نهب عرب آنقاد لركب حاج المغرب وما نشأ عن ذلك

ثم بلغ السلطان المولى سليمان رحمه الله أن جماعة من التجار والحجاج الذين قدموا من المشرق خرجوا من وجدة متوجهين إلى فاس، فلما توسطوا أرض آنقاد عدت عليهم عربها فنهبتهم، فاستدعى السلطان رحمه الله الكاتب أبا القاسم الصياني وأمره بالمسير إلى وجدة، يكون والياً بها ويصلح ما فسد من أعمالها، فكره الصياني ذلك واستقال فلم يقله السلطان، وعزم عليه في المسير إليها وعين له مائة فارس تذهب معه فامتثل راغماً، وأضمر أنه إن فارق السلطان يذهب إلى أحد الحرمين الشريفين فيقيم به بقية عمره، وجمع موجوده وخرج، فخرج معه قفل التجار الذي كان محصوراً بفاس ولما توسطوا أرض آنكاد وجدوا العرب في انتظارهم فثأروا بهم وقاتلوهم فتماسكت خيل السلطان هنيئة ثم كثرهم العرب فهزموهم، ولم يبق من تلك الخيل إلا قائدها في عشرة من إخوانه، وانتهبت العرب ما كان في ذلك القفل من أمتعة التجار وسلعها ولم ينج من نجا منه إلا بنفسه، قال الصياني: فلجأنا إلى قصبة العيون وتفرق جمعنا وقتل منا سبعة نفر، وجرح آخرون، فبعثت من أتانا بالقتلى فدفناهم ثم سرحت قائد الخيل إلى وجدة مع بعض العرب الذين هنالك، وطلعت أنا مع برابرة بني يزناسن وليس معي إلا مركوبي

وفرس آخر كان عليه مملوك لي قتل في المعركة، قال: ثم خلصت إلى وهران فنزلت عند الباي محمد باشا فأظهر التأسف والتوجع وراودني على المقام فأبيت، ثم ذكر الصياني أنه بعد هذا ذهب إلى تلمسان، واجتمع هنالك بالمولي مسلمة بن محمد وتلاوما وتعاتبا حسبما ذكرناه آنفاً، وكان ذلك أواخر سنة ست ومائتين وألف.

## بعث السلطان المولى سليمان الجيوش إلى الحوز ونهوضه على أثرها إلى رباط الفتح وعوده إلى فاس

قد قدمنا أن أهل مراكش وقبائل الحوز كانوا متمسكين بدعوة المولى هشام بن محمد من لدن دولة المولى يزيد رحمه الله، ولما صفت بلاد الغرب للسلطان المولى سليمان رحمه الله تاقت نفسه إلى تمهيد بلاد الحوز والاستيلاء عليها، فعقد لأخيه المولى الطيب بن محمد على عشرة آلاف من الخيل وعين معه جماعة من قواد الجيش وبعثهم إلى قبائل الشاوية، وذلك أواخر سنة سبع ومائتين وألف، ثم زحف السلطان على أثرهم إلى رباط الفتح فمحا بقية آثار الفتنة التي نشأت بها وأقام ينتظر ما يكون من أمر أخيه.

وفي سادس شوال من السنة صلى السلطان الجمعة بمسجد القصبة منها، وكان هو الإمام، وخطب خطبة بليغة تشتمل على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتحذير من الحرام، واجتناب الآثام، ووعد وأوعد، وقال في آخر خطبته: وانصر اللّهم جيوش المسلمين وعساكرهم، ودعا لكافة الأمة، وصلى في الركعة الأولى بسورة الجمعة، وفي الثانية بسورة الغاشية الخ. ولما قدم المولى الطيب بلاد الشاوية تنافس قواد الجيش الذين معه وتنازعوا الرياسة وصار كل واحد منهم يرى أنه صاحب الأمر، وكان من أعظمهم تهوراً القائد الغنيمي، كان من قواد المولى يزيد رحمه الله فأبقاه المولى سليمان على رياسته تألفاً له فاستبد على سائر القواد في الرأي، إذ كان رديف

الخليفة المولى الطيب وصاحب مشورته، فلما كان وقت اللقاء تخاذلوا عنه وجروا عليه الهزيمة وتركوا أخبيتهم وأثاثهم بيد العدو ورجعوا مفلولين إلى السلطان برباط الفتح وهم عشرة آلاف فارس كما مر، فما وسع السلطان رحمه الله إلا الرجوع بهم إلى فاس لتجديد آلة السفر والغزو ثانياً وإخلاف ما ضاع من الأخبية والسلاح والأثاث حسبما يذكر بعد إن شاء الله.

## ثورة محمد بن عبد السلام
## الخمسي المعروف بزيطان بالجبل

لما كانت سنة ثمان ومائتين وألف ثار بقبيلة الأخماس من جبال عمارة رجل من طلبتها يقال له محمد بن عبد السلام ويدعى زيطان، فاجتمعت عليه سماسرة الفتن من كل قبيلة وكثر تابعوه، وكان السبب في ثورته أن القائد قاسماً الصريدي كان والياً بتلك الناحية أيام المولى يزيد رحمه الله، فلما بويع المولى سليمان ولى على تلك الناحية القائد الغنيمي المتقدم الذكر، وكان عسوفاً فيما قيل فقبض على القائد قاسم واستصفى أمواله وبث عليه العذاب كي يظهر ما بقي عنده حتى هلك في العذاب، فثار زيطان واجتمعت عليه الغوغاء من أهل تلك البلاد، ولما شرى داؤه بعث السلطان بجيش إلى القائد الغنيمي وأمره أن يقصد زيطان وجمعه فزحف إليه ببلاد غصاوة قرب وازان وأوغل في طلبه فنهاه من معه من رؤساء الجيش عن التورط بالناس في تلك الجبال والشعاب، فلج واقتحمها بخيله ورماته، ولما توسطها سالت عليه الشعاب بالرماة من كل جانب وهاجت الحرب وأحاط العدو بالجيش فقتلوا منهم وسلبوا كيف شاؤوا وردوهم على أعقابهم منهزمين، ولما اتصل خبر الهزيمة بالسلطان اغتاظ وقبض على الغنيمي، ومكن منه أولاد قاسم الصريدي فباشروا قتله بأيديهم واقتصوا منه بأبيهم، وولى على قبائل الجبل أخاه المولى الطيب وفوض إليه أمر الثغور، وأنزله طنجة، وبقي المولى

الطيب يدبر أمر القبائل الجبلية وثغورها من تطاوين إلى طنجة إلى العرائش، وكلما بدت له فرجة سدها أو فرصة انتهزها، وحارب قبائل الفحص إلى أن استكانوا وانقادوا إلى الطاعة، ثم حارب أهل حوز طنجة وآصيلا من بني يدير، والأخماس من أصحاب زيطان، فكانت الحرب بينهم سجالاً.

ثم لما دخلت سنة تسع ومائتين وألف أمد السلطان أخاه المولى الطيب بجيش وافاه بطنجة فخرج منها ومعه عسكرها وعسكر العرائش، وصمد إلى بني جرفط عش الفساد، ونزل على بلادهم وقاتلهم في عقر ديارهم فقتل مقاتلتهم، وأحرق مداشرهم، وانتهب أموالهم ومزقهم كل ممزق، فجاؤوه خاضعين تائبين فعفا عنهم، ثم تقدم إلى بني حرشن من بني يدير على تفيئة ذلك ففر الثائر زيطان إلى قبيلته بالأخماس وتسللت عنه القبائل التي كانت ملتفة عليه واستنزله المولى الطيب بالأمان فظفر به وبعث به إلى السلطان فأمضى له أمانه وولاه على قبيلته، وصار من جملة خدام الدولة ونصحائها إلى أن ملك زمامها وتعين غيره للقيام بأمرها، فأخر ونقله السلطان إلى تطاوين فسكنها ورتب له بها ما يكفيه وبقي إلى أواخر دولة السلطان المولى سليمان، ولما خرج عليه المولى إبراهيم بن يزيد ودخل تطاوين كانت لزيطان هذا في التمسك بدعوة السلطان اليد البيضاء، وأغنى غناء جميلاً في تثبيت تلك القبائل وتسكينها، ثم وفد على السلطان بطنجة سنة ست وثلاثين ومائتين وألف وقد طعن في السن فأحسن إليه غاية الإحسان، وإلى الآن لا زال أهل الأخماس يستنصرون بحفدته ويعتقدون فيهم ما تعتقده آيت ومالو في آل مهاوش، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

وفي ذي الحجة من هذه السنة أعني سنة تسع ومائتين وألف توفي العلامة الإمام السيد التاودي بن سودة المري الفاسي صاحب الحاشية على البخاري، والحاشية على شرح الشيخ عبد الباقي الزرقاني على المختصر، وشرح العاصمية، والزقاقية، وغير ذلك من التآليف المفيدة، وكان رحمه الله خاتمة الشيوخ بفاس، ومناقبه شهيرة.

# أخبار المولى هشام بن محمد بمراكش والحوز وما يتصل بذلك

قد قدمنا أن أهل مراكش وقبائل الحوز كانوا قد خرجوا على السلطان المولى يزيد وبايعوا أخاه المولى هشام بن محمد، ولما قتل المولى يزيد بمراكش، استقرت قدم المولى هشام بها، وأطاعته قبائل الحوز كلها، وكان وزيراه القائمان بأمره صاحب آسفي القائد عبد الرحمٰن بن ناصر العبدي، وكان غاية في الجود وبسط الكف، وصاحب دكالة والحوز القائد محمد الهاشمي بن العروسي، وكان ذا شوكة بعصبيته وقومه، فكان هذان القائدان إليهما النقض والإبرام في دولة المولى هشام هذا بكثرة ماله وعطائه، وهذا بعصبيته وشدة شوكته، فدانت للمولى هشام قبائل دكالة وعبدة وأحمر والشياظمة وحاحة وغير ذلك، واستمر الحال على ذلك برهة من الدهر إلى أن افترقت عليه كلمة الرحامنة وتجنوا عليه بأنه قتل عاملهم القائد أبا محمد عبد الله بن محمد الرحماني غيلة على أنه كان مدبر دولته والقائم بأمره.

قال أكنسوس: هكذا شاع أن المولى هشاماً هو الذي أمر بقتل عبد الله الرحماني، وابن الداودي، قال: والذي تحدث به السلطان المولى سليمان مع بعض الناس هو أن الفرقة المنحرفة من الرحامنة قتلوه، وأظهروا أن المولى هشاماً هو الذي دس إليهم بذلك، وكذلك أمر ابن الداودي والله أعلم، ولما قتل القائد عبد الله خلعت الرحامنة طاعة المولى هشام وبايعت أخاه المولى حسين بن محمد، وزحفوا به إلى مراكش، فلم يرع المولى هشاماً إلا طبولهم تقرع حول القصبة وأرهفوه وأعجلوه عن ركوب فرسه، فخرج يسعى على قدميه إلى أن أتى ضريح الشيخ أبي العباس السبتي، فعاذ به وثابت إليه نفسه، وبعد أيام تسلل وسار في جماعة من حاشيته إلى آسفي، ونزل على وزيره القائد عبد الرحمٰن بن ناصر فأكرم مثواه، وأحسن نزله، وغدا وراح في طاعته ومرضاته، ودخل المولى حسين قصر الخلافة

بمراكش فاستولى على ما فيه من الذخيرة والأثاث من متاع المولى هشام ومتخلف المولى يزيد، فاضطر أهل مراكش حينئذٍ إلى مبايعة المولى حسين والخطبة به وكان ذلك سنة تسع ومائتين وألف، وافترقت الكلمة بالحوز، فكان بعضه كعبدة وأحمر ودكالة مع المولى هشام، وبعضه مثل الرحامنة وسائر قبائل حوز مراكش مع المولى حسين، واتقدت نار الفتنة بين هؤلاء القبائل وتفانوا في الحروب إلى أن بلغ عدد القتلى بينهم أكثر من عشرين ألفاً، هذا كله والسلطان المولى سليمان مقيم بفاس معرض عن الحوز ومتربصين بأهله الدوائر إلى أن ملوا الحرب وملتهم، وكان ذلك من سعادته فصاروا يتسللون إليه أرسالاً ويسألونه الذهاب إلى بلادهم ليعطوه صفقة بيعتهم، فكان يعدهم بذلك ويقول: إذا فرغت من أمر الشاوية قدمت عليكم إن شاء الله.

## ثورة المولى عبد الملك بن إدريس بآنفا والسبب في ذلك

كانت قبائل الشاوية منذ هزموا جيش المولى الطيب بن محمد وهم حذرون من سطوة السلطان، عالمون بأنه غير تاركهم فعزموا على تلافي أمرهم عنده، وأوفدوا عليه جماعات من أعيانهم المرة بعد المرة يسألونه أن يولي عليهم رجلاً يكونون عند نظره ويقفون عند أمره ونهيه، فولى عليهم ابن عمه وصهره على أخته المولى عبد الملك بن إدريس بن المنتصر، ووجهه معهم فقدم المولى عبد الملك أرض تامسنا، ونزل بمدينة آنفا وهي المسماة اليوم بالدار البيضاء، وتولى القيام على مستفاد مرساها وصار يسهم فيه لأعيان الشاوية الذين معه، وكان قصده بذلك أن يتألفهم على الطاعة والخدمة، فلما حصل لهم ذلك السهم من المال تطاولوا إلى الزيادة عليه، وقد قيل في المثل قديماً «**لا تطعم العبد الكراع فيطمع في الذراع**» فصار المولى عبد الملك يقاسمهم المستفاد شق الأبلمة، فلما بلغ السلطان ذلك كتب إليه يعاتبه على

فعله، ثم نهض على تفئة ذلك من فاس يريد تامسنا إذ لم يشف المولى عبد الملك الغليل في ضبطها، فلما بلغ كتاب السلطان المولى عبد الملك أنف من ذلك العتاب، وكانت له وجاهة عند السلطان الأعظم سيدي محمد بن عبد الله، وكان من كبار بني عمه وخواص قرابته، ثم اتصل به الخبر بخروج السلطان من فاس، فطارت نفسه شعاعاً واستشار بطانته من الشاوية فقال لهم: إن هذا الرجل قادم علينا لا محالة وليس له قصد إلا أنا وأنتم فما الرأي؟ قالوا: الرأي أن نبايعك ونحاربه، قال: ذلك الذي أريد، فبايعوه، ولما انفصل السلطان عن رباط الفتح بعث في مقدمته أخاه وخليفته المولى الطيب، وعقد له على كتيبة من الخيل وتبعه السلطان على أثره، ولما بات بقنطرة الحلاج جاءه الخبر بأن قبائل الشاوية قد بايعوا المولى عبد الملك بن إدريس، واتصل بالمولى عبد الملك وهو بآنفا أن السلطان بائت بالقنطرة فتضاعف خوفه وفر فيمن بايعوه من أهل الشاوية وأخلى مدينة آنفا من خيله ورجله، ففرح أهلها بخروجه من بين أظهرهم لئلا يعديهم جربه، وبادروا بإخراج المدافع ليلاً إعلاماً للسلطان بفراره، ثم أنفذوا إليه رسلهم بجلية الخبر فهش لهم السلطان وبعث معهم كتيبة من الخيل تقيم بآنفا، وتقدم هو بالعساكر إلى قصبة علي بن الحسن فأغار على حلة مديونة وزناتة فنهبها، وامتلأت أيدي الجيش وأوغل المولى عبد الملك في الفرار إلى جهة أم الربيع، وعاد السلطان بالنعم والماشية إلى رباط الفتح فدخلها مؤيداً منصوراً، ونقل تجار النصارى الذين كانوا بآنفا إلى رباط الفتح وأبطل مرساها، واستمرت معطلة إلى دولة السلطان المولى عبد الرحمٰن بن هشام فأحياها كما سيأتي إن شاء الله، ثم ارتحل السلطان المولى سليمان إلى مكناسة فاحتل بها وقال في ذلك العلامة الأديب أبو محمد عبد القادر بن شقرون:

مولاي أنت الذي صفت مشاربه ... إن تغز ناحية أوليتها جلدك

هذي البشائر وافت وهي قائلة ... أعوذ بالله من شر الذي حسدك

فاصعد على منبر الإقبال معتلياً فالسعد أنجز ما كان به وعدك
وانهض إلى غاية الآمال تدركها فالآن قالت لك العلياء: هات يدك
ولا تخف أبداً من سوء عاقبة فليس يفلح من بالسوء قد قصدك
ألبسك الملك العميم نائله من الرضى حللاً قوى بها مددك
فضلاً من الحكم الترضي حكومته جعلها كالشجا في حلق من جحدك
فاشكر صنيع الذي أولاك مكرمة تنل رضاه وتبلغ بالرضى رشدك

## قدوم عرب الرحامنة على السلطان المولى سليمان ومسيره إلى مراكش واستيلاؤه عليها

قد قدمنا أن أهل الحوز افترقت كلمتهم على قسمين: فبعضهم بايع المولى حسين بن محمد، وبعضهم أقام على بيعة أخيه المولى هشام، وأنه نشأ عن ذلك حروب تفانى فيها الخلق.

فلما كانت سنة عشر ومائتين وألف قدم على السلطان بمكناسة جماعة من أعيان الرحامنة مبايعين له وسائلين له المسير معهم إلى بلادهم لتجتمع كلمتهم عليه، فوعدهم بأنه إذ فرغ من أمر الشاوية ومهد طريقه بها إلى الحوز سار إليهم، ثم قوى عزمه رحمه الله فخرج في العساكر من مكناسة وقصد تامسنا، فلما احتل بها قدم عليه أولاد أبي رزق وفر أولاد أبي عطية وأولاد حريز الذين عندهم المولى عبد الملك بن إدريس، ولجؤوا إلى وادي أم الربيع فقصدهم السلطان هنالك وأوقع بهم، وفر المولى عبد الملك إلى أخواله بالسوس فأقام عندهم إلى أن شفع فيه أخو السلطان المولى عبد السلام بن محمد، وأخته المولاة صفية، وكانت زوجة المولى عبد الملك، فقبل السلطان شفاعتهما فعفا عنه وعاد إلى فاس واطمأن جنبه، وأما الشاوية فإنهم قدموا على السلطان تائبين خاضعين فعفا عنهم وولى عليهم الأستاذ الغازي بن المدني المزمري، فصلحت الأحوال على يده،

ورجع السلطان إلى فاس مظفراً منصوراً فأقام بها إلى أن دخلت سنة إحدى عشرة ومائتين وألف فتهيأ للغزو وخرج إلى بلاد دكالة فاستولى عليها وعلى مدينة آزمور وتيط، وبايعه أهل تلك الناحية وقدم عليه أعيان دكالة تائبين وخرجوا من زمرة عبدة وسلطانهم المولى هشام وانتظموا في سلك الجماعة، وهناك قدم عليه أعيان الرحامنة ثانية ببيعتهم فأكرم مقدمهم، وزحف إلى مراكش وهم في ركانة، فلما شارفها فر عنها سلطانها المولى حسين إلى زاوية المولى إبراهيم بن أحمد الأمغاري بالجبل، فدخل السلطان المولى سليمان إلى مراكش واستولى عليها وبايعه أهلها وقدم عليها بها قبائل الحوز والدير وقبائل حاحة والسوس بهداياهم مغتبطين، فسر بهم وأكرمهم وأصلح بين قبائل الحوز وجمع كلمتهم وأهدر دماءهم ومهد بلادهم ورتب حاميتها وأنزل بقصبة مراكش أهل الحوز الذين كانوا بها أيام والده، ورتب لهم الجرايات وأمر بألف من عبيد السوس يأتون لسكنى القصبة واستقامت الأمور.

## دخول آسفي وصاحبها القائد عبد الرحمٰن بن ناصر العبدي في طاعة السلطان المولى سليمان رحمه الله

كان عبد الرحمٰن بن ناصر هذا على ما وصفناه قبل من الوجاهة ونفوذ الكلمة بآسفي وأعمالها، وكان مستولياً على جباية مرساها وخلد بها آثاراً مثل الدار الكبرى التي على شاطىء البحر، ومسجد الزاوية وغير ذلك، وكان جواداً بالعطاء، ولما استولى السلطان المولى سليمان رحمه الله على مراكش بعث إليه كاتبه أبا عبد الله محمد بن عثمان المكناسي ليأتيه به أو يأذن بحربه، ولما وصل الكاتب المذكور إليه بآسفي ألفاه مريضاً فاعتذر عن القدوم على السلطان بالمرض وكتب بيعته وأدى طاعته، وانتقل المولى هشام عنه إلى زاوية الشرابي فأقام بها فبعث إليه السلطان من أمنه وجاء به إليه فلقاه مبرة وتكرمة وقدم إليه المراكب والكسي وأنزله بدار أخيه المولى المأمون

ريثما استراح ثم بعثه إلى رباط الفتح فاستوطنها، ورتب له من الجراية ما يكفيه، ولما قدم الكاتب ابن عثمان على السلطان ببيعة عبد الرحمٰن بن ناصر واعتذر له عنه بالمرض قبل ظاهر عذره وأرجأ أمره إلى يوم ما.

وحكى صاحب الجيش: أن المولى هشاماً لما قدم على السلطان بمراكش ونزل بدار أخيه المولى المأمون أتاه السلطان بعد ثلاث إلى منزله راجلاً لقرب المسافة، ولما التقيا تعانقا وتراحما، ثم جاء معه المولى هشام حتى دخلا بستان النيل من باب الرئيس ونصب له السلطان كرسياً جلس عليه وجلس هو أمامه إعظاماً له لكونه أسن منه، ثم صار يستدعيه صباحاً ومساء فيجلسان ويتحدثان، ثم يفترقان، وكان لا يتغدى ولا يتعشى إلا وهو معه، وكلما دخل عليه رفع مجلسه وأجله، وإذا ذكره لا يذكره إلا بلفظ الأخوة بأن يقول أخي المولى هشام دون سائر بني أبيه، ولما طلب المولى هشام منه السكنى برباط الفتح أجابه إليها وقضى مآربه وأزاح علله، ثم عاد إلى مراكش فكانت منيته بها كما نذكره.

## دخول الصويرة وأعمالها في طاعة السلطان المولى سليمان رحمه الله

كان من خبر دخول الصويرة وأعمالها في طاعة السلطان المولى سليمان رحمه الله أن الحاج محمد بن عبد الصادق المسجيني وهو من عبيد الصويرة كان قد قدم من الحج عامئذٍ فمر على السلطان المولى سليمان وهو بالغرب فدخل عليه فولاه على الصويرة، وكتب له العهد بذلك وأمره بإخفائه حتى يختبر حال أهلها ويعلم أين هواهم، إذ كان ذلك قبل أن يطأ السلطان بلاد الحوز ويستولي عليها، وكانت الصويرة حينئذٍ من جملة النواحي التي إلى نظر عبد الرحمٰن بن ناصر ومن في حزبه وتحت غلبة حاحة وعصبيتها، وكان الوالي بها يومئذٍ القائد أبو مروان عبد الملك بن بيهى الحاحي وكانت

له نباهة وذكر في قبائل حاحة وما اتصل بها، فقدم ابن عبد الصادق الصويرة على أنه قدم من حجه لا غير، فأراح بمنزله ثلاثاً ثم جاء إلى باب القائد وأظهر عبد الملك بن بيهى، وأقام من جملة الأعوان في الخدمة المخزنية إذ تلك هي وظيفته، وخف في خدمة القائد المذكور واعتمل في مرضاته وأظهر من النصح ما قدر عليه، ولازم الباب ليلاً ونهاراً، فكان عبد الملك لا يخرج إلا ويجده قائماً محتزماً على الباب كما قال مسلم بن الوليد في فتى بني شيبان يزيد بن مزيد بن زائدة:

تراه في الأمن في درع مضاعفة لا يأمن الدهر أن يدعى على عجل

فلم يلبث أن حلى بعينيه وعظمت منزلته لديه، فقدمه على الأعوان وعلى الحاشية حتى اتخذه صاحب رأيه وجعله عيبة سره، وابن عبد الصادق في أثناء ذلك يحكم أمره مع إخوانه مسكينة وأهل آكادير سراً وأذنه صاغية لخبر السلطان متى يطأ بلاد الحوز، فلما سمع بوصوله إلى دكالة واستيلائه على آزمور وتيط أفضى بأمر ولايته إلى خاصته وشيعته، وواعدهم لمظاهرتهم إياه على أمره ليلة معلومة، وعبد الملك لا علم له بما يراد به، وكان ابن عبد الصادق فيما قيل قد أخذ عليه أنه إذا حدث أمر ولو ليلاً يخرج إليه حتى يفاوضه فيما يكون عليه العمل، فجاءه في تلك الليلة وقد هيأ جماعة من عبيد الصويرة الذين أعدهم للقيام معه وتركهم بحيث يسمعون كلامه إذا تكلم، وقال لهم: إذا سمعتموني أكلمه وأراجعه في القول فبادروه واقبضوا عليه، ثم تقدم واستأذن على عبد الملك فخرج إليه وبينما هو يكلمه أحاط به العبيد وقبضوا عليه وعلى جماعة من أصحابه من حاحة الذين كانوا يخدمونه، ولم يملكوهم من أنفسهم شيئاً حتى أخرجوهم عن البلد في تلك الساعة، ودفعوا لعبد الملك فرسه وأغلقوا الباب خلفه، وصفا لهم أمر البلد، ومن الغد جمع ابن عبد الصادق أهل الصويرة وقرأ عليهم كتاب السلطان بولايته عليهم فأذعنوا وأجابوا، ولم يرق فيها محجمة دم، ثم ورد الخبر عقب ذلك بدخول السلطان إلى مراكش واستيلائه عليها، وبها تم له أمر المغرب وصفا له ملكه، ولم يبق له فيها منازع، وذلك بعد مضي خمس

سنين من ولايته رحمه الله، ثم إنه استخلف أخاه المولى الطيب نائباً عنه بمراكش وقفل إلى فاس من عامه، فمر على طريق تادلا وأمر عاملها القائد عبد الملك أن يغير على بني زمور وينهب أموالهم ويقبض على مقاتلتهم ويلقاه بهم إلى الصخرة، فكرب القائد عبد الملك في الجيش الذي كان معه واحتال عليهم بأن أرسل إليهم بالقدوم عليه فرساناً، فلما قدموا عليه أمر بالقبض عليهم وشدهم وثاقاً وحاز خيلهم وسلاحهم ثم أغار على حلتهم فنهبها وقدم على السلطان بمالهم ورقابهم، وكانوا مائتي رجل بالتثنية، فبعث بهم السلطان إلى مكناسة فسجنوا بها حتى صلحت أحوالهم بعد ذلك وسرحهم.

## استرجاع السلطان المولى سليمان مدينة وجدة وأعمالها من يد الترك

وفي هذه السنة أعني سنة إحدى عشرة ومائتين وألف بعث السلطان المولى سليمان بالعساكر من فاس إلى وجدة فعقد على الودايا للقائد أبي السرور عياد بن أبي شفرة وعلى شراقة للقائد محمد بن خدة، وعلى الأحلاف للقائد عبد الله بن الخضر، وأمرهم أن يأتوا أرض وجدة ويدوخوها ويقاتلوا الترك الذين استحوذوا عليها ومانعوا دونها، وكتب مع ذلك إلى الباي محمد باشا في أن يتخلى عنها وعن قبائلها التي كان يتصرف فيها أيام الفترة أو يأذن بالحرب فامتثل الباي محمد ذلك ولم يمانع، بل كتب إلى نائبه بها أن يتركها لأربابها ويتخلى عن قبائل بني يزناسن وسقونة والمهاية وأولاد زكرى وأولاد علي ورأس العين فامتثل، ودخل جيش السلطان لوجدة وجبى عامله زكواتها وأعشارها واستخلف نائبه بها، وقفل بالعساكر على السلطان وهو بفاس، وقد تمهد الملك ووشجت عروقه وألقى السعد بجرانه والحمد لله.

وفي هذه السنة قدم الشيخ الفقيه المتصوف أبو العباس أحمد التجاني إلى

فاس فاستوطنها، وكان الباي محمد بن عثمان صاحب وهران قد أزعجه من تلمسان إلى قرية أبي صمغون فأقام بها وأقبل أهلها عليه، ثم لما مات الباي المذكور وولي بعده ابنه عثمان بن محمد سعى عنده بالشيخ التجاني فبعث إلى أهل أبي صمغون وتهددهم ليخرجوه، ولما سمع بذلك الشيخ المذكور خرج مع بعض تلامذته وأولاده وسلك طريق الصحراء حتى احتل بفاس، ولما دخلها بعث رسوله بكتابه إلى أمير المؤمنين المولى سليمان يعلمه بأنه هاجر إليه من جور الترك وظلمهم، واستجار منهم بأهل البيت الكريم فقبله السلطان وأذن له في الدخول عليه والحضور بمجلسه، ولما اجتمع به ورأى سمته ومشاركته في العلوم أقبل عليه واعتقده وأعطاه داراً معتبرة من دوره كان أنفق في عمارتها نحواً من عشرين ألف مثقال، ورتب له ما يكفيه، وأقبل عليه الخلق واشتهر أمره بفاس والمغرب، وهو شيخ الطائفة التجانية رحمه الله ونفعنا به.

ثم دخلت سنة اثنتي عشرة ومائتين وألف فيها خرج السلطان في العساكر من مكناسة يريد عبد الرحمٰن بن ناصر بآسفي وعزم على حربه إلا أن يؤدي الطاعة هو وقبيله مباشرة طوعاً أو كرهاً، ولما عبر وادي أم الربيع قدم إليه القائد أبو السرور عياد بن أبي شفرة في جيش الودايا وقال له: إذا قدمت عليه فأزعجه للمجيء، فإن قدم فأقم أنت بآسفي، وإن امتنع من المجيء فاكتب إليّ وأقم هنالك حتى أقدم عليك. فلما وصل إليه القائد عياد لم يسعه إلا المجيء لملاقاة السلطان، فجاء وهو مريض في محفته ومعه جموعه وقبائله حتى اجتمع بالسلطان بالموضع المعروف بمائة بير وبير بين عبدة ودكالة، فبايعه مباشرة وأدى الطاعة هو وإخوانه مباشرة كما اقترح السلطان، وتحقق بأن تأخره إنما كان للمرض الذي به، فوفى له السلطان بعهده، وزاد في كرامته بوصوله معه إلى آسفي ودخوله إلى داره بعد تثبيط رؤساء الجيش له عن الدخول معه، ثم عقد له على قبائله وأمره بقبض الواجب منهم، زاد صاحب الجيش وشكره على إيوائه لأخيه المولى هشام، ثم سار السلطان إلى مراكش فدخلها مظفراً منصوراً.

وفي هذه السنة حدث الوباء ببلاد المغرب وعم حاضره وبواديه، ولما فشا بمراكش وأعمالها رجع السلطان إلى مكناسة وترك أخاه المولى الطيب نائباً عنه بها، فبلغه أثناء الطريق وفاة كاتبه أبي عبد الله محمد بن عثمان تركه بمراكش مصاباً بالوباء.

قال صاحب البستان: فلما وصل السلطان إلى مكناسة استقدمني من فاس فقدمت عليه وقلدني كتابته بعد أن أخرني عنها سنة، وفي أثناء ذلك بلغه وفاة إخوته الأربعة خليفته المولى الطيب والمولى هشام والمولى حسين والمولى عبد الرحمٰن بالوباء، الثلاثة الأول بمراكش والرابع بالسوس، ودفن المولى هشام والمولى حسين بقبة إلى جنب الشيخ الجزولي رضي الله عنه، وقبرهما مشهور بمراكش.

قال صاحب البستان: فبعثني السلطان إلى مراكش لآتيه بمتخلف إخوته الذين هلكوا بها ومتخلف الكاتب ابن عثمان، وبعث معي خيلاً وبغالاً لأحمل المتخلف المذكور والوباء لا زال لم ينقطع، قال: فوصلت إلى مراكش وجمعت المتخلف ورجعت به إلى فاس وقد ارتفع الوباء، وازدهرت الدنيا، ودرت ألبان الجباية للسلطان، وفي هذه المدة قدم على حضرة السلطان باشدور الإصبنيول فعقد معه شروط المهادنة، وكان الذي تولى عقدها معه الكاتب ابن عثمان المكناسي قبل وفاته بيسير، وهي ثمانية وثلاثون شرطاً مرجعها إلى الصلح والأمان من الجانبين، إلا أنها أشد بيسير من الشروط التي انعقدت مع السلطان المرحوم سيدي محمد رحمه الله، من ذلك أن شروط سيدي محمد كانت تتضمن أنه إذا تشاجر مسلم ونصراني فالذي يفصل بينهما هو الحاكم إلا أن القنصل يحضر وقت الفصل عسى أن يدفع عن ابن جنسه بحجة إن كانت، وصارت شروط السلطان المولى سليمان تتضمن أن كل واحد منهما يتولى أخذ الحق منه حاكمه ويدفعه لخصمه، وإذا فر نصراني من سبتة أو مليلية أو نكور أو بادس وأراد إسلاماً فلا بد من حضور القنصل إن كان، وإلا فالعدول يسمعون منه ثم شأنه وما يريد.

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف فيها وجه السلطان كاتبه أبا عبد الله محمد الرهوني لجمع أموال المنقطعين، فجمع منها ما قدر عليه وعاد سالماً معافى.

ثم دخلت سنة أربع عشرة ومائتين وألف فيها أرسل السلطان كاتبه المذكور عاملاً على السوس، ومعه طائفة من الجند، فجبى قبائله ورجع وأحبه أهل السوس لحسن سيرته ولين جانبه، وفي هذه السنة في اليوم الثامن من ربيع الثاني منها توفي الفقيه العلامة الماهر أبو عبد الله محمد المير السلاوي، وكان من أهل المشاركة والتحقيق والخط الحسن رحمه الله.

ثم دخلت سنة خمس عشرة ومائتين وألف فيها بعث السلطان العساكر لبرابرة آيت ومالو وعقد عليها للكاتب أبي عبد الله الحكماوي، وبعث معه جماعة من قواد الجيش وقواد القبائل فلم يرضوا إمارته عليهم، إذ كلهم كانوا أسن منه وفيهم من هو أعرف بأحوال البربر ومكايدهم، فخذلوه وقت اللقاء وجروا عليه الهزيمة واستولى البربر على أثاثهم ومدافعهم وجردوا الكثير منهم وقبضوا على الكاتب حتى أجاره بعض البربر فأبقوا عليه إلى أن بعثوا به إلى السلطان.

ثم دخلت سنة ست عشرة ومائتين وألف فيها بعث السلطان الجيش إلى بلاد درعة مع كاتبه أبي العباس أحمد آشقراس فدخلها واستولى على قصورها المغصوبة، وأخرج منها العرب والبربر وجبى أموالها ومهد نواحيها وأمن سبلها حتى صار ما بين السوس ودرعة والفائجة مجالاً للتجارة، وممراً لأبناء السبيل يغدون به ويروحون آمنين على أموالهم وأنفسهم.

ثم دخلت سنة سبع عشرة ومائتين وألف فيها بعث السلطان العساكر إلى بلاد الريف مع أخيه المولى عبد القادر، والقائد محمد بن خدة الشرقي وقائد العسكر أحمد بن العربي، فجبى قبائل الريف من قلعية وكبدانة وغيرهما عن ثلاث سنين سلفت، ولما رجعت العساكر أغارت على المطالسة وبني أبي

يحيى بكسر الياء الأخيرة فاستاقوا ماشيتهم وسبيهم وقدموا بهما على السلطان فسرح السلطان السبي.

ثم دخلت سنة ثمان عشرة وثمانين وألف فيها أغار آيت أدراسن على رفاق تافيلالت بطريق ملوية ونهبوا بعض القفل، وذلك بسبب أن السلطان كان قد قبض على محمد بن محمد واعزيز وسجنه بالجزيرة، وولى عليهم أخاه أبا عزة بن محمد واعزيز فلم يقبلوه، وجمعوا كلمتهم على ابن عمه أبي عزة بن ناصر، وكان منحرفاً عن السلطان ومفارقاً له فولوه أمرهم، ولما رأى السلطان اعوجاجهم سرح لهم محمداً واعزيز وولاه عليهم وأمره بالقبض على أبي عزة بن ناصر فأبى، فغضب السلطان عليه ثانية وهم به ففر محمد واعزيز وكشف وجه العصيان، فنهض حينئذٍ إلى آيت أدراسن في العساكر وأرسل إلى قبائل آيت ومالو أن يأتوهم من خلفهم، وتقدم هو حتى نزل بقرب آعليل ووقعت الحرب، فنصر الله السلطان وانهزم آيت أدراسن ونهبت مواشيهم، واحتوى البربر على حللهم وفر أولاد واعزيز الثلاثة برؤوسهم لآيت ومالو، وشرعت العساكر في إخراج زروعهم إلى أن استصفوها، وأمر السلطان بهدم قصورهم فهدمت وأعطى كروان بلادهم ورجع إلى فاس مظفراً منصوراً، ثم لم يقم بها إلا يسيراً حتى خرج إلى تازا وترك عامل فاس أبا العباس أحمد اليموري ببلاد الحياينة لقبض خراجهم، ولما احتل بتازا جهز العساكر إلى وجدة مع الشيخ عبد الله بن الخضر لجباية قبائلها، وجهز جيشاً آخر مع عامل سجلماسة أبي عبد الله محمد الصريدي فنزل ملوية وجبى قبائلها وطلع إلى بلاد الصحراء مع أوديتها إلى ناحية فجيج فجبى أموال تلك النواحي، ثم توجه إلى سجلماسة ففرق الجيش على أقاليم صحرائها درعة والفائجة وتدغة وفركلة وغريس وزيز والخندق ومدغرة والرتب فجبى أموال تلك القبائل كلها وقرر عماله ونوابه بكل إقليم منها، ومهد طريق الصحراء، ورجعت عساكره منصورة.

ثم دخلت سنة تسع عشرة ومائتين وألف فيها عزل السلطان القائد أبا العباس أحمد اليموري عن فاس وولى عليها صهره المولى حبيب بن عبد الهادي، فقام بها أحسن قيام، وكان ذا عقل ومروءة وسمت ودهاء، وفيها توجه السلطان في العساكر إلى مراكش، ولما احتل بها بعث جيشاً إلى السوس لنظر الكاتب أبي عبد الله الرهوني، وبعث جيشاً آخر إلى عامل حاحة لنظر أبي العباس أحمد اليموري، ثم خرج السلطان في جيش ثالث إلى ثغر الصويرة لمشاهدتها والوقوف على آثار والده بها، فانتهى إليها وأقام بها أياماً، وفرق المال على جندها أحراراً وعبيداً، ونظر في أمور مرساها وأمر بإصلاح ما لا بد منه فيها، وعاد إلى الغرب مؤيداً منصوراً.

## فتنة الفقير أبي محمد عبد القادر ابن الشريف الفليتي واستحواذه على تلمسان وبيعته للسلطان المولى سليمان والسبب في ذلك

لما كانت سنة عشرين ومائتين وألف هاجت الفتنة بين عرب تلمسان والترك، وكان السبب في ذلك أن باي وهران كان له انحراف عن الفقراء والمنتسبين وسوء اعتقاد فيهم، فقتل بعض الطائفة الدرقاوية وأمر بالقبض على مقدمهم أبي محمد عبد القادر بن الشريف الفليتي تلميذ الشيخ الأكبر أبي عبد الله سيدي محمد العربي بن أحمد الدرقاوي شيخ الطائفة المذكورة ففر أبو محمد عبد القادر المذكور إلى الصحراء ونزل بحلة الأحرار، فاجتمع عليه أهل طائفته وامتعضوا لمن قتل منهم ولنفي مقدمهم عن وطنه وعشيرته، وامتعضت لهم عشائرهم من قبائل العرب الذي هنالك وزحفوا لحرب الترك على حين غفلة منهم فقتلوهم في كل وجه.

ولما دخل فصل الربيع من السنة المذكورة بعث صاحب الجزائر عسكراً إلى باي وهران وأمره بغزو العرب، فنهض إليهم ووقعت الحرب بينه

وبينهم، فانهزم الترك ثانية ونهب العرب محلتهم وتبعوهم إلى وهران فحاصروهم، ولما مني الباي منهم بالداء العضال، كتب إلى السلطان المولى سليمان يعرفه بما دهاه منهم ويطلب منه أن يبعث إليهم شيخهم أبا عبد الله المذكور ليكفهم عنه ويراجعوا طاعة المخزن، فبعث السلطان رحمه الله الشيخ المذكور ومعه الأمين الحاج الطاهر بادو المكناسي، فانتهى الشيخ إلى ابن الشريف وهو في جموعه بظاهر وهران فشكا إلى الشيخ ما نال الفقراء والمنتسبين وسائر الرعية من عسف الترك وجورهم وانتهائهم في ذلك إلى القتل والطرد عن الوطن، فتوقف الشيخ وربما صدر منه بعض تقبيح لفعل الترك وما هم عليه، فازدادت العرب بذلك تظاهراً على الترك وتكالباً عليهم، فاتهم الباي السلطان بأنه الذي يغريهم لأنه كان ينتظر الفرج على يده ويرجو رقع الخرق من جهته فأخفق سعيه، وحينئذٍ نصب مدافعه في وجه جموع العرب وفرقهم بالكور والضوبلي فانهزموا عن وهران، وأبعدوا المفر، ثم تذامروا وتحالفوا وزحفوا إلى تلمسان فنزلوا عليها وحاصروها، وكان أهل تلمسان خصوصاً وقبائلها عموماً لهم التفات كبير إلى السلطان المولى سليمان رحمه الله لما أكرمه الله به من شرف النسب وطيب المنبت، ولما اشتهر عنه من العدل والرفق بالرعية والشفقة عليها، فكانوا يحبون الدخول في طاعته والانخراط في سلك رعيته، فلما نزلت العرب على تلمسان تمشت الرسل بينهم وبين الحضر من أهلها، واتفقوا على خلع طاعة الترك ومبايعة السلطان المولى سليمان، ففتحوا باب المدينة ودخل ابن الشريف وطائفته وأخذ البيعة بها للسلطان المولى سليمان وخطب به على منابرها، ووجه وفده وهديته إلى السلطان مع شيخه أبي عبد الله المذكور، ثم نهد في عربه وحضره من أهل تلمسان لحرب الكرغلية الذين بالقصبة فأجحرهم بها وضيق عليهم فلم يبق للترك حينئذٍ شك في أن ذلك كله بأمر السلطان، فكتبوا إلى الدولاتي وهو باشاهم الأعظم صاحب الجزائر يعلمونه بالواقع، واستمرت الحرب بينهم

وبين ابن الشريف في وسط المدينة، وعظم الخطب واشتد الكرب، وقدم الشيخ على السلطان بوفد أهل تلمسان والعرب وهدية ابن الشريف وبيعته، وأخبره بأن الناس في شدة من أمر الترك وأنهم قد تطارحوا على بابه وعلقت آمالهم به وراموا الاستظلال بظل عدله، فرأى السلطان رحمه الله أن يسلك في حقهم وحق الترك مسلكاً هو أرفق بالجميع، فبعث القائد أبا السرور عياد بن أبي شفرة الوديي، وأمره أن يحجز بين الحضر والترك حتى يقدم الباي إلى تلمسان، ورد معه الوفد الذين قدموا مع الشيخ وتقدم إليه في القبض على ابن الشريف إن هو لم يرجع عن الحرب إلى السلم، ثم كتب السلطان إلى الباي بما أزال شكه وأبطل وهمه، ولما شارف القائد عياد تلمسان فر الشريف إلى منجاته، ودخل القائد عياد المدينة فحجز بين الفريقين وقدم الباي إلى تلمسان فأصلح بينه وبين رعيته، ومكنه من بلده، وانقلب إلى حال سبيله، ومع ذلك لم يتم للترك ما أرادوا من أجل القحط الذي كان قد عم حتى علمت الأقوات، وجلا أهل تلمسان عنها إلى بلاد المغرب، وكذا عربها وأهل جبالها كلهم جلوا عن أوطانهم، حتى لم يبق لباشا الترك مع من يتكلم فضلاً عن أن يتأمر، فجعل يكتب إلى السلطان ويرغب إليه أن يرد عليه أهل تلمسان وعربها، فكلمهم السلطان رحمه الله في الرجوع فأبوا وقالوا: نذهب إلى بلاد النصارى ولا نجاور الترك فنجمع علينا الجوع والقتل، فرق لهم السلطان وتركهم، بل جبرهم بأن صار يعينهم بالعطاء ويتخولهم بالصدقات المرة بعد المرة، حتى كان عطاؤه إياهم كالراتب المفروض، وعالج داءهم مع الترك إلى أن أخصبت بلادهم ورخصت أسعارهم، فتراجعوا حينئذٍ إلى أوطانهم، وكتب السلطان إلى الباي في شأنهم بالعدل وحسن السيرة، فامتثل وكف أيدي الكرغلية عنهم، ولم يبق منهم بالمغرب إلا من كان عليه دين للترك فلم يقدر على الرجوع لأن أرباب الديون لا يقيمون لهم وزناً ولا يعملون معهم شرعاً والله أعلم.

# ذكر ما اتفق للسلطان المولى سليمان رحمه الله في وسط دولته من الخصب والأمن والسعادة واليمن

كان هذا السلطان رحمه الله موصوفاً بالعدل، معروفاً بالخير، مرفوع الذكر عند الخاصة والعامة، قد ألقى الله عليه منه المحبة فأحبته القلوب، ولهجت به الألسنة لحسن سيرته وطيب سريرته، واتفق له في أواسط دولته من السعادة والأمن والعافية ورخاء الأسعار، وابتهاج الزمان، وتبلج أنوار السعد والإقبال، ما جعله الناس تاريخاً وتحدثوا به دهراً طويلاً، حتى صارت أيام السلطان المولى سليمان مثلاً في ألسنة العامة ولقد أدركنا الجم الغفير ممن أدرك أواسط دولته فكلهم يثني عليها بملء فيه، ويذهب في إطرائها كل مذهب لولا ما كدر آخرها من فتنة البربر التي جرت معها فتناً أخر كما نذكر بعد إن شاء الله.

فمما هيأ الله له من أسباب الخير والسعادة أنه بويع مطلوباً لا طالباً، ومرغوباً لا راغباً، ثم لما بويع كان ثلاثة من إخوته كلهم يزاحمه في المنصب ثم لم يزل أمرهم يضعف وأمره يقوى إلى أن كفى الجميع من غير ضرب ولا طعن، ولا بارز أحداً منهم قط ولا واجهه بسوء، ومن ذلك أنه لما دخلت سنة إحدى وعشرين ومائتين وألف وجه السلطان عامله إلى صحراء فجيج وجبى أموالها واسترجع قصر المخزن الذي اغتصبه أهلها من يد العبيد الذين كانوا به أيام السلطان المولى إسماعيل رحمه الله، ووجه في السنة المذكورة جيشاً مع عامل فاس باعقيل السوسي، ومعه جماعة من قواد القبائل إلى ناحية الشرق فنزل العامل مدينة وجدة وجبى تلك القبائل كلها، ثم بدا له فنهض إلى عرب الأعشاش وكان ذلك خطأ منه في الرأي إذ كانت لهم شوكة وكان في غنى عن التعرض لهم بما در عليه من الجبايات الوافرة من تلك القبائل، لكن الحرص لا يزال بصاحبه حتى يقطع عنقه، فلما علموا بقصده إياهم عدلوا عن لقائه إلى المحلة فأغاروا عليه وانتهبوها فرجع أهلها منهزمين

من غير قتال وتركوا أثقالهم بيد العدو ولم يجتمعوا إلا على وادي ملوية، ومن هناك انفض الأحلاف إلى بلادهم، ووقف باعقيل بالجيش، وأحجم عن القدوم خوفاً من السلطان، فبعث إليه من قبض عليه وأتاه به فنكبه وعزله عن فاس وولى عليها وصيفه ابن عبد الصادق، ثم عزله وولى عليها محمد واعزيز.

ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف فيها خرج السلطان المولى سليمان بالعساكر إلى تادلا يريد بني موسى، وآيت أعتاب، ورفالة، وبني عياط الذبح آووا بني موسى، فبث السلطان عليهم العساكر فنهبوا بني موسى ومن آواهم من رفالة وبني عياط، وأحرقوا مداشرهم وقطعوا أشجارهم وأبلغوا في النكاية إلى أن أذعنوا إلى الطاعة وجبوا زكواتهم وأعشارهم وعادوا منصورين، وفي السنة المذكورة فتح على السلطان إقليم تيكرارين وتوات من أقصى الصحراء، وجبى عامله خراجهم وعاد سالماً معافى، وفيها حدثت الحرب بين السلطان مصطفى بن عبد الحميد العثماني وبين الموسكوب، فكتب العثماني إلى السلطان يطلب منه أن يشد عضده بأن يقيم قراصينه بباب البوغاز من مرسى طنجة لئلا تدخل قراصين الموسكوب منه وتعيث في الجزر التي هي في ملكة العثماني كما فعلت في دولة عمه السلطان مصطفى بن أحمد، فأمر السلطان رحمه الله رؤساء قراصينه بالتهيىء والمقام هنالك ففعلوا ولم يظهر شيء، حكى هذا الخبر صاحب البستان.

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف فيها عقد السلطان لوصيفه القائد أحمد بن مبارك صاحب الطابع على جيش كثيف، وضم إليه جماعة من قواد الجند والقبائل وسار حتى نزل على حدود بلاد آيت ومالو وأحاطت العساكر السلطانية بهم من كل جهة، وكان ذلك في فصل الشتاء فمنعوهم من النزول إلى البسيط للمرعى، وجلب الميرة إلى أن ضاعت مواشيهم وأذعنوا

لدفع ما وظف عليهم فدفعوا الماشية والكراع وخلى سبيلهم، وفيها خرج السلطان من مكناسة لتفقد أحوال الثغور البحرية وكان المتولي على جمعها القائد الشهير أبو زيد عبد الرحمٰن بن علي أشعاش التطواني فعزله السلطان في هذه المرة وولى عليها القائد محمد السلاوي البخاري، ثم ولاه على قبائل الغرب والجبال كلها، وتتبع السلطان رحمه الله الثغور كلها وأحسن إلى أهلها.

ثم دخلت سنة أربع وعشرين ومائتين وألف فيها خرج السلطان إلى تادلا يريد عرب ورديغة وقبائل البربر الذين هنالك فأغارت عساكر السلطان عليهم ووقعت بينهم حرب فظيعة هلك فيها عدد من الفريقين، ثم انتصرت العساكر السلطانية عليهم فهزموهم ونهبوا أموالهم وألجؤوهم إلى الطاعة فجاؤوا تائبين فعفا عنهم، ثم أنفذ جيشاً كثيفاً لآيت يسري بعد أن قبض منهم على عدد معتبر فشنوا الغارة عليهم وقاتلوهم فأذعنوا لإعطاء المال، ولما بذلوه سرح لهم إخوانهم المقبوض عليهم وعاد السلطان مظفراً منصوراً.

ثم دخلت سنة خمس وعشرين ومائتين وألف فيها غزا السلطان بلاد الريف فنزل عين زورة وسرح الكتائب في قبائل الريف فحاربوها وهزموها وقتلوا مقاتلتها وسلبوا ذراريها وحرقوا مداشرها وألجؤوهم إلى الطاعة فقدموا على السلطان تائبين فعفا عنهم على أن يدفعوا ما ترتب عليهم، ثم عين السلطان الأمناء الذين استوفوه منهم على التمام، وعاد مظفراً منصوراً، وفي هذه السنين كلها كانت الرعية في غاية الطمأنينة والعافية والأمن والخصب والرخاء وكمال السرور والهناء، حتى كانت هذه المدة غرة في جبهة ذلك العصر ودمية في محراب ذلك القصر، ثم انعكست الأحوال وتراكمت الأهوال، وعظمت الأوجال، واتسع في الفتنة المجال، وتم على هذا السلطان الجليل العالم النبيل، في آخر عمره ما لم يتم على أحد من ملوك بني أبيه، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

## بدء هيجان فتنة البربر وما نشأ عنها من التفاقم الأكبر

لما دخلت سنة ست وعشرين ومائتين وألف قامت الفتنة بين قبائل البربر وكان ابتداؤها أولاً بين آيت أدراسن وكروان، وبين أعدائهم آيت ومالو أهل جبل فازاز، ثم لما انتشبوا الحرب غدرت كروان بإخوانهم آيت أدراسن وانحازوا إلى آيت ومالو فانهزمت آيت أدراسن ووضع آيت ومالو فيهم السيف ونهبوا حلتهم بما فيها وتركوهم بالقاع مدقعين، ولعصا الذل مهطعين، ولم يفلت منهم إلا أصحاب الخيل الذين نجوا بنواصيها، وقدموا على السلطان شاكين باكين، فقام وقعد لذلك لما أوجب الله عليه من النظر لهم إذ هم رعيته وشيعته وشيعة والده من قبله، فجهز العساكر لنصرتهم وعادوا إلى حرب كروان فظاهرهم آيت ومالو عليهم وهزموهم مرة أخرى، ثم بعد هذا اتفقت البربر على حرب آيت أدراسن مناوأة للسلطان وبغضاً في قائدهم محمد واعزيز الذي كان يوليه عليهم وبعثوا إلى دجالهم مهاوش المعد عندهم لأمثالها، وتحالفوا عنده على معصية السلطان وطاعة الشيطان، وعاثوا في الطرقات والرعايا واتسع الخرق وعظم الفتق، فسارت إليهم العساكر من باب السلطان حتى نزلت بأحواز صفرو وكانت لنظر القائد محمد الصريدي الذي يبغضه البربر كبغض محمد واعزيز أو أكثر، فكشفوا القناع في العصيان وزحفوا إلى الجيش وهو نازل حول صفرو فأحاطوا به وانتهبوه، ففر من أفلت منه وتحصن الباقي بمدينة صفرو، ونهبت القرى المجاورة لها وعاثوا في طرقات الصحراء فنهبوا من وجدوا بها مقبلاً أو مدبراً وأعضل الداء وأعوز الدواء والسلطان مقيم بمكناسة يعالج داءهم فما نفع فيه ترياق، وشمخت أنوف البربر وكلما بعث إليهم جيشاً هزموه أو سرية انتهبوها، قيل إن منشأ ذلك كان من أجل تمسك السلطان رحمه الله بمحمد واعزيز وجبرهم على طاعته، وكانوا قد نفروا عنه لسوء سيرته فيهم

والمعروف من حال السلطان المولى سليمان رحمه الله خلاف هذا فإنه كان قلما تشكو رعية إليه بعاملها إلا ويعزله عنها تحرياً للعدل واتهاماً للعمال، حتى لقد عيب عليه ذلك في بعض الأحوال من جهة السياسة، ولما أعيا السلطان أمرهم تركهم فوضى ووكل القائد عياد بن أبي شفرة بتدبير أمرها وتوجه إلى مراكش فكان عياد على أمرهم أعجز، وبسياستهم أجهل، وصار يتألفهم بالعطاء ويجري المؤن على كل من يقدم عليه منهم من طعام وعلف ونحو ذلك، فكان ذلك مما زاد في طغيانهم حتى كانوا ينهبون أموال الناس ومتاعهم بباب فاس، ويدخلون لقبض الخفارة وأخذ الميرة، وإذا تكلم أحد من أهل البلد قال القائد المذكور: إن السلطان أمرني بذلك وربما عاقب من يعترض عليه، وإنما أمره السلطان أن يسوسهم على الوجه الذي لا ضرر فيه على الدولة ولاعلى الرعية والله أعلم.

## إجلاب السلطان المولى سليمان على برابرة كروان ورجوعه عنهم من آصرو وما نشأ عن ذلك

لما وصل السلطان إلى مراكش استنفر قبائل الحوز كلها وقدم بهم إلى مكناسة واستنفر قبائل الغرب من الأحلاف والحياينة وأهل الفحص، وأهل الغرب، وبني حسن، وأهل الثغور وضرب البعث على جيش العبيد والوداية وشراقة وأولاد جامع واستصحب معه البربر الذين هم في طاعته حتى لم يبق أحد بالمغرب، وخرج في هذا الجمع العظيم قاصداً كروان وهم يومئذٍ بتاسماكت، ولما وصل إلى الموضع المعروف بآصرو وبقي بينهم وبينْه نصف مرحلة بحيث صار يرى محلتهم ويرون محلته بدا له فرجع يريد آيت يوسي، فكان ذلك الرجوع سبب الخذلان، ولما رأته عيون كروان راجعاً ظنوا به جبناً فجرؤوا على الجيش وتبعوه من خلفه إلى أن خالطوا أخريات

الناس فأوقعوا بهم وقتلوا ونهبوا، وأين أوله بينهما مرحلة، ولا علم للسابق بما جرى على اللاحق، ثم نزل السلطان على آيت يوسي بقرب آعليل وصاروا بنو مكيلد أمامه وكروان من خلفه ولم يكن علم بما وقع في العسكر من النهب والقتل إلى أن ورد عليه منهزمة العبيد ليلاً فأخبروه بما وقع، وأن قائد عسكره أبا عبد الله محمد بن الشاهد قد قتل في جماعة من القواد وغيرهم، ففت ذلك في عضده وتجلد رحمه الله ليلته تلك، ولما أصبح ركبت العساكر وقصدت آيت ومالو الذين كانوا مع آيت يوسي ولما وقعت الحرب انهزم عسكر السلطان وألجأهم البربر إلى شعب لا منفذ له فترجلوا وتركوا الخيل ونجوا بأعناقهم وحمتهم آيت يمور وآيت أدراسن حتى خلصوهم، وكانت حلتهم قريباً من العسكر فلو تبعوهم لوقعوا عليها، ولما حصلت هذه المزية لهؤلاء البربر الذين هم شيعة السلطان ولم تظهر للعرب مزية حقدوا ذلك عليهم وصاروا كل من دنا من المحلة منهم قبضوا عليه وقتلوه، وقالوا: إن البربر كلهم سواء، فلما وقع ذلك بشيعة السلطان امتعضوا ورفعوا أمرهم إليه فأمر كاتبه وعامله محمداً السلاوي أن ينظر في أمرهم فبحث القائد المذكور حتى اطلع على حقيقة الأمر وعلم فساد نية البربر لما وقع بهم من القتل وسط المحلة، ورأى أن القصاص في ذلك الوقت متعذر وأن عاقبته غير مأمونة فأشار على السلطان بالرجوع قبل أن يتسع الخرق على الراقع، فرجع وكان رجوعه أكبر غنيمة، وكثرة هذه الجموع بلا ترتيب سبب تلك الهزيمة والأمر كله لله، وهذه الوقعة تعرف عند الناس بوقعة آصرو إضافة إلى الموضع الذي انتهى إليه السلطان من بلاد البربر، ثم رجع عنه وقد جعلها العامة تاريخاً يقولون: كان ذلك عام وقعة آصرو والله تعالى أعلم.

## مراسلة صاحب تونس حمودة باشا ابن علي باي للسلطان المولى سليمان رحمه الله وما اتفق في ذلك

وفي هذه المدة أو ما يقرب منها بعث صاحب تونس وهو الرئيس حمودة باشا ابن علي باي العالم الأديب الطائر الصيت الشيخ أبا إسحاق إبراهيم بن عبد القادر الرياحي إلى السلطان المولى سليمان رحمه الله، فقدم عليه حضرة فاس ومعه هدية وكتاب يتضمن طلب الإمداد بالميرة لحدوث المسغبة بالبلاد التونسية، فأعظم السلطان رحمه الله مقدم هذا الشيخ واهتزت له فاس، وامتدح السلطان بقصيدة من جيد شعره يقول في أولها:

إن عز من خير الأنام مزار ... فلنا بزورة نجله استبشار

ومن جملتها قوله:

هذا الخليفة وابن أكرم مرسل ... وسليل من تمطى له الأكوار
وخلاصة الأشراف والخلفاء من ... بيت البتول وحبذا الأظهار
وأجل وارث ملك إسماعيل من ... بطل شذا أخباره معطار
وأعز سلطان وأشرف مالك ... شرقت بملك يمينه الأحرار
وأحق من تحت السماء بأن يرى ... ملك البسيطة والورى أنصار
لكن إذا كل القلوب تحبه ... فلغيره الأجسام وهي نفار
هذا سليمان الرضي ابن محمد ... من أشرقت لجبينه الأنوار
هذا الذي رد الخلافة غضة ... وسما به للمسلمين منار
وأعزّ دين الله فهو بشكره ... في أيكها تترنم الأطيار

فأعجب السلطان ومن حضر بها، وأمده بمطلبه من الميرة وبهدية جليلة، وآب الشيخ من سفارته بخير مآب.

# وصول كتاب صاحب الحجاز عبد الله بن سعود الوهابي إلى فاس وما قاله العلماء في ذلك

وفي هذه المدة أيضاً وصل كتاب عبد الله بن سعود الوهابي النابع بجزيرة العرب المتغلب على الحرمين الشريفين المظهر لمذهب بهما إلى فاس المحروسة، وأصل هذه الطائفة الوهابية كما عند صاحب التعريبات الشافية وغيره أن فقيراً من عرب نجد يقال له: سليمان، رأى في المنام كأن شعلة من نار خرجت من بدنه وانتشرت وصارت تأكل ما قابلها، فقص رؤياه على بعض المعبرين ففسرها له بأن أحد أولاده يجدد دولة قوية، فتحققت الرؤيا في ابن ابنه الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان، فالمؤسس للمذهب هو محمد بن عبد الوهاب، ولكن نسب إلى عبد الوهاب فلما كبر محمد احترمه أهل بلاده ثم أخبر بأنه قرشي، ومن أهل بيت النبي ﷺ، وألف لهم قواعد وعقائد وهي عبادة الله واحد قديم قادر حق رحمٰن يثيب المطيع ويعاقب العاصي، وأن القرآن قديم يجب اتباعه دون الفروع المستنبطة، وأن محمداً رسول الله وحبيبه، ولكن لا ينبغي وصفه بأوصاف المدح والتعظيم إذ لا يليق ذلك إلا بالقديم، وأن الله تعالى حيث لم يرض بهذا الإشراك سخره ليهدي الناس إلى سواء الطريق، فمن امتثل فبها ونعمت، ومن أبى فهو جدير بالقتل، فهذه أصول مذهبه، وكان قد بثه أولاً سراً فقلده أناس ثم سافر إلى الشام لهذا الأمر فلما لم يجد به مراده رجع إلى بلاد العرب بعد غيبته عنها ثلاث سنين، فاتصل بشيخ من أشياخ عرب نجد يقال له: عبد الله بن سعود، وكان شهماً كريم النفس، فقلده وقام بنصرة مذهبه، وقاتل عليه حتى أظهره، واقتسم الرياسة هو ومحمد بن عبد الوهاب، فابن عبد الوهاب صاحب الاجتهاد في مسائل الدين، وابن سعود أمير الوهابية وصاحب حربهم، ولا زال أمر هؤلاء الوهابية يظهر شيئاً فشيئاً إلى أن تغلبوا على الحجاز والحرمين الشريفين وسائر بلاد العرب، ثم

قال صاحب التعريبات الشافية: إن مساجد الوهابية خالية عن المنارات والقباب وغيرها من البدع المستحسنة، لا يعظمون الأئمة ولا الأولياء، ويدفنون موتاهم من غير مشهد واحتفال، يأكلون خبز الشعير والتمر والجراد والسمك، ولا يأكلون اللحم والأرز إلا نادراً، ولا يشربون القهوة، وملابسهم ومساكنهم غير مزينة اهـ.

ولما استولى ابن سعود على الحرمين الشريفين بعث كتبه إلى الآفاق، كالعراق والشام ومصر والمغرب، يدعو الناس إلى اتباع مذهبه، والتمسك بدعوته، ولما وصل كتابه إلى تونس بعث مفتيها نسخة منه إلى علماء فاس فتصدى للجواب عنه الشيخ العلامة الأديب أبو الفيض حمدون بن الحاج.

قال صاحب الجيش: كان تصدي الشيخ أبي الفيض لذلك الجواب بأمر السلطان وعلى لسانه، وذهب بجوابه ولده المولى إبراهيم بن سليمان حين سافر للحج قلت: وهذا يقتضي أن كتاب ابن سعود ورد على السلطان المولى سليمان بالقصد الأول لا أن نسخة منه وردت بواسطة علماء تونس والله تعالى أعلم.

## حج المولى أبي إسحاق إبراهيم ابن السلطان المولى سليمان رحمه الله

وفي هذه السنة أعني سنة ست وعشرين ومائتين وألف وجه السلطان المولى سليمان رحمه الله ولده الأستاذ الأفضل المولى أبا إسحاق إبراهيم بن سليمان إلى الحجاز لأداء فريضة الحج مع الركب النبوي الذي جرت العادة بخروجه من فاس على هيئة بديعة من الاحتفال، وإبراز الأخبية لظاهر البلد، وقرع الطبول وإظهار الزينة، وكانت الملوك تعنى بذلك وتختار له أصناف الناس من العلماء والأعيان والتجار والقاضي وشيخ الركب وغير ذلك، مما يضاهي ركب مصر والشام وغيرهما، فوجه السلطان ولده المذكور في جماعة

من علماء المغرب وأعيانه مثل الفقيه العلامة القاضي أبي الفضل العباس بن كيران، والفقيه الشريف البركة المولى الأمين بن جعفر الحسني الرتبي، والفقيه العلامة الشهير أبي عبد الله محمد العربي الساحلي، وغيرهم من علماء المغرب وشيوخه، فوصلوا إلى الحجاز وقضوا المناسك وزاروا الروضة المشرفة على حين تعذر ذلك وعدم استيفائه على ما ينبغي لاشتداد شوكة الوهابيين بالحجاز يومئذٍ ومضايقتهم لحجاج الآفاق في أمور حجهم وزيارتهم إلا على مقتضى مذهبهم.

حكى صاحب الجيش: أن المولى إبراهيم ذهب إلى الحج واستصحب معه جواب السلطان، فكان سبباً لتسهيل الأمر عليهم وعلى كل من تعلق بهم من الحجاج شرقاً وغرباً، حتى قضوا مناسكهم وزيارتهم على الأمن والأمان، والبر والإحسان، قال: حدثنا جماع وافرة ممن حج مع المولى إبراهيم في تلك السنة، أنهم ما رأوا من ذلك السلطان يعني ابن سعود ما يخالف ما عرفوه من ظاهر الشريعة، وإنما شاهدوا منه ومن أتباعه غاية الاستقامة والقيام بشعائر الإسلام، من صلاة وطهارة وصيام، ونهي عن المنكر الحرام، وتنقية الحرمين الشريفين من القاذورات والآثام التي كانت تفعل بهما جهاراً من غير نكير، وذكروا أن حاله كحال آحاد الناس لا يتميز عن غيره بزي ولا مركوب ولا لباس، وأنه لما اجتمع بالشريف المولى إبراهيم أظهر له التعظيم الواجب لأهل البيت الكريم، وجلس معه كجلوس أحد أصحابه وحاشيته، وكان الذي تولى الكلام معه هو الفقيه القاضي أبو إسحاق إبراهيم الزداغي، فكان من جملة ما قال ابن سعود لهم: إن الناس يزعمون أننا مخالفون للسنة المحمدية، فأي شيء رأيتمونا خالفنا من السنة، وأي شيء سمعتموه عنا قبل اجتماعكم بنا، فقال له القاضي: بلغنا أنكم تقولون بالاستواء الذاتي المستلزم لجسمية المستوى، فقال لهم: معاذ الله إنما نقول كما قال مالك: الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة، فهل في هذا من مخالفة، قالوا:

لا ويمثل هذا نقول نحن أيضاً، ثم قال له القاضي: وبلغنا عنكم أنكم تقولون بعدم حياة النبي ﷺ وحياة إخوانه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في قبورهم فلما سمع ذكر النبي ﷺ ارتعد ورفع صوته بالصلاة عليه وقال: معاذ الله إنما نقول إنه ﷺ حي في قبره، وكذا غيره من الأنبياء، حياة فوق حياة الشهداء، ثم قال له القاضي: وبلغنا أنكم تمنعون من زيارته ﷺ وزيارة سائر الأموات مع ثبوتها في الصحاح التي لا يمكن إنكارها فقال: معاذ الله أن ننكر ما ثبت في شرعنا وهل منعناكم أنتم لما عرفنا أنكم تعرفون كيفيتها وآدابها، وإنما نمنع منها العامة الذين يشركون العبودية بالألوهية، ويطلبون من الأموات أن تقضى لهم أغراضهم التي لا تقضيها إلا الربوبية، وإنما سبيل الزيارة الاعتبار بحال الموتى، وتذكر مصير الزائر إلى ما صار إليه المزور، ثم يدعو له بالمغفرة ويستشفع به إلى الله تعالى ويسأل الله تعالى المنفرد بالإعطاء والمنع بجاه ذلك الميت إن كان ممن يليق أن يتشفع به، هذا قول إمامنا أحمد بن حنبل رضي الله عنه، ولما كان العوام في غاية البعد عن إدراك هذا المعنى منعناهم سداً للذريعة، فأي مخالفة للسنة في هذا القدر اهـ.

ثم قال صاحب الجيش: هذا ما حدث به أولئك المذكورون، سمعنا ذلك من بعضهم جماعة، ثم سألنا الباقي أفراداً فاتفق خبرهم على ذلك اهـ.

**قلت:** مسألة زيارة قبور الأنبياء والأولياء مشهورة في كتب الأئمة وهي من القرب المرغوب فيها عند الجمهور، ومنعها قوم من الحنابل وشدد تقي الدين ابن تيمية منهم فيها محتجاً بقوله عليه الصلاة والسلام: **«لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى»**، وهو عند الجمهور مؤول بأن المعنى لا تشد الرحال لصلاة في مسجد إلا إلى ثلاثة مساجد اهـ. وقد بسط القول في هذا صاحب المواهب اللدنية، والقول الفصل أن التبرك بآثار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والأولياء رضي الله عنهم، وزيارة مشاهدهم من الأمر المعروف عند أمة محمد ﷺ المجمع عليه

خلفاً وسلفاً، لا يسع إنكاره، غير أن للزيارة آداباً تجب المحافظة عليها، وشروطاً لا بد من مراعاتها، والوقوف لديها، ثم القول بمنعها مطلقاً سداً للذريعة في حق العامة، إذ هم أكثر الناس وغولاً في ذلك فيه نظر، أما الأنبياء فلا ينبغي لعاقل أن يحرم نفسه من الوقوف على مشاهدهم والتبرك بتربتهم والاحتماء بحماهم، ولا أن يقول بذلك لمزيد ارتفاع درجتهم عند الله تعالى، ولندور اتفاق زيارتهم لأكثر الغرباء، وأما الأولياء فالقول بمنع زيارتهم سداً للذريعة مع بيان العلة وإشهارها بين الناس، حتى لا يلتبس عليهم المقصود، قول وجيه لا تأباه قواعد الشريعة بل تقتضيه والله أعلم. وهذا القول هو الذي رآه الشيخ الفقيه الصوفي أبو العباس أحمد التجاني رحمه الله حتى نهى أصحابه عن زيارة الأولياء.

**وأقول**: إن السلطان المولى سليمان رحمه الله كان يرى شيئاً من ذلك ولأجله كتب رسالته المشهورة التي تكلم فيها على حال متفقرة الوقت وحذر فيها رضي الله عنه من الخروج عن السنة والتغالي في البدعة، وبين فيها بعض آداب زيارة الأولياء، وحذر من تغالي العوام في ذلك وأغلظ فيها مبالغة في النصح للمسلمين جزاه الله خيراً، ومن كلامه فيها ما نصه: تنبيه: من الغلو البعيد ابتهال أهل مراكش بهذه الكلمة «سبعة رجال»، فهل كان لسبعة رجال شيعة يطوفون عليهم إلى أن قال: فعلينا أن نقتدي بسبعة رجال ولا نتخذهم آلهة لئلا يؤول الحال فيهم إلى ما آل إليه في يغوث ويعوق ونسرا، إلى آخر كلامه، وصدق رحمه الله فكم من ضلالة وكفر أصلها الغلو في التعظيم، وما ضلت النصارى إلا من غلوهم في عيسى وأمه عليهما السلام، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ [النساء: 171] الآية، ومن ذلك قصة يغوث ويعوق ونسرا المشار إليها، وهي مذكورة في الصحيح وفي كتب التفسير.

وحكى ابن إسحاق في السيرة: أن أصل حدوث عبادة الحجر في بلاد العرب، أن آل إسماعيل عليه السلام لما كثروا حول الحرم، وضاقت بهم

فجاج مكة تفرقوا في النواحي وأخذوا معهم أحجاراً من الحرم تبركاً بها، فكان أحدهم يضع الحجر في بيته فيطوف ويتمسح به ويعظمه، ثم توالت السنون وخلفت الخلوف فعبدوا تلك الأحجار، ثم عبدوا غيرها وذهبت منهم ديانة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلا يسيراً جداً بقي فيهم إلى أن صبحهم الإسلام، هذا معنى ما ذكره ابن إسحاق، وقد تكلم الشاطبي وغيره من العلماء فيما يقرب من هذا، وذكروا أن الغلو في التعظيم أصل من أصول الضلال، ولو لم يكن في ذلك إلا قضية الشيعة لكان كافياً، فالحاصل أن خير الأمور الوسط، ومن هنا أيضاً كان السلطان المولى سليمان رحمه الله قد أبطل بدعة المواسم بالمغرب، وهي لعمري جديرة بالإبطال، فسقى الله ثراه، وجعل في عليين مثواه.

ولما كان رمضان من سنة سبع وعشرين ومائتين وألف قدم المولى إبراهيم ابن السلطان المذكور من الحجاز ونزل بطنجة وكان قدومه في قرصان الإنجليز لأن والده رحمه الله كان قد وجهه إليه مع بضع قراصينه إلى الإسكندرية، فصادفوه قد انحدر إلى جزيرة مالطة فركب المولى المذكور فيما خف من حاشيته في قرصان النجليز وسبق إلى طنجة فاحتل بها، ثم سار إلى حضرة والده بمكناسة فأقام عنده ثلاثاً ريثما استراح، ثم انفصل عنه إلى داره بفاس، فخرج لملاقاته جيش الودايا وأشراف فاس وأعلامها، وسائر عامتها بفرح وسرور، وكان يوم دخوله يوماً مشهوداً، ولما وصل القوم الذين كانوا معه نشروا محاسنه وفضائله، ومكارمه المحمودة وفواضله وما فعله من البر في طريق الحج خصوصاً في مفاوز الحجاز، فقد أنفق فيها على الضعفاء والمساكين ما لا يحصى، وشاع ذكره في الحرمين الشريفين وتجاوزهما إلى مصر والشام والعراقين، ولما نفذ ما عنده استسلف من التجار الذين كانوا معه أموالاً طائلة أنفقها في سبيل الله، ولما قدم أربابها على السلطان عرفوه بما استسلفه منهم ولده وأطلعوه على حساباتهم فعرف أن ما فعله ولده صواب، فأمر رحمه الله لأولئك التجار بقضاء ما أسلفوه وأن يزاد لهم مقدار ربحه

تطييباً لنفوسهم، وقال: إنما تتعاطون التجارة لتنمو أموالكم وتربحوا، فلا ينبغي أن ننقصكم من ربحكم شيئاً، فأما نحن فربحنا هو ما أنفقه ولدنا في سبيل الله.

وقد مدح هذا النجل الأرضى جماعة من أدباء مصر وغيرها بقصائد نفيسة، ومن جملة من مدحه الفقيه العلامة الأديب أبو إسحاق إبراهيم عبد القادر الرياحي التونسي، فإنه بعث بقصيدة رائقة إلى والده السلطان المرحوم يمدح النجل المذكور ويهنئه بالقدوم، وألم فيها بذكر السلطان فأعجبته وهزت من عطفه، وأمر كتاب دولته أن يأخذوا منها نسخاً وشرحها بعضهم ونصها:

هذي المنى فأنعم بطيب وصال ... فلطالما أضناك طول مطال
ماذا وكم أوليتني يا مخبري ... بقدومه من منة ونوالي
بشرتني بحياتي العظمى التي ... قد كنت أحسبها حديث خيال
بشرتني بابن الرسول لو إنما ... روحي ملكت بذلتها في الحال
بشرتني بسلالة الخلفاء من ... أمداحهم تثنى بكل مقال
من حبهم فرض الكتاب أما ترى ... إلا المودة حين يتلو التالي
من ضمهم شمل العباء وأذهبوا ... رجساً فيالك من مقام عالي
من قوموا أود المكارم بعد ما ... شادوا الهدى بمعارف ونصال
لولاهم كان الورى في ظلمة ... مدت غياهبها بكل ضلال
آباءك الأطهار فاقصد يا أبا ... إسحاق يا نجل المليك العالي
يا حبه وصفيه من قومه ... وخياره من سائر الأنجال
لو لم تكن أهلاً لصفو وداده ... لم يستنبك لجدك المفضال
لكن توسم فيك كل فضيلة ... فحبى يمينك راية الإقبال
وأقام جودك بل وجودك زاد من ... يبغي ببيت الله حط رحال
أنت استطاعتهم فما عذر الذي ... ترك الزيارة خيفة الإقلال
وبك المشاعر أطربت طرب التي ... وجدت على وله فقيد فصال
ووصلتها رحماً هناك قطيعة ... دهراً ولم تبلل به ببلال

وتأنس الحرمان منك بطلعة أغنتهما عن وابل هطال
كرم لكم أدريه يوم أفاضه عني سليمان باي سجال
وهب الألوف وكان أكرم منزل يسلي الغريب ببره المتوال
يوم التشرف لي بلثم يمينه وتمتعي من وجهه بجعال
وتلذذي بخطابه المعسول إذ حفت به للدرس أي رجال
لم أنسه يوماً حسبت نعيمه بلذائذ الجنات ضرب مثال
عجباً له يحيي القلوب بعلمه ويميت جند الفقر منه بمال
وإذا تقلد للوغى فحسامه تعنو الرقاب له بدون قتال
تتلوه بالفتح المبين عساكر قد أرهفت بالنصر حد نصال
تخشى الملوك مقامه ولذكره رعباً تطير فرائص الأبطال
وينال آمله بخفض جناحه ما ليس يخطر قط منه ببال
حتى سعى لصفي منهله الذي يسعى لمروته ذوو الأثقال
وأتت لمغربه الشريف مشارق والشمس تغرب لاقتضاء كمال
لما تكدر صفوها بضلالة جاءته كيما ترتوي بزلال
ومتى تخلف عاجز فبقلبه يسعى لفعل شعائر الإجلال
أمنية وقعت أشرت لذكرها في مدحه قدماً بصدق مقال
تهوى المشارق أن تكون مغارباً لتنال من جدواه كل منال
يا فخر دين الله منه بناصر وسعادة الدنيا به من وال
لا تفتخر فاس ولا مراكش بولائه كل الأنام موال
أو ليس في كل البقاع ثناؤه ورد البكور وسحة الآصال
أو لم يشد للدين والعلماء والـ أشراف والصلحاء أي جلال
أو لم يعم بجوده أقطارها لا فرق بين جنوبها وشمال
أو لم يسر ركبانها بمحاسن ضاءت لها سرج بجنح ليال
أو ليس أحيا سنة العمرين في زمن إلى بدع الهوى ميال
شيم يهز الراسيات سماعها ويعجن في أنف الزمان غوال
أوصاف والدك الإمام المرتضى للدين والدنيا بحسن خلال

ذاك الربيع أبو الربيع ومن به    حيى الهدى وشرائع الأفضال
كل الكمال له وأنت مقره    والفرع عين الأصل عند مال
يا ابن المليك ابن المليك ابن المليـ    ـك ابن المليك سلالة الأقيال
أنسيتم ذكر العباسية الأولى    زالوا وما زالوا بعين جلال
لكم الفخار بذاته وسواكم    مستمسك من فخركم بظلال
ولي الفخار بأن نسجت مديحكم    حللاً تجد وكل شيء بال
أملى معانيها على ودادكم    فجرى به طبع كما السلسال
ولو أنني حاولت مدح سواكم    عقل القريحة عنه أي عقال
فكأنما طبعي شريف حيثما    لا يهتدي لسوى مديح الآل
أو قد درى أن المديح تعرض    وسواكم لا يرتضي لسؤال
أبقاكم كهفاً يلاذ بمجدكم    مختاركم لإنالة الآمال
وأدام للإسلام والدك الذي    هو رحمة وسعت بغير جدال
وعليكم وعلى الذي يهواكم    أزكى الرضى من حضرة المتعال
ما دام ذكركم بكل صحيفة    تبعاً لأحمد سيد الإرسال
صلى عليه مسلماً رب الورى    وعلى مقدم حزبه والتالي

وعزز هذه القصيدة بمثلها بحراً وقافية وروياً الفقيه العلامة الأديب أبو الفيض حمدون بن الحاج الفاسي يقول في مطلعها:

بشراك إبراهيم بالإقبال    إقبال عز لم يكن بالبال

وهي طويلة تركناها اختصاراً، وفي هذه السنة توفي الشريف البركة المولى علي ابن المولى أحمد الوزاني، وذلك يوم الثلاثاء آخر يوم ربيع الأول سنة ست وعشرين ومائتين وألف.

## غزو السلطان المولى سليمان بلاد الريف والسبب في ذلك

لما كانت سنة سبع وعشرين ومائتين وألف بلغ السلطان أن قبائل الريف من قلعية وغيرهم صاروا يبيعون الزرع للنصارى ويسوقونه من بلادهم، فعقد لعامله على الثغور أبي عبد الله محمد السلاوي على جيش كثيف وأنفذه إليهم

فسار العامل المذكور وقصد قلعية عش الفساد، ولما شارفها سرب إليهم العساكر فنهبوا أموالهم وحرقوا مداشرهم، وانتسفوا أرضهم وديارهم، وتركوهم أفقر من ابن المدلق، ثم بث عماله في تلك القبائل فجبوها واستوفوا زكواتها وأعشارها، وعاد ظافراً، وفي هذه السنة وذلك صباح يوم الجمعة السابع عشر من محرم منها توفي الشيخ العلامة الإمام خاتمة المحققين بالمغرب سيدي محمد الطيب بن عبد المجيد بن عبد السلام ابن كيران الفاسي، صاحب التآليف البديعة، والحواشي المحررة، مثل شرح الحكم العطائية، وشرح السيرة النبوية، وغير ذلك من التآليف المعروفة والموجودة بأيدي الناس.

ثم لما دخلت سنة ثمان وعشرين ومائتين وألف بلغ السلطان ثانياً أن أهل الريف لا زالوا مقيمين على بيع الزرع للنصارى، وأنهم أضافوا إلى بيع الزرع بيع الماشية، وقد كان السلطان منع النصارى من وسق ذلك بالمراسي، فافتات هؤلاء القوم على السلطان وأعطوهم من ذلك ما أرادوا طمعاً في الربح، وكان السلطان قد تقدم إلى القائد محمد السلاوي في كفهم عن ذلك لأنه كان قد ولاه عليهم وأضافهم إلى من كان إلى نظره من أهل الجبل والثغور، فكان لا يلتفت إليهم وربما قبض أهل المروءة منهم على سفلتهم ممن يتعاطى ذلك ويبعثون بهم إليه فيسرحهم على طمع، فاتسع الخرق وصار كلهم يفعل ذلك، ولما تحقق السلطان بفعلهم أمر رؤساء قراصينه أن يذهبوا إلى جهة الريف ومراسيها، وكل من عثروا عليه بها من مراكب النصارى فليأخذوه، فساروا وقبضوا على بعض النصارى فأسروهم ولم يقنعه ذلك حتى أمر بغزو الريف وعزم على النهوض إليهم بنفسه، وأذن في الناس بذلك وجهز العساكر مع القائد محمد السلاوي، ووجه معه ولده المولى إبراهيم بعساكر الثغور، وعرب سفيان وبني مالك، فساروا على طريق الجبل، وخرج السلطان من فاس في السنة المذكورة ومعه السواد الأعظم، فسلك الجادة إلى تازا وكارت حتى نفذ إلى بلاد الريف، فلم يرعهم إلا العساكر محيطة بهم من كل وجه فنهبوهم وحرقوا مداشرهم واستخرجوا

أمراسهم ودفائنهم، وولى السلطان عليهم أحمد بن عبد الصادق الريفي، وتركه في بلادهم في حصة من العسكر يستخلص منهم الأموال وعاد السلطان إلى دار ملكه مؤيداً منصوراً.

## خروج السلطان المولى سليمان إلى بلاد الحوز وتمهيدها ثم دخوله مراكش

كان السلطان المولى سليمان رحمه الله قد ولى على قبائل تامسنا القائد كريران الحريزي، فيقال إنه أساء السيرة فيهم فنبذوا طاعته، وخرجوا عليه، فقدم على السلطان مستصرخاً عليهم فخرج إليهم في العساكر سنة ثلاثين ومائتين وألف، وتقدم إلى جيرانهم من القبائل بأن يزحفوا إليهم من خلفهم ففعلوا، وهجم هو عليهم من أمامهم وأوقع بهم وقعة شنعاء أتلفت موجودهم، وأباحت نساءهم وأولادهم، وفر منهم طائفة فعبروا وادي أم الربيع زمان مدة فهلك جلهم، ثم ترك فيهم عامله في حصة من الجند وأمره باستخلاص الأموال منهم، وتقدم هو إلى ناحية مراكش لقمع أهل الفساد من قبائل الحوز مثل دكالة وعبدة والشياظمة الذين خرجوا أيضاً على عاملهم الحاج محمد بن عبد الصادق صاحب الصويرة، فأصلح من شأنهم وعزله عنهم لما علمه من سوء سيرته فيهم، ونقله من الصويرة إلى مراكش، ثم منها إلى فاس، فولى أخاه أبا العباس أحمد على عسكر القلعة بمراكش وعاد رحمه الله إلى الغرب.

وفي هذه السنة في الثالث عشر من رمضان منها توفي الشيخ العلامة الفقيه الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الحاج الرهوني صاحب الحاشية الكبيرة على مختصر الشيخ خليل وغيرها من التآليف النافعة، والخطب البارعة، وباعه في العلوم خصوصاً الفقه مقرر معلوم رحمه الله ونفعنا به، وفي ليلة الاثنين الخامس عشر من شوال من السنة المذكورة توفي الشيخ العالم العارف الإمام أبو العباس أحمد التجاني

شيخ الطائفة التجانية، وكانت وفاته بفاس المحروسة وضريحه بها شهير عليه بناء حفيل رحمه الله ونفعنا به.

## غزو السلطان المولى سليمان قبائل الصحراء وإيقاعه بآيت عطة والسبب في ذلك

لما كانت سنة إحدى وثلاثين ومائتين وألف بلغ السلطان المولى سليمان أن بعض قبائل الصحراء كعرب الصباح وبرابرة آيت عطه اشتغلوا بالفساد، وعظم ضررهم واستولوا على قصور المخزن التي هنالك من عهد السلطان المولى إسماعيل، فعقد لابنه المولى إبراهيم على جيش كثيف ووجهه إليهم، فسار ونزل أولاً على قصور العرب ونصب عليهم آلة الحرب فبددهم، ثم زاد إلى قصور آيت عطه فنصب عليهم الآلة كذلك وضيق عليهم إلى أن طلبوا الأمان فأمنهم فطلبوا أن يفرج بالجيش عنهم قليلاً حتى يخرجوا بعيالهم خوفاً من معرة الجيش، فأشفق لهم وأفرج عنهم، وكان ذلك مكيدة منهم، فلما نفس عن مخنقهم أدخلوا معهم ما شاؤوا من رجال وسلاح وقوت وتمادوا على الحرب فسقط في يد المولى إبراهيم وحمى أنفه وكان معه جماعة وافرة من أعيانهم رهناً عنده فقتل طائفة منهم، وساق نحو المائة إلى فاس فقتلهم بباب المحروق، ولما أنهى خبر فعلة البربر إلى السلطان عاب على ابنه إفراجه عنهم أولاً وقتل الرهائن ثانياً، ثم إنهم أوفدوا جماعة منهم على السلطان راغبين إليه أن يبقيهم بالقصور، فردهم بالخيبة وقال لهم: لا بد لي من الوصول إلى تلك القصور إن شاء الله حتى تكون لي أولكم، ولما انسلخ رمضان من السنة وأقام سنة عيد الفطر شرع في تجهيز العساكر إلى الصحراء وقمع ظلمة آيت عطه، ثم بعث في مقدمته السواد الأعظم من جيش العبيد وعقد عليهم لوصيفه الأنجب القائد أحمد بن مبارك صاحب الحاتم، وبعث معه الطبجية بالمدافع والمهاريس وآلة الحصار والهدم، فخرجوا من فاس في

زي فاخر وشوكة تامة، وبعد انفصالهم عنها طرأ على السلطان من بعض الثغور البحرية خبر بأن عمارة العدو تروج بالبحر وتجتمع عند جبل طارق ولم ندر إلى أين تريد، فتأخر السلطان عن الخروج حتى يتبين له أمر هذه العمارة، ثم ورد الخبر اليقين بأنها قد قصدت ثغر الجزائر، وأصاب الفرنج من هدم الأبراج وتخريب الدور والمساجد وحرق الأشجار شيئاً كثيراً، لكن لما رجعوا مفلولين مقتولين هان الأمر وصغرت المصيبة، ولما جاء البشير بانهزام الفرنج عن الجزائر قوي عزم السلطان على متابعة من وجه من عسكره إلى الصحراء فخرج في غرة ذي القعدة من السنة المذكورة فيمن تخلف معه من العسكر وقبائل العرب والبربر، وجد السير إلى أن عمر وادي ملوية فلقيه البشير هنالك بخبر الفتح والاستيلاء على القصور، وقتل أهلها وسبيهم ونهب بضائعهم وأمتعتهم، فجد السير إلى أن خيم بأغريس، ومنها كتب إلى القائد أحمد أن يوافيه بالجيش لبلاد فركلة للنزول على القصور الخربات التي بها آيت عطة، فاجتمعوا مع السلطان بها ونصبوا عليها المدافع والمهاريس ودام الرمي عليها ثلاثة أيام حتى كثر الهدم والقتل وعاينوا الموت الأحمر فأرسلوا إلى السلطان النساء والصبيان للشفاعة في الخروج برؤوسهم فأمنهم، ولما جن الليل خرجوا حاملين أولادهم على ظهورهم خوفاً من معرة الجيش، ولما أصبح السلطان أمر بنهب ما في القصور من القوت والمتاع والكراع، وكمل فتح هذه الأماكن التي كانت نقمة لأهل ذلك القطر الصحراوي، ولما منّ الله على السلطان بهذا الفتح شكر صنع الله له بأن فرق على العسكر وقبائل تلك الأقطار ما وسعهم من الخيرات.

قال صاحب الجيش: أعطى الشرفاء مائة ألف مثقال غير ما كان يعطيهم في كل سنة، وقسم رحمه الله ذلك بخط يده فكتب لدار مولاي عبد الله كذا، ولشريفات حموبكة كذا، ولشرفاء تافيلالت كذا، ولشرفاء تيزيمي وأولاد الزهراء كذا، ولشرفاء الرتب كذا، ولشرفاء مدغرة كذا، ولشرفاء زيز

والخنق والقصابي كذا، وأعطى الطلبة والعميان والمقعدين والزمنى وزوايا تافيلالت مائة ألف مثقال قسم ذلك بخط يده أيضاً، وجعل للفقيه المدرس أربعة أسهم، ولغيره سهمين، والسهم من كذا، وللطالب الذي يحفظ القرآن برسمه حتى صفا لوحه سهمان، ولغيره سهم، والسهم من كذا، ولا فرق بين الأحرار والحراطين، ولكل واحد من الضعفاء والعمى والمقعدين كذا الأحرار والحراطين سواء وللزوايا كذا، فلزاوية الشيخ سيدي الغازي كذا، ولزاوية سيدي أبي بكر بن عمر كذا، ولزاوية سيدي أحمد الحبيب كذا، ولزاوية سيدي علي بن عبد الله كذا، ولزاوية ضريح مولانا عليّ الشريف كذا، ولمقبرة أخنسوس كذا، ووجه المال مع الأمين السيد المعطي مرينو الرباطي، وأمر الشرفاء أن يعينوا أربعين من ثقاتهم وأمنائهم حتى لا تقع زيادة فيما كتبه بيده ولا نقصان، وأمر القاضي أن يعين عشرة من الطلبة وعشرة من العوام للقيام على تفرقة ذلك، ثم أعطى المدرسين زيادة على ما تقدم، وكذا الأئمة والمؤذنين، ولم ينس أحداً كل ذلك بخط يده رحمه الله.

قال صاحب الجيش: ولا زال هذا الزمام عندي، ثم بعد قضاء وطره من الزيارة والصلة توجه إلى مراكش على طريق الفائجة لتفقد أحوال جيش الحوز الذي كان وجهه من مراكش لإقليم درعة، فبلغه أثناء الطريق أن آيت عطه الذين بدرعة لما سمعوا بقربه منهم خرجوا من القصور هاربين وتركوها يباباً وتحصنوا بجبل صاغرو، ولما دخل السلطان مراكش سرح العساكر إلى السوس لتفقد أحواله وجباية أمواله وتمهيد أطرافه، وأخذ هو رحمه الله في استصلاح قبائل الحوز من دكالة وعبدة والشياظمة فقتل وعزا وسجن وولى من ولى، وطهر تلك الأعمال من ولاة السوء الذين كانوا بها، وعاد إلى حضرته بفاس، وكان دخوله إليها سنة اثنتين وثلاثين ومائتين وألف، ولما دخلها أخذ في تجهيز ولديه المولى علي والمولى عمر لأداء فريضة الحج إلى أن استوفى الغرض في ذلك، وعين من يتوجه معهما من الخدم والتجار

وسائر الحاشية، وخرجا مع الركب النبوي على الهيئة المعهودة في حفظ الله، وفي هذه السنة عزل السلطان وصيفه ابن عبد الصادق عن فاس وولى عليها كاتبه أبا العباس أحمد الرفاعي الرباطي المدعو القسطالي، كان يعلم أولاده فنقله عن ذلك إلى مرتبة الولاية وأوصاه أن يسير بالعدل في الضعفاء والمساكين، ويشتد على الفجرة والمتمردين، وفي هذه السنة عشية يوم الاثنين سابع ربيع الثاني منها توفي الشيخ العلامة المحقق الأديب البليغ أبو الفيض حمدون بن عبد الرحمٰن بن حمدون بن عبد الرحمٰن السلمي المرداسي الشهير بابن الحاج صاحب التآليف الحسنة، والفوائد المستحسنة، والخطب النافعة، والحكم الجامعة، رحمه الله ونفعنا به.

وفي سنة ثلاث وثلاثين ومائتين وألف عزل السلطان الفقيه أبا العباس عن فاس لعجزه عن القيام بالخطة وولى على فاس خديمه الحاج أبا عبد الله محمد الصفار من بيت رياسة، وفي هذه السنة أبطل السلطان الجهاد في البحر ومنع رؤساءه من القرصنة به على الأجناس، وفرق بعض قراصينه على الإيالات المجاورة مثل الجزائر وطرابلس، وما بقي منها أنزل منها المدافع وغيرها من آلة الحرب وأعرض عن أمر البحر رأساً بعد أن كانت قراصين المغرب أكثر وأحسن من قراصين صاحب الجزائر وتونس، قاله منويل، وفي هذه السنة قدم ولدا السلطان المولى علي والمولى عمر من المشرق مع الركب ونزلوا بثغر طنجة، وكان السلطان قد بعث إليهما بمركب من مراكب النجليز فانتهى إلى الإسكندرية وحملهما ومن معهما من الخدم والتجار وسائر الحاج، ولما نزلوا بطنجة حدث الوباء بالمغرب فقال الناس: إن ذلك بسببهم، فانتشر أولاً بتلك السواحل ومنها شاع في الحواضر والبوادي إلى أن بلغ فاساً ومكناسة في بقية العام.

ولما دخلت سنة أربع وثلاثين ومائتين وألف شاع الوباء وكثر في بلاد الغرب فتوجه السلطان إلى مراكش وكان الأمر لا زال محتملاً، ثم زاد

وتفاحش حتى أصاب الناس منه أمر عظيم، وفي هذا الوباء توفي الشيخ المرابط البركة سيدي العربي ابن الولي الأشهر سيدي المعطى بن الصالح الشرقاوي، وضريحه شهير بأبي الجعد رحمه الله ونفعنا به وأسلافه آمين.

## وقعة ظيان وما جرى فيها على السلطان المولى سليمان رحمه الله

لما وصل السلطان رحمه الله إلى مراكش سنة أربع وثلاثين ومائتين وألف، أقام بها إلى رجب منها ثم أخذ في الاستعداد لغزو برابرة فازاز، وهم آيت ومالو بطن من صنهاجة،وعرفت الوقعة بوقعة ظيان فخذ منهم، فحشد السلطان رحمه الله عرب الحوز كلهم وكتب إلى العبيد بمكناسة يأمرهم أن يوافوه بتادلا، وكتب إلى ولده وخليفته بفاس المولى إبراهيم أن يوافيه بها بجيش الودايا وشراقة وعرب الغرب وبرابرته وعسكر الثغور، وكان الناس يومئذٍ في شدة من هذا الوباء الذي عم الحواضر والبوادي، وكان السلطان لما أخذ في استنفار هذه القبائل لا علم له بتفاحش الوباء بالمغرب، وكان الواجب على ابن السلطان أن يعلم أباه بما الناس فيه من فتنة الوباء فيعفيهم من الغزو أو يؤخره إلى يوم ما، فجمع ولد السلطان الجموع وجلهم كاره، وسار لميعاد أبيه فوافاه بتادلا، فاجتمع للسلطان فيما يقال من الجيوش نحو ستين ألفاً وزحف إلى البربر فانتهى إلى بسيط آدخسان وبها مزارع البربر وفدنها، فأرسل السلطان الجيوش في تلك الزروع وكانت شيئاً كثيراً فأتوا عليها، وبعث البربر إليه بنسائهم وولدانهم للشفاعة وأن يدفعوا للسلطان كل ما يأمرهم به من المال وينصرف عنهم فأبى، وزحف إليهم فقاتلهم يوماً إلى الليل، ولقد أخبرني من حضر الوقعة أن المقاتلة كانت في هذا اليوم من عرب الغرب ومن برابرة زمور وجروان وآيت أدراسن، إلا أن القتل استحر في العرب دون البربر، وذلك أن كبير زمور الحاج محمد بن الغازي دس إلى

ظيان بأنما نحن وأنتم واحد، فإذا كان اللقاء فلا ترمونا ولا نرميكم إلا بالبارود وحده، وذلك أن السلطان لما قدمهم للقتال في أول يوم منه وأخر عرب الحوز استرابوا بأنه إنما أراد أن يصدم بعضهم ببعض، وتسلم له العرب ففعل ابن الغازي ما فعل، ولما راح مقاتلة العرب مع العشي أخبروا السلطان بأن هؤلاء البربر الذين معه لا أمان فيهم وإنما ظلوا يترامون بالبارود لا غير، ولأجل ذلك قد هلك من إخواننا كثير ولم يهلك منهم أحد، فأسرها السلطان في نفسه ولم يبدها لهم، ولما كان الغد وركب الناس للقتال أرسل إلى البربر أن لا يركب منهم أحد وقال لهم: إني أردت أن أجرب العرب اليوم وأختبر فائدتهم، فأظهروا الطاعة وتقدم العرب إلى القتال وأقام البربر في أخبيتهم إلى منتصف النهار، ثم ركبوا خيولهم وتسابقوا إليها عن آخرهم، قال المخبر بهذا الخبر: شاهدتهم ساعة ركبوا فكنت لا ألتفت إلى جهة إلا رأيتها حمراء من كثرة سروجهم التي كانت على ظهور الخيل إذ ذاك، ثم تصايحت البربر فيما بينها وتقدمت براياتها إلى الجهة التي فيها القتال وأتوا من خلف العرب الذين كانوا في نحر العدو وهم يتصايحون فلم يردهم إلا صياح البربر من خلفهم وراياتهم قد أطلت عليهم من كل جهة وكانت شيئاً كثيراً، فظنوا أن ظيان قد التحفتهم من خلفهم فخشعت نفوسهم وفشلوا ورجعوا منهزمين لا يلوي حميم على حميم، فأخذتهم البربر من بين أيديهم ومن خلفهم يقتلون ويسلبون، وحصل انزعاج كبير في المحلة وتمت الهزيمة عليها، ولم يبق بها إلا جيش الودايا والعبيد، هكذا أخبرني من شاهد هذه الوقعة ممن يوثق به.

وساق صاحب الجيش الخبر عنها بأن قال: كان انخذال برابرة زمور برأي كبيرهم الحاج محمد بن الغازي، وكانت له وجاهة في الدولة وكان الحسن بن حمو واعزيز كبير آيت أدراسن يساميه في المنزلة، ولما خرج المولى إبراهيم بن السلطان في هذه الغزوة كان ابن واعزيز قد حظي لديه حتى صار من أخص ندمائه، فنفس ابن الغازي عليه ذلك ودبر بأن جر

الهزيمة على الجيش أجمع، فإنه أظهر الفرار وقت اللقاء حتى سرى الفشل في الناس وانهزموا، ثم عطفت البرابر مع العشي على محلة السلطان فشرعوا في نهبها وأحاط عسكر العبيد بها من كل جهة، وصاروا يقاتلون البربر على أطراف الأخبية، ولما أقبل المساء ترك العبيد الأخبية وأرزوا إلى أفراك السلطان، وصار القتال على أفراك إلى وقت العشاء فهلك من العبيد خلق كثير وصار القتال بالسيوف والرماح، وما زال أصحاب السلطان يترسون عليه بأنفسهم حتى عجزوا عن الدفاع، وخلص البربر إلى السلطان وأراد رجل منهم يقال إنه من بني مكيلد أن يجرده فأعلمه بأنه السلطان، فاستحلفه البربري فحلف له، فنزل عن فرسه وأركبه وطار به إلى خيمته، وكان البربر يلقونه وهو ذاهب به فيقولون: من هذا الذي معك فيقول: أخي أصابته جراحة، ولما وصل به إلى خيمته أعلن بأنه السلطان فأقبلت نساء الحي من كل جهة يفرحن ويضربن بالدفوف، ثم جعلن يتمسحن بأطرافه تبركاً به وينظرون إليه إعجاباً به حتى أضجرنه، ولما جاء رجال الحي أعظموا حلوله بين أظهرهم وأجلوه، وسعوا فيما يرضيه ويلائمه من وطاء ومطعم ومشرب بكل ما قدروا عليه، فلم يقر له قرار معهم، ويقال إنه بقي عندهم ثلاثاً لا يأكل ولا يشرب أسفاً على ما أصابه، إلا أنه كان يسد رمقة بشيء من الحليب والتمر، وتنصل البربر له مما شجر بينهم وبينه وأظهروا له غاية الخضوع والاستكانة حتى أنهم كتفوا نساءهم وقدموهن إليه مستشفعين بهن على عادتهم في ذلك، وبعد ثلاث أركبوه وقدموا به في جماعة من الخيل إلى قصبة آكراي فنزلوا به قريباً منها، وبعث رحمه الله إلى مكناسة يعلم الجيش بمكانه، فجاؤوه مسرعين، ودخل مكناسة بعد أن أحسن إلى ذلك الفتى البربري وإلى جميع أهل حيه غاية الإحسان، وأمر رحمه الله أن يعطى لكل من أتى سليباً من المنهزمين حائك وثلاثون أوقية، ففرق من ذلك شيئاً كثيراً بباب منصور العلج من مكناسة، وأصيب المولى إبراهيم ابن السلطان في هذه

الوقعة بجراحات معظمها في رأسه فحمل جريحاً إلى فاس فمات بها، وكانت مصيبته على السلطان أعظم مما أصابه في نفسه والأمر لله وحده.

قال صاحب الجيش: كان السلطان الحازم سيدي محمد بن عبد الله لا يرد الشفاعة في مثل هذا المقام وربما دس إلى من يظهر ذلك صورة حتى يكون نهوضه عن عز وذلك من حسن سياسته، وكانت هذه الوقعة الفادحة سبب سقوط هيبة السلطان المولى سليمان من قلوب الرعية فلم يمتثل له بعدها أمر في عصاتها حتى لقي الله تعالى.

ولما دخلت سنة خمس وثلاثين ومائتين وألف كثر عيث البربر وإفسادهم السابلة، واستحوذوا على مزارع مكناسة ومسارحها، فنصب لهم السلطان رحمه الله حبالة الطمع وكادهم بها بأن صار كلما وفد عليه جماعة منهم كساها وأحسن إليها، فتسامعوا بذلك فقادهم الطمع إلى أن وفد عليه منهم في مرة واحدة سبعمائة فارس من أعيانهم فقبض عليهم وجردهم من الخيل والسلاح وأودعهم السجن، ثم أمر بالقبض على كل من وجد منهم بسوق مكناسة وصفرو فقبض بصفرو على نحو الثلاثمائة من آيت يوسي، وقامت بسبب ذلك فتنة البربر على ساق، فإنهم امتعضوا لمن قبض عليه من إخوانهم وزحفوا إلى مكناسة وحاصروها وجاؤوا معهم بدجالهم أبي بكر مهاوش وتحزبوا وصاروا يداً واحدة على كل من يتكلم بالعربية بالمغرب وكان مهاوش في هذه الأيام قد أمر أمره لأنه لما عزم السلطان على غزوهم كان يعدهم بأن الظهور يكون لهم، فلما صدق عليهم ظنه اعتقدوه وافتتنوا به وزحفوا إلى مكناسة فضيقوا على السلطان بها، فجعل رحمه الله يعالج أمرهم بالحرب تارة والسلم أخرى إلى أن طلبوا منه أن يسرح لهم إخوانهم ويرجعوا إلى الطاعة والدخول في الجماعة، فسرحهم لهم على يد المرابط أبي محمد عبد الله بن حمزة العياشي، فلما ظفروا بإخوانهم نقضوا العهد الذي أخذ عليهم المرابط المذكور وعادوا إلى العيث وإفساد السابلة، ثم تبعهم على

ذلك قبائل العرب واختلط الحابل بالنابل واشتد الأمر وبلغ الحزام الطبيين ولله در العلامة أبي مروان عبد الملك التاجموعتي إذ يقول:

هم البرابر لا ترجو نوالهم وسل من الله تعجيل النوى لهم
لا بلغ الله قلباً منهم أملاً وبلغ الله قلبي ما نوى لهم

ثم لما سقطت هيبة السلطان وزال وقعه من القلوب سرى فساد القبائل إلى الجند، فإن العبيد عادوا على كبيرهم القائد أحمد بن مبارك صاحب الخاتم فقتلوه افتياتاً على السلطان، مع أنه كان من أخص دولته لنجابته وكفايته وديانته، واعتماد السلطان عليه في سائر مهماته، ولما قتلوه اعتذروا للسلطان بأعذار كاذبة فقبل ظاهر عذرهم وطوى لهم على البت.

قال أكنسوس: كان القائد أحمد وأبواه وإخوته قد أعطاهم السلطان سيدي محمد بن عبد الله لابنه المولى سليمان، فنشأ القائد أحمد في كفالته وتخلق بأخلاقه من زمن الصبا إلى مماته، وكانت حياته مقرونة بسعادة السلطان العادل المولى سليمان، فإنه من يوم قتل رحمه الله سنة خمس وثلاثين ومائتين وألف لم يلتئم شمل المملكة حتى توفي السلطان المذكور.

## ذكر آل مهاوش وأوليتهم وما آل إليه أمرهم

أما الذي كان منهم في دولة السلطان سيدي محمد بن عبد الله فاسمه محمد وناصر، والواو في لغة البربر بمعنى ابن، وكان والده مرابطاً من آيت مهاوش، فرقة من آيت سخمان منهم، وكان جده أبو بكر من أتباع الشيخ أبي العباس سيدي أحمد بن ناصر الدرعي رحمه الله، وكان الشيخ المذكور قد جرى في مجلسه يوماً ذكر الدجال فقال الشيخ: لا يخرج الدجال حتى تخرج دجاجيل من جملتهم مهاوش، ومعناه من جملتهم ولد هذا الرجل، فكان الأمر كذلك فإنه لما شب محمد وناصر قرأ القرآن والعربية والفقه وحصل على طرف من علم الشريعة، ثم تنسك وتزهد ولبس الخشن فيقال إنه حصل

له نوع من الكشف شاع به خبره عند البربر، وأكبوا عليه. واشتهر أمره أيام السلطان سيدي محمد بن عبد الله، ولما انتهى إليه أمره نهض إلى قبيلة جروان الذين كانوا يخدمونه فنهبهم بسببه، وفر مهاوش إلى رؤوس الجبال، وبقي مختفياً إلى أن بويع السلطان المولى يزيد رحمه الله، وكان قد اتصل بمهاوش قبل ولايته وذلك حين فر من والده ولجأ إليه حسبما مر، فآواه مهاوش وأحسن إليه.

ولما بويع السلطان المذكور وفد عليه مهاوش في جماعة من قومه ففرح بهم المولى يزيد، وأعطى مهاوش عشرة آلاف ريال، وأعطى الذين قدموا معه مائة ألف ريال، ولما هلك محمد وناصر هذا ترك عدة أولاد أكبرهم أبو بكر ومحمد والحسن، إلا أنهم تبعوا سيرة أبيهم في مجرد التدجيل والتمويه على جهلة البربر وتثبيطهم على طاعة السلطان، ولم يكن معهم ما كان مع والدهم من التظاهر بالخير والدين، فأمر أمرهم عند أهل جبل فازاز واعتقدوهم ووقفوا عند إشارتهم، ثم لما جاءت دولة السلطان المولى سليمان رحمه الله، واتفقت له الهزيمة التي مر ذكرها وامتلأت أيدي البربر من خيل المخزن وسلاحه وأثاث الجند وفرشه بطروا وظهر لهم إن ذلك إنما نالوه ببركة مهاوش، لأنه كان يعدهم بشيء من ذلك، فتمكن ناموسه من قلوبهم واستحكمت طاعتهم له وتمردوا على السلطان بسبب ما كانوا يسمعون منه، إلا أن كيده كان قاصراً على أهل لسانه ووطنه، لا يتعداهم إلى غيرهم، ثم بعد ذلك بزمان انطفأ ذباله ولم يزل في انتقاص إلى الآن، والله غالب على أمره.

## حدوث الفتنة بفاس وقيامهم على عاملهم الصفار

لما توالت هذه الفتن على السلطان رحمه الله وانفتقت عليه الفتوق وصار الناس كأنهم فوضى لا سلطان لهم، قام عامة أهل فاس على عاملهم الحاج محمد الصفار، فأرادوا عزله وتعصبت له طائفة من أهل عدوته وافترقت

الكلمة بفاس حتى أدى ذلك إلى الحرب وسفك الدماء ونهب الدكاكين، وتراموا بالرصاص من أعلى منار مسجد الرصيف، وبلغ ذلك السلطان وهو يومئذٍ بمكناسة يعالج داء البربر فزاده ذلك وهناً على وهن، فكتب إلى أهل فاس كتاباً شحنه بالوعظ والعتب وأمر ابنه المولى عليّاً أن يقرأه عليهم، فجمعهم وقرأه عليهم حتى سمعوه وفهموه، ونص الكتاب المذكور: بسم الله الرحمٰن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم، إلى أهل فاس السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد، فإن العثماني بإصطنبول وأمره ممتثل بتلمسان والهند واليمن وما رأوه قط ولكن أمر الله يمتثلون، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن﴾ [النساء:59] وكان صلى الله عليه وسلم لا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح واعلموا أن العمال ثلاثة، عامل أكل السحت وأطعمه الغوغاء والسفلة، وعامل لم يأكل ولم يطعم غيره انتصف من الظالم، وعامل أكل وحده ولم يطعم غيره، فالأول تحبه العامة والسفلة ويبغضه الله والسلطان والصالحون، والثاني يحبه الله ويكفيه ما أهمه من أمر السلطان، والثالث كعمال اليوم يأكل وحده ويمنع رفده ولا ينصر المظلوم فهذا يبغضه الله ورسوله والسلطان والناس أجمعون، وهذا معنى حديث «**ازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس**. . .» الخ. وحديث العمال ثلاثة الخ. فلو كان للصفار مائدة خمر وطعام يأخذه من الأسواق، ويتغدى عنده ويتعشى السفلة والفساق، ويدعو اليوم ابن كيران، وغدا ابن شقرون، وبعده بنيس وابن جلون، ويفرق عليهم من الذعائر لأحبوه وما قاموا عليه، ولو أردتم النصيحة لله ولرسوله ولأميره لقدم علينا ثلاثة منكم أو ذكرتم ذلك لولدنا مولاي عليّ أصلحه الله فأخبرنا بذلك، وقل للصفار: الكلاب لا تتهارش إلى على الطعام والجيف، فإذا رأت كلباً بباب دار سيده ولا شيء أمامه لم تعرج عليه، وإن رأته يأكل فإن هو تعامى وأشركهم فيما يأكل أكلوا معه وسكتوا، وإن هو قطب وجهه وكشر عن أنيابه تراموا عليه وغلبوه على ما في يده، وهذا الصفار لم يتق الله ويزهد الزهد الذي ينصره الله به، ولم يلاق الناس بوجه طلق ويطرف مما يأكله فسلطهم

الله عليه، ولما رأى يوسف بن تاشفين النعمة التي فيها ابن عباد قال: أكل أصحابه وأعوانه مثله؟ فقالوا: لا. فقال: إنهم يبغضونه ويسلمونه للمكاره لاستبداده دونهم، ولتغيير المنكر شروط وما يعقلها إلا العالمون، وكم من مرة قلنا لكم العلماء هم ينكرون ما ينكر ويعلموننا بما كان، ولكن الجلوس بلا شغل، والفراغ وعدم الحمد حملكم على ما يحرم عليكم الكلام فيه.

إن الشباب والفراغ والجده    مفسدة للمرء أي مفسدة

وأما بيت مال الله والأحباس فالله حسيب من بدل، وقد كنتم تتكلمون على المكس والحرير والقشينية وغير ذلك فأرى حكم الله من ذلك، وانظروا لمن تعرفونه من العمال، وأما الفسق فهو عادة وديدن كل من قام في الفتنة وكم مرة رمت قطعه فلم أجد إليه سبيلاً، لأن جل كبرائكم بالمصاري والعرصات، وإنما أولي عليكم البراني لأنكم لا تحسدونه وإن أكل وحده، والحاسد يريد زوال النعمة عن محسوده، والتجار لأن التاجر لا يطمع في مال أحد، ويكفيه الرفعة والجاه لنماء ماله، وانظروا ما أجبتكم به وما كتبتم لنا به واعرضوه على فقهائكم، فمن قال الحق منا ومن قال الباطل، أخذتم بحظكم من الفتن اهـ.

وهذه الرسالة قد شرحها الفقيه أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد الكريم اليازغي، وكان أهل فاس قد كتبوا إلى السلطان رحمه الله في شأن عاملهم الصفار المذكور واعتذروا عن خروجهم عليه بأنه اشتغل بما لا يرضي الله من الفسق، ومد اليد إلى الحريم، فأنكروا عليه فأجاب السلطان رحمه الله بالرسالة المذكورة.

## خروج السلطان المولى سليمان من مكناسة إلى فاس وما لقي من سفهاء البربر في طريقه إليها

قد تقدم لنا أن البربر طلبوا من السلطان تسريح إخوانهم وأنه بذلك

تصلح أحوالهم ويراجعون الطاعة، ولما سرحهم نكثوا العهد وازدادوا تمرداً فلما أعيا السلطان أمرهم وكل أمرهم إلى الله وعزم على الخروج من مكناسة إلى فاس، لما حدث بها من الشغب أيضاً، فولى على مكناسة، وجند العبيد ولده المولى الحسن، وكان له علم وحزم، ثم خرج السلطان رحمه الله من مكناسة ليلاً على خطر عظيم، وأسرى ليلته ولم يعلم البربر بخروجه حتى أصبح وقد جاوز المهدومة وشارف وادي النجاة، فتبعوه على الصعب والذلول ونهبوا كل من تخلف من الجيش واستولوا على كثير من روام السلطان، وكان مع السلطان في تلك الليلة المرابط البركة أبو محمد عبد الله بن حمزة العياشي، فجعل يكف البربر عن الجيش فلم يغن شيئاً لأنه كان كلما كفهم من ناحية أغاروا من ناحية أخرى، وخلص السلطان إلى فاس وقد ازداد حنقه على البربر، فلما دخلها أمر بنهب دور البربر القاطنين بفاس فنهبوا كل من فيه رائحة البربرية ولو قديماً، فكان ذلك فتنة في الأرض وفساداً كبيراً، وأقام السلطان بفاس إلى رجب من السنة المذكورة أعني سنة خمس وثلاثين ومائتين وألف، ثم خرج لإصلاح نواحي بلاد الهبط فوصل في خرجته هذه إلى قصر كتامة فمهد تلك البلاد وأمن سبلها، ورجع إلى رباط الفتح فقدم عليه بها قبائل الحوز على بكرة أبيهم من حاحا والشياظمة وعبدة والرحامنة وأهل السوس والسراغنة وزمران وأهل دكالة وقبائل الشاوية وتادلا، وقدم عليه أيضاً قبائل بني حسن وعبيد الديوان، وقبض في هذه المرة على نحو المائة من زعير وأودعهم السجن، ودخل شهر رمضان ففرق عمال القبائل كلاً إلى عمله، وأمرهم بالقدوم عليه لعيد الفطر ويستصحبوا زكواتهم وأعشارهم، وكان قد عزم على المقام برباط الفتح إلى أن يقيم سنة العيد به، وتجتمع عليه العساكر فيتوجه بها لغزو البربر، ثم بدا له رحمه الله فسافر مع قبائل الحوز إلى مراكش في عاشر رمضان المذكور.

# ذكر ما حدث من الفتن بفاس وأعمالها بعد سفر السلطان المولى سليمان إلى مراكش

لما عزم السلطان المولى سليمان رحمه الله على السفر إلى مراكش ندب جند العبيد إلى السفر معه فتثاقلوا عليه، وظهر منهم قلة المبالاة به وأحس منهم بذلك فأعرض عنهم، وبعد يوم أو يومين انسل من بين أظهرهم وقصد محلة أهل الحوز، فدخل قبة القائد محمد بن الجيلاني ولد محمد الصغير السرغيني وكان السلطان يطمئن إليه منذ كان رفيقه في نكبته عند ظيان إذا كان ابن الجيلاني المذكور مأسوراً عندهم وسرحوه للسلطان فرافقه إلى مكناسة حسبما مر، ولما احتل السلطان بمحلة أهل الحوز ازداد فساد نية العبيد، وسافر السلطان إلى مراكش وترك مضاربه وأثاثه بيدهم فتوزعوها وعادوا إلى مكناسة وسمع الناس بما ارتكبه هؤلاء العبيد في حق السلطان، فعاد شباب الفتنة إلى عنفوانه، وسرى في الحواضر والبوادي سم أفعوانه، فخب عبيد مكناسة بعد قدوم إخوانهم عليهم في الفتنة ووضعوا وامتنع عمال الغرب وبني حسن من دفع الزكوات والأعشار، وطردوا جباة السلطان وعمد الودايا بفاس إلى حارة اليهود التي بين أظهرهم بفاس الجديد فانتهبوها واستصفوا موجودها، وأخذوا ما كان تحت أيدي اليهود من كتان وحرير وفضة، وذهب لتجار أهل فاس إذ كانوا يخيطون لهم ويصنعون ما تدعو الحاجة إلى خياطته وصنعته فضاعت في ذلك أموال لا يحصيها قلم حاسب، ثم جردوهم رجالاً ونساء وسبوا نساءهم، وافتضوا أبكارهم، وسفكوا دماءهم، وشربوا الخمور في نهار رمضان، وقتلوا الأطفال ازدحاماً على النهب، ثم تجاوزوا هذا كله إلى حفر البيوت على الدفائن، فوقعوا بسبب ذلك على أموال طائلة، ولما رأوا ذلك قبضوا على أعيانهم وتجارهم وصادروهم بالضرب والنكال ليدلوهم على ما دفنوه من المال، ومن عنده يهودية حسناء حالوا بينه وبينها حتى يفتديها بالمال، وكان هذا الحادث العظيم في الثالث عشر من رمضان سنة

خمس وثلاثين ومائتين وألف، ولما فرغوا من اليهود التفتوا إلى أهل فاس فاستاقوا السرح وبهائم الحرث والجنات، ومنعوا الداخل والخارج، فقام بفاس هرج عظيم وغلقوا الأبواب ومالوا على من وجدوه من الودايا داخل البلد فأوقعوا بهم ونهبوهم، وحمل الناس السلاح ونقلت البضائع والسلع من الأسواق إلى الدور خوفاً عليها، واجتمع أهل الحل والعقد منهم فعينوا من يقوم بأمرهم فقدم اللمطيون رجلاً منهم يقال له الحاج أحمد الحارثي، وقدم أهل العدوة رجلاً منهم يقال له قدور المقرف، وقدم أهل الأندلس رجلاً منهم يقال له عبد الرحمٰن بن فارس، فضبطوا البلد، وبينما هم كذلك قدم عليهم جماعة من أعيان الودايا وتلافوا أمرهم معهم والتزموا رد ما نهبوه لهم من السرح وما نهب في جملة أموال اليهود مما كان يصنع عندهم، فخمدت بذلك نار الفتنة بعض الشيء، وقد قال أدباء الوقت في هذا الخطب الذي اتفق في هذه المدة جملة من الأشعار، من ذلك قول الكاتب البارع أبي عبد الله محمد بن إدريس الفاسي:

أعين العين للمحبين داء — والدوا في شفاهها والشفاء
فإذا ما رمين سهماً لصب — فالهوى قد هوى به والهواء
كيف يعدل نحو رأيي عذول — من رمته ظبي اللحاظ الظباء
سعد ساعد أخا الغرام بقرب — من سعاد فقد عناه العناء
زارني ضيف طيفها فشجاني — وسرى الطيف للمحب حباء
هب شوقي أذهب نشر كباها — وعرتني من ذكرها العرواء
فسقى عهدها العهاد وحيا — الملك العادل الحياء الحياء
ليس إلا أبا الربيع ربيع — خلقه الجود والجدي والوفاء
بسليمان قد سلمنا وسدنا — فالعلي منزل له والعلاء
ملك ملك العلا والمعالي — وسما فله الفخار سماء
غرة المجد درة العقد من قد — راق من فضله السنا والسناء
نجل خير الورى وأفضل من قد — نبأت بظهوره الأنبياء

مـن إذا رجـاه راجٍ لـنـول    قبل حل الحبى أتاه الحباء
خـلـق دمـث وخـلـق بـهـي    مـن ذكـي نـوره تـغـار ذكـاء
كـفـه كـفـت الـفـسـاد وكـفـت    كـل عـاد فـمـا لـه أكـفـاء
راحـة راحـة لـكـل فـقـيـر    بـحـيـاء تـحـيـا بـه الأحـيـاء
روضـة راضـت الـعـلـوم ولـكـن    عـرفـهـا الـعـرف والـثـراء الـثـنـاء
قـد روى فـضـلـه الأفـاضـل طـرّاً    فـعـلـى الـفـضـل والـرواة رواء
لأبي الـقـاسـم الـظـيـاني لـديـهـم    فـضـل سـبـق لـه عـلا وعـلاء
جمع الوصف أحكم الرصف صدقاً    وأتـاه الإنـشـاء كـيـف يـشـاء
صـالـح نـاصـح أمـيـن رصـيـن    قـد ثـنـاه إلـى عـلاك الـسـنـاء
كيف لا يحسن السناء ويسمو    فـي إمـام لـه الـمـعـالـي رداء
إنـمـا هـو مـعـجـز مـسـتـقـل    يـقـتـدي بـفـعـالـه الـعـقـلاء
بسط العدل في البسيطة فالديـ    ـن لـه بـسـطـة بـه وارتـقـاء
وغـدا بـإقـامـة الـديـن فـالـغـر    ب غـريـبـاً أنـصـاره الـغـربـاء
لم يجد في البرابر الغلف برّاً    شـأنـه الـبـر فـي الـبـدا والـبـراء
نقضوا العهد خالفوا الأمر والنهـ    ـي إلا إنـهـم هـم الـسـفـهـاء
خالفوا منتقى الخلائق جهلاً    بـعـمـاهـم فـلا عـداهـم عـمـاء
عـادة فـي جـدودهـم جـددوهـا    لـهـم الـدهـر الارتـداد، رداء
قـد دعـاهـم مـهـاوش لـضـلال    فـعـلـيـهـم وبـالـهـم والـوبـاء
شق جهلاً عصا الإمام شقاقاً    وعـصـى الله لا هـنـاه الـهـنـاء
واقـتـفـى أثـرهـم الـغـواة ضـلالاً    فـغـبـاهـم مـا أن عـلـيـه غـبـاء
وإذا خـبـثـت أصـول فـروع    لاح مـن فـعـلـهـم عـلـيـه لـواء
وكذا العرب أعربوا عن مساو    فـهـم فـي سـوى الـخـروج سـواء
نافقوا رافقوا الخبيثين كفراً    هـمـزوا لـمـزوا فـلـيـس بـراء
والـودايـا جـاؤوا بـادوء عـيـب    داؤهـم مـا لـه الـزمـان دواء
قـتـلـوا سـلـبـوا أخـافـوا وحـافـوا    مـا ثـنـاهـم عـن الـقـبـيـح ثـنـاء
مـا رعـوا ذمـة ولا فـعـل ذم    بـل عـراهـم مـن الـحـيـاء عـراء

وإمام الأنام يحلهم عنهم ويوالي وما يفيد الولاء
نهبوا حارة اليهود وهدوا دورهم وعرى النساء سباء
لو تراهم بين الرعايا عراة يحتذيهم رجالهم والنساء
خفروا ذمة النبي فنموا لعماء فلا سقاهم عماء
يا إمام الهدى عليك بقوم ملأ الغرب بغيهم والبغاء
قد طم ظلمهم وعم أذاهم وانجلى عنهم فحق الجلاء
كم سدلت عليهم أي ستر ووهبت فما أفاد العطاء
وحدوت إلى الرشاد فحادوا ودعوت فما أفاد الدعاء
نلت رشداً برشدهم وجهاداً فأبى منهم الرشاد إباء
وإذا خذل الإله أناساً من محياهم يزول الحياء
فعبيد الإله خير عبيد قد كفى منهم الإمام كفاء
حاربوا ضاربوا على الحق راعوا ذمة الله لا علاهم علاء
فاتخذهم مواليا وجنوداً واصطفيهم فإنهم أصفياء
قد أصاب الأعادي منهم عذاب ودهى منهم الدهاة دهاء
وإذا سخر الإله أناساً لسعيد فإنهم سعداء
يا إله الأنام خذ بيديه وأعنه فقد عناه العناء
فينام الأنام في ظل أمن ورداه للماردين رداء
وعليه السلام ما سار سار وشدت فوق ورقها الورقاء

ثم حدث على تفئة ذلك فتنة أخرى بفاس بسبب نزاع جرى بين قاضيها الفقيه أبي الفضل عباس بن أحمد التاودي، وبين مفتيها الفقيه أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الدكالي، في قضية الشريفين الشفشاوني والعراقي من أهل فاس، وهي معلومة فأنهى الأمر إلى السلطان فأخر الفقيه أبا عبد الله عن الفتوى فغضب للمفتي جماعة من المدرسين وطلبة العلم وتعصبوا له، وتحزبوا على القاضي، فكتبوا رسماً يتضمن الشهادة بجوره وجهله ووضعوا خطوطهم وناطوا به قصيدة تتضمن الشكوى به وشرح حاله للسلطان، ووجهوا بهما إليه ونص القصيدة:

يا أيها الملك الذي عدالته أحيت مآثرها الصديق أو عمرا
يا أيها الملك الذي مناقبه في غرة الدهر قد لاحت لنا قمرا
أنت الذي وضع الأشياء موضعها وفي العلوم الذي أحيا الذي اندثرا
أنت الذي صير الدين القويم كما أوصى به من سما الأملاك والبشرا
ولم يزل بك في عز وفي حرم يجني ذوو العلم من رياضه ثمرا
تذب عنه بأسياف وآونة بفكرة تحكم الأحكام والصورا
ومن يرم هدمه تأخذه صاعقة من راحتيك فلا تبقى له أثرا
وقد شكا الدين من هضم ومن كمد أصابه فهو يبكي الدمع منهمرا
سطت عليه يد القاضي الذي غمرت أقضية الجور منه البدو والحضرا
أعفى مراسمه جوراً وأبدله جهلاً بما يذهب الألباب والفكرا
جاء الولاية وهو من شبيبته يرى القضا حرفة يجني بها وطرا
فلم يكن همه فيه سوى قنص أو نخوة تترك الضعيف منكسرا
أما حقوق الورى فإنها عدم مجهولة جعلت منبوذة بعرا
فاستنقذت ملة المختار جدك من هذا الذي ما درى ورداً ولا صدرا
يأتي الحكومة عباساً ومنقبضاً مما به من سقام يجلب الكدرا
فلا يرى أرسم الخصمين من ملل لكن يحكم أوهاماً بها جهرا
ويستبد برأيه وحيث بدت فتوى تبصره ألقى بها حجرا
ولا يمكن خصماً قد دعاه إلى تسجيله ما رأى في الحكم معتبرا
ملت قلوب الورى منه وليس لهم إلاك يا من به الإسلام قد نصرا
ضجوا لعزتكم يشكون سيرته بعبرة تترك الفؤاد منفطرا
فأدركن يا عماد الدين صارمه رعية ترتجي من حلمكم مطرا
فأنزلنه لقد طغى بعزته ولم يخف في غد لظى ولا سقرا
واصرفه عنهم كصرفه ضعيفهم واعزله عزلاً فإن الأمر قد أمرا
فأنت غيثهم إن أزمة أزمت وأنت كهفهم إن حادث ظهرا

ولما وصل الرسم والقصيدة إلى السلطان رأى أن ذلك من التعصب الذي يحدث بين الأقران فرفضه لكمال أناته وعقله، ولم يقبل شهادة عالم

على مثله، فلما رأوا أن السلطان لم يساعدهم هجموا على القاضي وهو بمجلس حكمه وأرادوا قتله، وسدد نحوه الشريف أبو عبد الله محمد الطاهر الكتاني كابوساً أخرجه فيه فأخطأه، فانزعج القاضي ولزم بيته وقدموا مكانه الفقيه أبا عبد الله محمد بن عبد الرحمٰن الدلائي، ثم عزلوه وولوا مكانه الفقيه أبا عبد الله محمد العربي بن أحمد الزرهوني فكانت عاقبة أمره أنه لما أفضى الأمر إلى السلطان المولى عبد الرحمٰن بن هشام رحمه الله نفاه إلى الصويرة والله تعالى أعلم.

## خروج أهل فاس على السلطان المولى سليمان وبيعتهم للولي إبراهيم بن يزيد والسبب في ذلك

لما استمر السلطان المولى سليمان رحمه الله مقيماً بمراكش والفتن بفاس وسائر بلاد الغرب قد تجاوزت مداها، وعم أذاها، ورفعت الشكايات إليه من فاس وغيرها بما الناس فيه من الكرب العظيم، والخطب الجسيم، كتب رحمه الله بخط يده كتاباً إلى أهل فاس يرشدهم إلى ما فيه صلاحهم من حلف البربر والاعتماد عليهم في حراسة بلادهم وسائر مرافقهم كما كانوا قديماً أيام الفترة في دولة السلطان المولى عبد الله إلى أن يفرغ من شأن الحوز ويقدم عليهم، هكذا زعم صاحب البستان.

قال أكنسوس: كان مراد السلطان بذلك الكتاب تهييج أهل فاس على التمسك بطاعته وترغيبهم في محبته ونصرته، وقد فعل مثل ذلك بمراكش، فإنه جمع أعيانها وأعيان الرحامنة عقب صلاة الجمعة وقال لهم: «قد رأيتم ما جرت به الأقدار من فساد قلوب الرعية وتمادي القبائل على الغي والفساد، ومن يوم رجعنا من وقعة ظيان ونحن نعالج أمر الناس فلم يزدادوا إلا فساداً، وقد جرى على الملوك المتقدمين أكثر من هذا فلم ينقصهم ذلك عند رعيتهم بل قاموا معهم وأعانوهم على أهل الفساد حتى أصلحوهم، وإني قد عجزت

بشهادة الله لأني ما وجدت معيناً على الحق، وكم مرة تحدثني نفسي أن أترك هذا الأمر وأتجرد لعبادة ربي حتى أموت» فقال من حضر من أعيان الرحامنة وغيرهم: «يا مولانا بارك الله لنا في عمرك وجعلنا فداءك، ونحن أمامك ووراءك، فمرنا بما تشاء فقولك مطاع، وأمرك ممتثل، وما رأينا منك إلا الخير» فسر السلطان بمقالتهم ودعا لهم بخير، ولما فعل مع أهل مراكش هذا الأمر أراد أن يسلك مثله مع أهل فاس فوقع ما وقع، ولما بعث السلطان بالكتاب المذكور إلى ابنه المولى علي بفاس أمره أن يقرأه على أهلها بمحضر الفقيه المفتي السيد محمد بن إبراهيم الدكالي، والفقيه الشريف السيد محمد بن الطاهر الفيلالي، والفقيه الكاتب السيد أبي القاسم الظياني، والأمين السيد الحاج الطالب ابن جلون الفاسي، فجمعهم المولى علي في المسجد الذي بباب داره بزقاق الحجر وقرأ عليهم الكتاب المذكور، وكان المسجد غاصاً بالخاصة والعامة فازدحموا عليه ليروا الكتاب بأعينهم وأكثروا عليه، فضجر وقام ودخل داره وأغلقها عليه فقال بعض الناس: إن السلطان قد خلع نفسه وقال لكم: قدموا من ترضونه، وقال آخرون: إنه لم يخلع نفسه، وجعل آخرون يقرعون باب المولى علي ويقولون: أخرج إلينا كتاب السلطان حتى نقرأه ونعلم ما فيه، فقال لهم: إني أحرقته فازدادوا ريبة وصدقوا أن السلطان قد خلع نفسه، واجتمع رؤساء أهل فاس منهم الحاج محمد بن عبد الرزيق، والسيد محمد بن سليمان، وعلال العافية، وقدور بن عامر الجامعي، ولم يكن من أهل فاس وإنما كان قاطناً بالطالعة، وهؤلاء من أهل عدوة الأندلس، وكذلك غيرهم من أهل عدوة القرويين واللمطيين، ثم جمعوا الطلبة الذين حضروا قراءة الكتاب، وألزموهم أن يكتب كل واحد منهم ما سمع، فكتب لك واحد ما ظهر له ثم حازوا خطوطهم وخلصوا منها ما هو مرادهم وهو أن السلطان عجز وعزل نفسه، وأمر الناس أن ينظروا لأنفسهم، هذا والحرب قائمة بين أهل فاس والودايا

فكتب أهل فاس إلى قواد البربر يستنصرونهم على الودايا ويستقدمونهم للنظر والخوض معهم فيمن يتولى أمر الناس، فقدم الحسن بن حمو واعزيز المطيري كبير آيت أدراسن في وجوه قومه، وقدم الحاج محمد بن الغازي كبير زمور وبني حكم في وجوه قومه، فاجتمعوا بأهل فاس وتفاوضوا في أمر البيعة، فوقع اختيارهم على المولى إبراهيم بن يزيد، وكان ذا سمت وانقباض، وصهر السلطان على ابنته، وكان يسكن بدرب ابن زيان قرب المدرسة العنانية، فكان لا يخرج إلا من الجمعة إلى الجمعة يصلي بالمدرسة ثم يعود إلى داره، فاختاروه لذلك من غير اختبار ولا تمحيص، ثم قالوا: إن السلطان لا بد له من مال ورجال، فتكفل ابن واعزيز بالرجال وقال: عندنا من الخيل والرجال ما لن يغلب من قلة، وتكفل الحاج الطالب بن جلون بالمال وأحال على جماعة من التجار وسماهم، وذكر أن السلطان لما عزم على السفر إلى مراكش ودع عندهم بواسطته مالاً له بال، ولما تم لهم ما أرادوا غدوا على المولى إبراهيم بن يزيد فأحضروه وشرطوا عليه شروطاً منها إخراج الودايا من فاس الجديد، وكانوا كلما شرطوا عليه شرطاً حرك لهم رأسه أي نعم، ثم بايعوه صبيحة الرابع والعشرين من محرم سنة ست وثلاثين ومائتين وألف، ويقال إنهم لما خاطبوه أولاً امتنع فقالوا له: إن لم نبايعك بايعنا رجلاً من آل المولى إدريس رضي الله عنه، فخاف خروج الأمر من بيتهم وأجاب والله أعلم، وحضر هذه البيعة الشريف سيدي الحاج العربي ابن علي الوزاني، والشيخ أبو عبد الله سيدي محمد العربي الدرقاوي، وكان ابن الغازي الزموري من أخص أتباعه، وهو رئيس البربر في ذلك الوقت، وعليه وعلى ابن واعزيز كانت تدور هذه الأمور، وحضرها أيضاً أبو بكر مهاوش كبير آيت ومالو، ولما أحكموا أمرهم كتبوا إلى العبيد بمكناسة ليساعدوهم فامتنعوا، إلا أن من كان يبغض السلطان منهم وعدهم سراً، ثم كتبوا إلى الودايا بمثل ما كتبوا به إلى العبيد فكانوا عنها أبعد، فبعث أهل فاس الشيخ

أبا عبد الله الدرقاوي إلى الودايا ليأتي ببيعتهم وكان له فيهم أتباع فقبضوا عليه وأودعوه السجن، وكتبوا بذلك إلى السلطان فما سخط ولا رضي، واستمر المولى إبراهيم والبربر مقيمين بفاس إلى أن نفذ ما عندهم من المال الذي أظهره لهم الحاج الطالب ابن جلون، فاتفق رأيهم على الخروج من فاس وكان من أمرهم ما نذكره.

## مسير المولى إبراهيم بن يزيد إلى تطاوين ووفاته بها

لما نفذ ما كان عند المولى إبراهيم بن يزيد وشيعته من المال واستهلكوه في غير فائدة تفاوضوا فيما يصنعون، فأجمع رأيهم على أن يسيروا إلى المراسي بقصد فتحها والاستيلاء على مالها، فخرجوا بالمولى إبراهيم مستبدين عليه ضاربين على يده، وإنما المتصرف والآمر والناهي هو أبو عبد الله محمد بن سليمان، وأما ابن عبد الرزيق وجماعة من أصحابه الذين أسسوا هذا الأمر فإنهم هلكوا في حرب الودايا في عشية واحدة في وقعة ظهر المهراس، وحزت رؤوسهم وبعث بها إلى السلطان بمراكش، ولما برزوا من فاس مروا بآيت يمور ونزلوا بالولجة الطويلة، وراودوا من هنالك من عرب بني حسن وأهل الغرب ودخيسة وأولاد نصير على الانخراط في سلكهم فأبوا عليهم، وعزم القائد محمد بن يشو على أن يبيتهم بغارة شعواء تفرق جمعهم فدس إليهم محمد بن قاسم السفياني اللوشي، وكان منحرفاً عن السلطان بما عزم عليه ابن يشو، وأشار عليهم أن يعبروا النهر إلى ناحيته ليحميهم ممن أرادهم، فعبروا إليه وانضم إليهم فيمن معه وساروا إلى قصر كتامة فنزلوا بالكدية الإسماعيلية ومنها كتبوا إلى أهل الثغور والعرائش وطنجة وتطاوين يدعونهم إلى بيعة سلطانهم، والدخول في حزبهم، فأما أهل العرائش وطنجة فأجابوا بالمنع، وقيل إن أهل العرائش بايعوا، ووفد عليه بعضهم ولعل ذلك

كان في ثاني حال، وأما أهل تطاوين فامتثلوا وكان قاضي طنجة أبو العباس أحمد الفلوس قد عزم على بيعة المولى إبراهيم فنذر به عاملها أبو عبد الله محمد العربي السعيدي فنفاه وقدم للقضاء مكانه الفقيه الأديب أبا البقاء خالد الطنجي، ولما ورد على المولى إبراهيم وحزبه جواب أهل تطاوين بالقبول ساروا إليها فدخلوها، واستولوا على مال المرسى، وعلى مخازن السلطان وما فيها من سلاح وكتان وملف وغير ذلك، فتوزعته البربر ثم انتهبوا ملاح اليهود واكتسحوه، فعثروا فيه على أموال طائلة، يقال إنهم وجدوا به عدداً كثيراً من فنائق الضبلون والبندقي، فكان ابن الغازي الزموري وغيره من رؤساء ذلك الجمع لا يعطون أصحابهم إلا البندقي، فكثر جمعهم لذلك، ولما مضت لهم من قدومهم تطاوين سبعة وأربعون يوماً توفي المولى إبراهيم رحمه الله، وكان قد دخلها مريضاً يقاد به في المحفة فأخفوا موته ودفنوه بداره وكان من أمرهم ما نذكره.

## بيعة المولى السعيد بن يزيد بتطاوين ورجوعه إلى فاس

لما توفي المولى إبراهيم بن يزيد أخفى رؤساء دولته موته ليلتين أو ثلاثاً ثم دعوا أهل تطاوين إلى بيعة أخيه المولى السعيد بن يزيد، فافترقت كلمتهم، فمنهم من أبى ومنهم من أجاب، فأحضر ابن سليمان وابن الغازي وأشياعهما من أبى من أهل تطاوين وألزموهم البيعة فالتزموها وكتبوها وأحكموا عقدها، وكان المتولي يومئذٍ بتطاوين الحاج عبد الرحمٰن بن علي أشعاش فأخروه وولوا مكانه أبا عبد الله محمد العربي بن يوسف المسلماني، وكان داهية شهماً، وبينما هم في ذلك ورد عليهم الخبر بمجيء السلطان من مراكش، وأنه قد وصل إلى قصر كتامة ففت ذلك في عضدهم وخرجوا مبادرين إلى فاس على طريق الجبل، وكان من أمرهم ما نذكره.

# مجيء السلطان المولى سليمان من مراكش إلى القصر ثم مسيره إلى فاس وحصاره إياها

كان السلطان المولى سليمان رحمه الله في هذه المدة مقيماً بمراكش وكان العبيد قد ندموا على ما فرط منهم برباط الفتح من التخلف عن السلطان ونهب أثاثه حسبما مر، فجعلوا يتسللون إليه من مكناسة مثنى وفرادى حتى اجتمع عنده جلهم لا سيما من كان منهم معروفاً بعينه مثل القواد وأرباب الوظائف، ولما بلغه ما كان من بيعة المولى إبراهيم بن يزيد تربص قليلاً حتى إذا بلغه خروجه إلى المراسي قلق وخرج من مراكش في جيش العبيد وبعض قبائل الحوز يبادره إليها، ولما وصل إلى رباط الفتح عبر إلى سلا ونزل برأس الماء، ولما حضرت الجمعة دخل المدينة فصلى بالجامع الأعظم منها، ودخل دار الحاج محمد بن عبد الله معنينو من أعيان أهل سلا، واستصحب معه الفقيه المؤقت أبا العباس أحمد بن المكي الزواوي من أهل سلا أيضاً بقصد القيام بوظيفة التوقيت، ولما وصل السلطان إلى قصر كتامة أتاه الخبر بدخول المولى إبراهيم إلى تطاوين، فأقام هنالك وكتب إلى الودايا وإلى من بقي بمكناسة يحضهم على التمسك بالطاعة، وكتب إلى ولده المولى الطيب بفاس الجديد يأمره أن يبعث إليه بالفقيه الأديب أبي عبد الله محمد أكنسوس وهو صاحب كتاب الجيش.

قال أكنسوس: فقدمنا على السلطان بريصانة على مرحلتين من القصر قاصداً تطاوين ومحاصرة المولى إبراهيم بن يزيد بها، قال: فورد عليه كتاب من عند القائد أبي عبد الله العربي السعيدي صاحب طنجة بوفاة المولى إبراهيم وبيعة أخيه المولى السعيد، وأنهم قد عادوا به إلى فاس، ولما تحقق بذلك رجع على طريق القصر يؤم فاساً ويسابق السعيد إليها، فوافياها في يوم واحد فنزل السعيد بجموعه بقنطرة سبو ودخل السلطان دار الإمارة بفاس الجديد مع الودايا، ولما كان فجر الغد في تلك الليلة أغارت خيل الودايا

على محلة المولى السعيد بالقنطرة فانتسفوها بما فيها، وقتلوا من البربر وأهل فاس وغيرهم خلقاً كثيراً، واحتووا على أموال طائلة مما كانت البربر قد نهبته من ملاح تطاوين، وأفلت المولى السعيد وبطانته بجريعة الذقن، ودخلوا فاساً فأغلقوها عليهم وثابت إليهم نفوسهم، وفي هذه الأيام قتل المعلم الأكبر أبو العباس أحمد عنيقيد التطاوني، وكان عجباً في صناعة الرمي بالمهراس، وكان المولى السعيد قد أتى به من تطاوين ليحاصر به على فاس الجديد فدس إليه السلطان من قتله، ناداه رجل وهو في محلة أصحابه ليلاً يا فلان أجب مولانا السلطان فظن أنه دعي إلى المولى السعيد فقال: ها أنا ذا وبرز من خبائه فرماه المنادي برصاصة كان فيها حتفه، ثم عزم السلطان على محاصرة فاس حتى يفيئوا إلى أمر الله ولكن اكتفى من الحصار بمنعهم من الدخول والخروج، وكان الودايا قد ألحوا عليه في أن يرميهم بالبنب فأبى رحمه الله وقال: لو كانت البنبة التي نرميها تذهب حتى تقع بدار ابن سليمان أو بدار الطيب البياز أو غيرهما من رؤوس الفتنة لفعلنا، ولكن إنما تقع في دار أرملة أو يتيم أو ضعيف حبسه العجز معهم، ثم إن أهل فاس بدؤوا بالرمي وكان معهم سعيد العجل عارفاً بالرمي، فجعلوا يقصدون دار السلطان، فوقعت بنبة بالموضع الذي كان يجلس فيه للقراءة ووقعت أخرى بالمدرسة التي بباب داره، وكان بها جماعة من طبجية سلا ورباط الفتح فقتلت منهم أربع نفر، منهم الباشا أبو عبد الله محمد بن محمد بن حسين فنيش السلاوي، فعند ذلك حنق السلطان وأمر أن يؤتى بالمهاريس الكبار من طنجة من فرمة ثمانين إلى فرمة مائة، فجيء بها ونصبها عليهم فكان القتال لا يفتر ليلاً ونهاراً والكور والبنب تختلف بين أهل البلدين في كل وقت، واستمر الحال على ذلك قريباً من عشرة أشهر، ولا يدخل أحد إلى فاس ولا يخرج منها إلا على خطر، وفي أثناء هذه المدة نهض السلطان إلى طنجة للنظر في أمر تطاوين الخارجة عليه، بعد أن تقدم إلى الودايا في الحصار والتضييق على فاس إلى

أن يعود إليهم، ولما استقر بطنجة بعث إلى أهل تطاوين وراودهم على الرجوع إلى الطاعة فأبوا ولجوا في عصيانهم، فبعث إليهم جيشاً كثيفاً مع القائد حمان الصريدي البخاري فنزل بوادي أبي صفيحة وحاصرهم مدة، فكانت الحرب بينه وبينهم سجالاً مرة له ومرة عليه، وهلكت نفوس من أعيان تطاوين وغيرهم.

## مجيء المولى عبد الرحمٰن بن هشام من الصويرة إلى الغرب واستخلافه بفاس وما تخلل ذلك

كان المولى عبد الرحمٰن بن هشام في ابتداء أمره بتافيلالت، ولما توسم فيه عمه المولى سليمان مخايل الخير والنجابة استقدمه منها وولاه على الصويرة وأعمالها، فكفاه أمرها وقام بشأنها، ثم لما كان المولى سليمان بطنجة في هذه المرة واستعصى عليه أمر فاس وتطاوين وانصرم فصل الشتاء وأقبل فصل الربيع كتب إلى ابن أخيه المولى عبد الرحمٰن المذكور، يأمره بالقدوم عليه في قبائل الحوز، ويلقاه بهم برباط الفتح، وكان غرض السلطان أن يزحف بهم إلى فاس، إلا أن السياسة اقتضت أن يكون الأمر هكذا، فجمع المولى عبد الرحمٰن قبائل الحوز وقواده وقدم بهم إلى رباط الفتح، ولما لم يجدوا السلطان به تثاقلوا عن العبور مع المولى عبد الرحمٰن إلى بلاد الغرب، لأن السلطان إنما وعدهم أن يلقوه برباط الفتح، فكتب المولى عبد الرحمٰن إلى عمه يعلمه بصورة الحال، وكان السلطان رحمه قد استوزر في هذه المدة الفقيه أبا عبد الله أكنسوس فبعثه إلى المولى عبد الرحمٰن، وأصحبه مالاً يفرقه على جيشه لينشطوا للقدوم، وكان قدر المال خمسين أوقية لكل فارس، وأمره إذا قدم أرض سلا أن ينزل عند عاملها أبي عبد الله محمد بن أبي عزة المعروف بأبي جميعة، ويبعث للمولى عبد الرحمٰن ليعبر إليه في وجوه الجيش لقبض الصلة، ولا يذكر لهم سفراً، فإذا قبضوها فليقرأ عليهم كتابه، وكان مضمنه أنه يأمرهم بالقدوم عليه لقصر كتامة لقبض الكسوة

التي أتى بها من طنجة، وحينئذٍ يذهب معهم السلطان إلى الحوز، ففعل الوزير ذلك كله وتقدم المولى عبد الرحمٰن في جيشه إلى قصر كتامة.

قال الوزير المذكور: فلما جئنا القصر وجدنا السلطان لا زال مقيماً بطنجة، فتقدمت إليه وأعلمته بوصول المولى عبد الرحمٰن وجيشه إلى القصر، فخرج السلطان من طنجة وجعل طريقه على آصيلا، ولما بات بسوق الأحد بالغربية بعث إليه المولى المجذوب سيدي محمد بن مرزوق يدعوه للقدوم عليه والبيات عنده، فأجاب دعوته ودخل عليه وتبرك به، ومن هناك كتب إلى ابن أخيه المولى عبد الرحمٰن أن يتقدم بالجيش إلى العرائش ويلقاه به هنالك، ففعل المولى عبد الرحمٰن وهناك اجتمع بعمه السلطان المولى سليمان، فسر بمقدمه ودعا له بخير وأثنى عليه بمحضر أولئك الملأ من الناس، ثم دعا السلطان قواد الحوز فيهم القائد عبد الملك بن بيهي، والقائد علي بن محمد الشيظمي، والسيد محمد بن الغنيمي نائباً عن الحاج حمان العبدي، وكان في ركابه ابنه فضول بن حمان صغيراً، والقائد بلعباس بن المزوار الدكالي البوزراري، والحاج العربي بن رقية البوزراري، والقائد محمد بن حديدة البوعزيزي، والقائد المعطى الحمري، والقائد الصديق ابن الفقيه العمراني، ولم يكن فيهم من الرحامنة إلا الحاج المعطى بن محمد الحاج، ولم يكن فيهم من السراغنة ولا من الشاوية أحد، ولما اجتمعوا خرج عليهم السلطان وجلس على طنفسة، ثم دعا بالقائد عبد الملك بن بيهي فأجلسه إلى جنبه ودعا له بخير، ثم قال: إنكم تعبتم في سبيل الله ونحن أتعب منكم، ونسأل الله أن لا يضيع أجرنا وأجركم، واعلموا أنكم في طاعة الله وطاعة رسوله، ولكم المزية التامة، وقد وجب علينا الإحسان إليكم، وقد ظهر لي أنكم حين وصلتم إلى هذا المحل لا ينبغي لكم أن ترجعوا بدون زيارة مولانا إدريس، وكنت أردت أن أوجهكم إلى بلادكم من هنا ولكن أنا لا يمكنني أن أرجع إلا بعد أن يحكم الله بيني وبين هؤلاء الخارجين عن الحق، وأنتم لا يجمل بكم أن ترجعوا بغير سلطان، فاصبروا قليلاً وتمموا عملكم حتى تذهبوا إن شاء الله بسلطانكم فرحين مستبشرين،

فقالوا كلهم: سمعاً وطاعة لا نفارقك حتى نرجع بك ولو مكثنا عشر سنين، وعلى أثر هذا عقد السلطان لقائد خيل الجيش البخاري الحاج إبراهيم بن رزوق على مائتين من الخيل مفروضة من الحوزية والعبيد، وأمره أن يسير إلى تطاوين ويقيم بمرتيل، ويمنع أهلها من الوصول إلى المرسى ففعل، وارتحل السلطان من العرائش يريد فاساً في قبائل الحوز فمر ببلاد سفيان ونزل بسوق الأربعاء منها قرب ضريح سيدي عيسى بن الحسن المصباحي، فأصابه مرض هنالك وورد عليه الخبر بأن إبراهيم بن رزوق قد كاده صاحب تطاوين العربي بن يوسف حتى قبض عليه وعلى أصحابه وسلبهم وسجنهم، فآلم هذا الخبر السلطان وزاده إلى ما به من المرض، ثم أبل منه بعد أيام فنهض إلى فاس وعرج على طريق تازا، ولما بات بسوق الخميس بالكور من بلاد الحياينة أغارت عليه غياثة ومن شايعهم من أهل تلك النواحي، وكانوا قد دخلوا في بيعة أبي يزيد، فداروا بالمحلة ونضحوها بالرصاص فقام السلطان وجعل يسكن الناس بنفسه، ونهاهم عن الركوب والاضطراب فحفظ الله المحلة في تلك الليلة ولم يصب أحد من الناس ولا من الدواب وأصبحت قتلى العدو مصرعة حول المحلة، ثم دخل السلطان مدينة تازا فوفد عليه بها أهل الريف وعرب آنقاد والصحراء، وجعلوا يزدحمون عليه ليروا وجهه ويقولون: إنه والله للسلطان، لأن أهل فاس كانوا يشيعون موته، ويكتبون بذلك إلى القبائل، ثم تقدم السلطان إل فاس فنزل بقنطرة وادي سبو وذلك أواخر رجب سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف، وكان أهل فاس قد سئموا الحرب وعضهم الحصار وملوا دولة أبي يزيد، فاختلفت كلمتهم عند ما قدم السلطان، وهاجت الحرب داخل البلد بين شيعة السلطان وشيعة السعيد، فكثرهم شيعة السلطان وفتحوا الباب وخرجوا إليه بالأشراف والصبيان والمصاحف وتهافتوا على فسطاطه تائبين خاضعين، وجاء السعيد في جوار المولى عبد الرحمٰن بن هشام ومعه الأمين الحاج الطالب ابن جلون، فكان جواب السلطان لهم أن قال: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [يوسف:92]، وكان رحمه الله قد رأى

وهو سائر إلى فاس رؤيا وهي أنه دخل فاساً وزار تربة المولى إدريس رضي الله عنه، وقلده سيفاً وصعد المنار وأذن، فكان من عجيب صنع الله أن فتح عليه فاساً ودخلها وزار المولى إدريس وأذن بمنارة على الهيئة التي رأى، وجاء رجل من أولاد البقال فقلده سيفاً تصديقاً للرؤيا، ولما دخل ضريح المولى إدريس وجد الشريف البركة سيدي الحاج العربي بن علي الوزاني هنالك فعاتبه السلطان عتاباً خفيفاً وزال ما بصدره عليه، وانقطعت أسباب الفتن والحمد لله.

واعلم أن ما صدر من أهل فاس ومن وافقهم على هذه البيعة لا لوم عليهم فيه، وما كان من حق السلطان رحمه الله أن يبعث إليهم بذلك الكتاب الذي أوقعهم في حيص بيص، وكان سبباً لهذه الفتن، وقول أكنسوس: إن السلطان أراد تهييجهم على التمسك بطاعته كما فعل مع أهل مراكش ليس بشيء، أو ما علم السلطان رحمه الله كلام الكبراء خصوصاً الملوك مما تتوفر الدواعي على نقله؟ وأن العامة إذا نقلته وضعته غالباً في غير محله، وفي الصحيح: أن عمر رضي الله عنه بلغه وهو بمنى أن رجلاً قال: والله لو قد مات عمر لبايعنا فلاناً يريد رجلاً من غير قريش، فقال عمر رضي الله عنه: لأقومن العشية فأحذر هؤلاء الرهط الذين يريدون أن يغصبوهم، فقال عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنه: لا تفعل يا أمير المؤمنين فإن الموسم يجمع رعاع الناس يغلبون على مجلسك، فأخاف أن يسمعوا منك كلمة فلا ينزلوها على وجهها، ويطيروا بها عنك كل مطير، فامهل حتى تقدم المدينة دار الهجرة ودار السنة فتخلص بأصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار فيحفظوا مقالتك، وينزلوها على وجهها، فقال عمر: والله لأقومن به في أول مقام أقومه بالمدينة، الحديث، فانظر كيف منع عبد الرحمٰن عمر رضي الله عنه من الكلام بالموسم، وبمحضر العامة خوفاً من وقوع الفتنة وانقاد له عمر حيث علم أن ذلك هو الصواب، وكان وقافاً عند الحق، هذا والناس ناس والزمان زمان وفي خير القرون، فكيف في زمان قل علمه وكثر

جهله، وغاض خيره وفاض شره، وأمر السلطان متداع مختل والفتنة قائمة على ساق كما رأيت، فلهذا قلنا ما كان من حق السلطان أن يبعث بذلك الكتاب الموجه بمقصدين، المحتمل احتمالين، ولكن قضاء الله غالب.

ولما افتتح السلطان رحمه الله فاساً وصفاً له أمرها عزم على النهوض إلى تطاوين، فاستخلف على فاس وأعمالها ابن أخيه الفارس الأنجد، السري الأسعد، المولى عبد الرحمٰن بن هشام، لعدالته وكفايته وحسن سياسته، وأخذ معه المولى السعيد بن يزيد، وخرج في جيش الودايا والعبيد وقبائل الحوز أوائل شعبان سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف، فجعل طريقه على بلاد سفيان، ولما وصل إلى الموضع المعروف بالحجر الواقف بين نهري سبو وورغة، قدم عليه هنالك القائد أبو عبد الله محمد بن العامري اليحياوي في قومه بني حسن، والقائد أبو عبد الله محمد المعتوجي السفياني، وقاسم بن الخضر، في قومهما سفيان وبني مالك، وقدم عليه هنالك أولاد الشيخ أبي عبد الله سيدي العربي الدرقاوي صبية صغاراً يشفعون في أبيهم ليسرحه لهم فوصلهم وكساهم وقال لهم: والله ما سجنته ولا أمرت بسجنه، ولكن اتركوه فسيسرحه الله الذي سجنه فكان الأمر كذلك، فإنه بقي في السجن حتى توفي السلطان المولى سليمان وبويع المولى عبد الرحمٰن بن هشام فافتتح عمله بتسريحه، ولما نزل السلطان رحمه بمشرع مسيعيدة من نهر سبو وفد عليه أهل تطاوين تائبين ومعهم قائدهم العربي بن يوسف المسلماني، وكان الناس يظنون أنه ينكل به وبمن قام معه في الفتنة فلم يفل لهم إلا خيراً، حتى لقد قال له ابن يوسف: يا مولانا إن أهل تطاوين لم يفعلوا شيئاً، وإني أنا الذي فعلت، يريد أن يبرئهم ويفديهم بنفسه، فقال له السلطان رحمه الله: ما عندك ما تفعل أنت ولاهم، وإنما الفاعل هو الله تعالى وصفح عنهم وأحسن إليهم، ولما صفا أمر تطاوين ولم يبق ببلاد الغرب منازع انقلب السلطان راجعاً إلى الحوز وجد السير إلى مراكش فدخلها في رمضان من السنة المذكورة.

## وقعة زاوية الشرادي وما جرى فيها على السلطان المولى سليمان رحمه الله

هؤلاء الشراردة أصلهم من عرب معقل من الصحراء، وهم طوائف زرارة والشبانات، وهم الخلص منهم ويضاف لهم بعض أولاد دليم وتكنة وذوو بلال وغيرهم، وكانت منازلهم في دولة السلطان الأعظم سيدي محمد بن عبد الله غربي مراكش على بعض يوم منها، فنشأ فيهم الشيخ أبو العباس الشرادي من أهل الصلاح ومن أصحاب الشيخ سيدي أحمد بن ناصر الدرعي فاعتقدوه، وربما ناله بعض الإحسان من السلطان المذكور، ثم نشأ ابنه السيد أبي محمد بن أبي العباس، فجرى مجرى أبيه، وبنى الزاوية المنسوبة إليهم، واعتقده قومه أيضاً بل وغيرهم.

فقد ذكر صاحب نشر المثاني: أن السيد محمداً هذا لما قدم من الحج سنة سبع وسبعين ومائة وألف، اجتاز بمدينة فاس فاجتمع عليه ناس منها وتلمذوا له وبنوا له زاوية بدرب الدرج من عدوة الأندلس، وأثنى عليه وعلى أبيه فانظره، ثم جاء ابنه المهدي بن محمد فسلك ذلك المسلك أيضاً، ونشأ في دولة السلطان المولى سليمان رحمه الله، واتخذ شيئاً من كتب العلم من غير أن يكون له فيه يد تعتبر، ثم تظاهر بمعرفة السيميا والحدثان فازداد ناموسه وتمكن من جهلة قومه، وربما نمى شيء من أمره إلى السلطان فتغافل عنه، ثم لما قدم السلطان رحمه الله مراكش هذه المرة وجد أمره قد زاد واستفحل، وكان الشراردة يومئذٍ قد حسنت حالهم فأثروا وكثروا، وكان السلطان قد ولى عليهم رجلاً منهم اسمه قاسم الشرادي، فحدث بينه وبين المهدي ما يحدث بين المرابطين وأرباب الولاية، وكان ربما التجأ جانٍ إلى زاوية المهدي فيقبض عليه القائد ويخرجه منها، فاستحكمت العداوة بين القائد وبين المهدي، ثم جرى شنآن بين المهدي وبين بعض قرابته ففر ذلك القريب إلى مراكش، وكان القائد قاسم بها فشكا إليه عمه المهدي، فاغتنمها

القائد ودخل على السلطان فشرح له حال المهدي وما هو عليه من التهور والسمو بنفسه إلى المحل الذي لا يبلغه، وأنه لا يستقيم أمر المخزن بتلك القبيلة معه، ولم يزل به حتى أعطاه السلطان مائتين من الخيل أغار بها على الزاوية فانتهبوها على حين غفلة من أهلها وجلهم غائب في أعماله، فتسامعوا بأن الخيل قد عاثت في ديارهم وجاؤوا على الصعب والذلول وأوقعوا بخيل المخزن واستلبوهم من خيلهم وسلاحهم وعادوا إلى مراكش راجلين فعظم ذلك على السلطان واغتاظ واتفق أن كان مع السلطان عامل مراكش أبو حفص عمر بن أبي ستة، وعامل الرحامنة القائد قاسم الرحماني، وكلاهما عدو للشراردة لا سيما الرحماني، فشنعوا في ذلك بمحضر السلطان وأسدوا وألحموا في غزو الشراردة وتأديبهم حتى لا يعودوا لمثلها، وفي أثناء ذلك ندم الشراردة على ما كان منهم وبعثوا إلى السلطان بالشفاعات وذبحوا عليه وعلى صلحاء مراكش فلم يقبل منهم، ويقال إن ذلك لم يكن يبلغ السلطان لأن النقض والإبرام إنما كان لعمر بن أبي ستة، وقاسم الرحماني، وكان السلطان رحمه الله كالمغلوب على أمره معهما، فلم يزالوا به حتى بعث إلى قبائل الحوز يستنفرهم لغزو الشراردة فاجتمعوا عليه، وكان معه جيش الودايا وكبارهم مثل الطاهر بن مسعود الحساني، والحاج محمد بن الطاهر، وغيرهما، ومعه القائد محمد بن العامري في بني حسن وغيرهم من قبائل الغرب.

ولم أجمع السلطان الخروج إليهم قدم أمامه قاسماً الرحماني إذ كان قد تكفل له بأن يكفيه أمر الشراردة وحده، فكان متسرعاً إليهم قبل كل أحد، فرابط بعين دادة ثمانية عشر يوماً والوسائط تتردد بين السلطان وبين الشراردة، وكادت كلمتهم تختلف إذ قام فيهم رجل مرابط اسمه الحبيب من أولاد سيدي أحمد الزاوية، وبعث نحو الأربعين من الشراردة إلى السلطان سعيا في الصلح، فأشار الرحماني وابن أبي ستة فيما قيل على السلطان بالقبض

عليهم، فقبض عليهم وحيزت خيلهم وسلاحهم فشرى الداء وأعوز الدواء، ثم زحف السلطان وانتشبت الحرب أول النهار، ولما اشتد الحر وكان الزمان زمان مصيف تحاجزوا، ثم عاد قاسم الرحماني فأنشب الحرب مع العشي، فكانت الدبرة عليه وقتل وحمل رأسه على رمح وانهزم جيش المخزن ووقع الفشل في المحلة، فتفرقت القبائل وباتوا لا يلوون على شيء، ولما طلع النهار لم يبق مع السلطان إلا جيش المخزن، فزحف الشراردة إلى المحلة ورأوا السلطان قد بقي في قلة فطمعوا فيه وأنشبوا الحرب، فانهزم الجيش الذين كانوا مع السلطان وتركوا المحلة بما فيها، فتوزعتها الشراردة شذر مذر، وانحاز السلطان في حاشيته وقصد مراكش، فلقيتهم في طريقهم ساقية ماء حبستهم عن المرور، وخالط الشراردة القوم الذين كانوا مع السلطان وجعلوا يستلبون من ظفروا به منهم، وتراكم المنهزمة على السلطان ولجؤوا إليه، وقتل الشراردة عمر بن أبي ستة خلف ظهره.

ولما رأى السلطان رحمه الله ذلك نادى في الناس أن لا يقتل أحد نفسه على ولا على هذه الأسلاب، أعطوهم منها ما شاؤوا، واجتمع نحو العشرين من كبار الشراردة وتقدموا إلى السلطان فقالوا: يا مولانا تحيز إلينا لئلا تصيبك العامة، فانحاز إليهم وكان راكباً على بغلته فالتفوا عليه وساروا به إلى زاويتهم، وأنزلوه بالدار المعروفة عندهم بدار الموسم، واحترموه وغدوا وراحوا في خدمته، وكان مع وصيفه فرجى صبياً صغيراً وهو الذي ولي إمارة فاس الجديد في دولة السلطان المولى عبد الرحمٰن بن هشام، وكان معه أيضاً عبد الخالق بن كريران الحريزي شاباً كما بقل عذاره، وبقي عندهم ثلاثة أيام، وحضرت الجمعة فصلاها عندهم وخطبوا به، ومن الغد ركبوا معه وصحبوه إلى مراكش إلى أن وصلوا إلى عين أبي عكاز فودعوه ورجعوا، ومما قال لهم عند الوداع: إن الذين أرادوا أن يفتحوا باب الفتنة على الناس قد سد الله أبوابها برؤوسهم، يعني الرحامنة وبعد وصول السلطان إلى مراكش

بيوم أو نحوه، عدا الرحامنة على محمد بن أبي ستة فقتلوه بسبب أن الشراردة كانوا قد أسروه ثم استحيوه واتخذوا عنده عهداً ويداً بأنه إذا أفضت إليه ولاية مراكش بعد أخيه عمر المقتول يحسن في إدارة أمرهم عند السلطان، فسمع الرحامنة بذلك فقتلوه.

قال صاحب الجيش: لما عزم السلطان على الخروج إلى زاوية الشرادي بعثني قبل ذلك بثلاث إلى السوس في شأن ابن أخيه المولى بناصر بن عبد الرحمٰن، وكان عاملاً عليها فكثرت الشكايات به إلى السلطان، فبعثني في شأنه قال: فلما جئت تارودانت تربصت قليلاً فلم يفجأنا إلا خبر الهزيمة على السلطان بالروايات المختلفة فقائل يقول إنه قد قتل، وآخر يقول إنه قد مات حتف أنفه، وآخر يقول لا بأس عليه، ثم ورد علينا كتابان من عند السلطان أحدهما بخط الكاتب مطبوعاً، والآخر بخط يده تحقيقاً لسلامته يقول فيه: إن هذه الحركة ما وقعت إلا لهلاك الظلمة والملبسين علينا، المظهرين للمحبة لنا، وهم في الباطن أعدى الأعادي مثل قاسم الرحماني، وفلان وفلان، وأما أولاد أبي ستة فقد قتل زرارة عمر على رائحة الرحامنة، وقتل الرحامنة محمداً على رائحة أهل السوس، والشريف سيدي محمد بن عبد الجليل الوزاني أصابته رصاصة رعاية رحمة الله عليه والحاصل هان علينا كسر الخابية بموت الفار، وقد أحسنت في التربص فاترك الأمر على طيته، واصحب معك أشياخ السوس، وعدهم منا بالإحسان ومساعدتهم على ما يطلبونه منا والسلام اهـ.

ولما دخل السلطان مراكش راجع القوم الذين انهزموا عنه بصائرهم وأقبلوا إليه خاضعين تائبين، وعلى أبوابه في العفو راغبين، فما وسعه إلا الإعراض عن أفعالهم الذميمة، وطاعتهم السقيمة، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم أمرهم بالتهييء لغزو برابرة الغرب فتوجهوا إلى بلادهم ليأتوا بحصصهم إلى عيد المولد الكريم فانقضى أجله رحمه الله.

# وفاة أمير المؤمنين المولى سليمان بن محمد رحمه الله

كان أمير المؤمنين المولى سليمان رحمه الله في هذه المدة قد سئم الحياة ومل العيش، وأراد أن يترك أمر الناس لابن أخيه المولى عبد الرحمٰن بن هشام، ويتخلى هو لعبادة ربه إلى أن يأتيه اليقين، قال ذلك غير مرة، وتعددت فيه رسائله ومكاتيبه، فمما كتبه في ذلك هذه الوصية التي يقول فيها: الحمد لله لما رأيت ما وقع من الإلحاد في الدين، واستيلاء الفسقة والجهلة على أمر المسلمين، وقد قال عمر: إن تابعناهم تابعناهم على ما لا نرضى وإلا وقع الخلاف، وأولئك عدول وهؤلاء كلهم فساق، وقال عمر: فبايعنا أبا بكر فكان والله خير، وقال رسول الله ﷺ في حق أبي بكر: **«يأبى الله ويدفع المسلمون»**، ورشحه بتقديمه للصلاة إذ هي عماد الدين، وقال أبو بكر للمسلمين: بايعوا عمر وأخذ له البيعة في حياته فلزمت وصحت بعد موته، وقال عمر: هؤلاء الستة أفضل المسلمين، وقال رسول الله ﷺ: **«نعم العبد صهيب»**، وقال: **«أبو عبيدة أمين هذه الأمة»**، وقال: **«ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر»**، وقال في أبي بكر وعمر أكثر من هذا، فصار المدح للتعريف واجباً، ولإظهار حال الرجل لينتفع به فأقول جعله الله خالصاً لوجهه الكريم: ما أظن في أولاد مولانا الجد عبد الله، ولا في أولاد سيدي محمد والدي رحمه الله، ولا أولاد أولاده، أفضل من مولاي عبد الرحمٰن بن هشام، ولا أصلح لهذا الأمر منه، لأنه إن شاء الله حفظه الله لا يشرب الخمر ويزني ولا يكذب ولا يخون، ولا يقدم على الدماء والأموال بلا موجب، ولو ملك ملك المشرقين، لأنها عبادة صهيبية، ويصوم الفرض والنفل ويصلي الفرض والنفل، وإنما أتيت به من الصويرة ليراه الناس ويعرفوه، وأخرجته من تافيلالت لأظهره لهم لأن الدين النصيحة، فإن اتبعه أهل الحق صلح أمرهم كما صلح سيدي محمد جده وأبوه حي، ولا يحتاجون إليّ أبداً ويغبطه أهل المغرب ويتبعونه إن شاء الله،

وكان من اتبعه اتبع الهدى والنور، ومن اتبع غيره اتبع الفتنة والضلال، وأحذر الناس أولاد يزيد كما حذر والدي، وقد رأى من اتبعه أو اتبع أولاده كيف خاض الظلمة ونالته دعوة والده وخرج على الأمة، وأما أنا فقد خفَّت قواي ووهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً، حفظني الله في أولادي والمسلمين آمين، نصيحة وصية سليمان بن محمد لطف الله به اهـ.

وفي أثناء هذه المدة وقعت غدرة ذوي بلال في انتهابهم الصاكة الواردة من مرسى الصويرة، وكان انتهابهم إياها باتفاق من الشياظمة الذين جاؤوا معها، وقائدهم علي بن محمد الشيظمي هو الذي انتهب أكثرها، وكان فيها من الذخائر النفيسة والأموال الثقيلة شيء كثير، وهذه الوقعة هي التي هدت أركان السلطان المولى سليمان رحمه الله فاعتراه مرضه الذي كان سبب وفاته، ولما أثقله المرض أعاد العهد للمولى عبد الرحمٰن بن هشام وبعث به إلى فاس إذ كان خليفة بها كما مر، فدعا رحمه الله بصحيفة بيضاء ودعا بالطابع الكبير فجيء به ولم يحضره إلا أهله من النساء، فطبع الصحيفة بيده وكتب بعض الكتاب وأكملته بعض حظاياه ممن كانت تحسن الكتابة، ثم طواه وختم عليه ودعا القائد الجيلاني الرحماني الحويوي وكان قائد المشور وقال له: ادع لي فارسين يذهبان بهذا الكتاب إلى فاس وقد عينت لهما سخرة كبيرة يقبضانها هناك إذا أسرعا السير، فكان ذلك الكتاب هو العهد الذي قرىء بفاس، ونصه: الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم أخوالنا الودايا ورماة فاس وأعيانها ورؤساءها، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وعلى ابن عمنا الفقيه القاضي مولاي أحمد والفقيهين ابن إبراهيم والآزمي، وبعد فقد وجدت من نفسي ما ليس بتارك أحداً في الدنيا، وهذه وصية أقدمها بين يدي أجلي والله ما بقي في قلبي مثقال ذرة على أحد من خلق الله، لأن ذلك أمر قد قدره الله وسبق علمه به، ولست فيه بأوحد، وما وقع لمن قبلي أشنع وأفظع، وإني قد عقدت

بين أخوالي وأهل فاس أخوة بحول الله لاتنفصم يرثها الأبناء عن الآباء، وأوصي الجميع بما أوصى الله به الأولين، ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا﴾ [النساء: 131]، ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [الحشر: 7]، وبسنة رسول الله ﷺ: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، ولن تزال هذه الأمة بخير ما أخذوا بكتاب الله**»، وقد عهدت لابن أخي مولاي عبد الرحمن بن هشام ورجوت الله أن يكون لي في هذا الأمر مثل ما لسليمان بن عبد الملك في عهده لعمر بن عبد العزيز، ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ [يس: 12] من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، وقد انعقد الإجماع على عقد البيعة بالعهد، والقاضي والفقيهان يبينون لكم هذا ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: 59]، وإني أشهد الله أني مقر بالسمع والطاعة لعبد الله عبد الرحمن بن هشام وببيعته ألقاه، وقد أديت لأمة رسول الله ﷺ ما علي من النصيحة، وأرجو الله أن يثيبني بهذه النية الصحيحة وهو المطلع على ما في الضمائر، والعالم بالسرائر والسلام وفي رابع ربيع النبوي عام ثمانية وثلاثين ومائتين وألف اهـ.

ثم تمادى بالسلطان رحمه الله مرضه إلى أن توفي ثالث عشر ربيع الأول وهو الثاني من عيد المولد الكريم من السنة المذكورة، ومات رحمه الله ثابت الذهن صحيح الميز على غاية من اليقين والفرح بلقاء ربه، ودفن بضريح جده المولى علي الشريف بباب آيلان من مراكش، وقد رثاه جماعة من أدباء العصر من ذلك قول الفقيه الأديب الكاتب البليغ أبي عبد الله محمد بن إدريس الفاسي:

نبأ عرى أوهى عرى الإيمان وأبان حسن الصبر عن إمكان
شقت لموقعه القلوب وزلزلت أرض النفوس ورج كل مكان

فقد الإمام أبي الربيع المرتضى ... جزعت لعظم مصابه الثقلان
وبكت عيون الدين ماء جفونها ... وجداً عليه وكل ذي إيمان
لم نعى الناعون خير خليفة ... وعرا الفؤاد طوارق الأحزان
مزقت ثوب تجلدي من فقده ... ونثرت در الدمع من أجفاني
عجباً لموت غاله إذ لم يخف ... فتك الملوك وسطوة السلطان
وسما لمنصبه المنيف ولم يهب ... غضب الجنود وغيرة الأعوان
لو كان ينفع خاض فرسان الوغا ... حرصاً عليه مواقد النيران
وحموه بالنفس النفيسة إنما ... يحمون روح العدل والإحسان
لكن قضاء الله حم فلا يرى ... للمرء في دفع القضاء يدان
والموت مورد كل حي كأسه ... وسوى المهيمن في الحقيقة فان
إن غاب عنا شخصه فلقد ثوى ... فينا الثناء له بكل لسان
ومناقب ومفاخر ومآثر ... شاعت له في سائر الأوطان
ومعارف وعوارف ووسائل ... ومسائل قد أوضحت ومعاني
وبدور أولاد وآل قد قفوا ... آثاره في العلم والعرفان
تخذوا الديانة والصيانة شرعة ... وتقلدوا بصوارم الإيقان
أخلاقهم ووجوههم وأكفهم ... كالزهر والأزهار والأمزان
إن حاربوا أبدوا شجاعة جدهم ... أو خاطبوا أزروا على سحبان
من كل من جعل القران سميره ... وسما بوصف العلم والتبيان
كم آية ظهرت له وكرامة ... دامت دلائلها مدى الأزمان
قد كان أوحد دهره ولذاته ... في العدل والتمكين والإحسان
قد كان عالم عصره وفريده ... في الفهم والتحقيق والإتقان
قد كان فرداً في البلاغة إن جرت ... أقلامه بهرت بسحر بيان
من للعلى من بعده من للنهي ... من للتقى وتلاوة القرآن
يا رمسه ما ذا حويت من العلى ... وطويت من علم ومن عرفان

يا رمس كم واريت من كرم ومن ... جود ومن فضل ومن إحسان
يا رمس كم حجبت عنا شمسه ... وضياؤها في سائر البلدان
ووسعت بحر علومه وسخائه ... فطمى بضيق بطنك البحران
فلو استطعت جعلت قلبي قبره ... حبّاً وأحشائي من الأكفان
ولو أن عمري في يدي لوهبته ... وفديته بالأهل والإخوان
لكن يخفف بعض أثقال الأسى ... علمي به في جنة الرضوان
فسقى ثراه من المواهب ديمة ... وهمت عليه سحائب الغفران
ورد الرسول بموت خير خليفة ... وولاية العهد الرفيع الشان
فجزعت من حزن لما قد نابني ... وطربت من فرح بما أولاني
ما مات من ترك الخليفة بعده ... مثل المؤيد عابد الرحمٰن
ملك تسربل بالتقى حتى ارتقى ... من نهجه الأتقى على كيوان
يا واحداً في الفضل غير مشارك ... أقسمت ما لك في البرية ثان
لله بيعتك التي قد أشبهت ... فيما تواتر بيعة الرضوان
قد أحكمتها يد الشريعة والتقى ... بعرى النصوص وواضح البرهان
سعد الذي أضحى بها متمسكاً ... وهوى العنيد بهوة الخسران
وجرى على التيسير أمرك فاستوى ... ملك الورى لك في أقل زمان
وأتت لنصرتك المغارب كلها ... فبعيدها لك في الحقيقة داني
عقدوا على النصح القلوب وإنما ... عقدوا بنصرك راية الإيمان
لو شئت من أهل المشارق طاعة ... لأتوك من يمن ومن بغدان
هابتك أصناف الطغاة بزعمهم ... لما وثقت بنصرة الرحمٰن
وبسطت عدلك في الورى فكأنما ... قد عاش في أيامك العمران
يا أهل بيت المصطفى أوصافكم ... جلت عن الإحصاء والحسبان
طاب المديح مع الرثاء بذكركم ... فنظمته كقلائد العقيان

# بقية أخبار السلطان المولى سليمان رحمه الله ومآثره وسيرته

لما بويع أمير المؤمنين المولى سليمان رحمه الله رد الفروع إلى أصولها، وأجرى الخلافة على قوانينها بإقامة العدل والرفق بالرعية والضعفاء والمساكين، ومن وفور عقله وعدله إسقاط المكوس التي كانت موظفة على حواضر المغرب في الأبواب والأسواق، وعلى السلع والغلل وعلى الجلد وعشبة الدخان، فقد كان يقبض في ذلك أيام والده رحمه الله خمسمائة ألف مثقال معلومة مثبتة في الدفاتر مبيعة في ذمم عمال البلدان وقواد القبائل، كل مدينة وما عليها، ومن ذلك المكس كان صائر العسكر في الكسوة والسروج والسلاح والعدة والإقامة والخياطة والتنافيذ لوفود القبائل والعفاة والمؤنة للعسكر ولدور السلطان وسائر تعلقاته، فكان ذلك المكس كافياً لصوائر الدولة كلها ولا يدخل بيت المال إلا مال المراسي وأعشار القبائل وزكواتهم، وكان مستفاد هذا المكس يعادل مال المراسي وأعشار القبائل، فزهد فيه هذا السلطان العادل فعوضه الله أكثر منه من الحلال المحض الذي هو الزكوات والأعشار من القبائل وزكوات أموال التجار والعشر المأخوذ من تجار النصارى وأهل الذمة بالمراسي، وأما المسلمون فقد منعهم من التجارة بأرض العدو لئلا يؤدي ذلك إلى تعشير ما بأيديهم أو المشاجرة مع الأجناس هكذا بلغنا والله أعلم.

وكانت القبائل في دولته قد تمولت ونمت مواشيها وكثرت الخيرات لديها من عدله وحسن سيرته، فصارت القبيلة التي كانت تعطي عشرة آلاف مثقال مضاربة أيام والده يستخرج منها على النصاب الشرعي عشرون وثلاثون ألف مثقال، وذلك من توفيق الله له وتمسكه بالعدل والحلم والجود والحياء وجميل الصبر وحسن السياسة والتأني في الأمور واجتنابه لما هو بضد ذلك.

فأما الحلم فهو دأبه وطبعه، وقد اتفق أهل عصره على أنه كان أحلم الناس في زمانه، وأملك لنفسه عند الغضب من أن يقع في الخطأ، ومذهبه

درء الحدود بالشبهات، والتماس التأويل وقبول العذر، حتى لقد حكى عنه أنه ما اعتمد البطش بأحد وتصدى لنكبته لغرض نفساني أو لحظ دنيوي، وحسبك من حلمه ما قابل به الخارجين عليه.

قال صاحب الجيش: لما عزمت على الخروج من فاس أيام الفتنة لملاقاة السلطان المولى سليمان بقصر كتامة، جئت إلى القاضي أبي الفضل عباس بن أحمد التاودي لأودعه فكان من جملة ما أوصاني به قال: قل لمولانا السلطان يقول لك عباس: إنا نخاف إذا ظفرت بهؤلاء الظلمة أن تصفح عنهم، فلما اجتمعت بالسلطان أبلغته مقالة القاضي فقال: كيف أصفح عنهم وقد قال النبي ﷺ لأبي عزيز: لا أتركك تمسح سبلتك بمكة وتقول: خدعت محمداً مرتين، فلما فتح الله عليه فاساً كان جوابه أن قال: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، بل تعجل بالخروج منها مخافة أن يغريه بعض بطانته بأحد منهم، فلعمري لقد صدق من قال: إن التخلق يأتي دونه الخلق.

وأما الدين والتقوى فذلك شعاره الذي يمتاز به ومذهبه الذي يدين الله به، من أداء الفريضة لوقتها المختار حضراً وسفراً، وقيام رمضان وإحياء لياليه بالإشفاع، ينتقي لذلك الأساتيذ ومشايخ القراء ويجمع أعيان العلماء لسرد الحديث الشريف وتفهمه والمذاكرة فيه على مر الليالي والأيام، ويتأكد ذلك عنده في رمضان، ويشاركهم بغزارة علمه وحسن ملكته، ويتناول راية السبق في فهم المسائل التي يعجز عنها غيره فيصيب المفصل، ويواظب على صيام الأيام المستحبة من كل شهر، ويعظم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، ويرفع مناصبهم على سائر رجال دولته، ويجري عليهم الأرزاق ويعطيهم الدور المعتبرة، والضياع المغلة، ويحسن مع ذلك إلى من دونهم في المرتبة من المدرسين وطلبة العلم، ويؤثر المعتنين منهم وذوي الفهم بمزيد البر وتضعيف الجراية، حتى لقد تنافس الناس في أيامه في اقتناء العلوم، وانتحال صناعتها لاعتزاز العلم وأهله في دولته وسعة أرزاقهم.

وأما صبره عند الشدائد واحتمال العظائم، وتجلده عند حلول الخطب ونزول المقدور، فحدث عن البحر ولا حرج، وعن الجبل سكوناً ورسوخ قدم.

قال صاحب البستان: ولو حدثنا بما شاهدناه منه لكان عجباً. وأما العدل فإنه ما رئي في ملوك عصره أعدل منه، ومن عجيب سيرته أنه كان يلزم العمال رد ما يقبضونه من الرعايا على وجه الظلم من غير إقامة بينة عليهم على ما جرى به عمل الفقهاء من قلب الحكم في الدعوى على الظلمة وأهل الجور حسبما ذكره الونشريسي وغيره، ومن عدله واقتصاده ما حكاه لنا الفقيه أبو العباس أحمد بن المكي الزواوي المؤقت بالمسجد الأعظم من سلا قال: مر السلطان المولى سليمان بسلا سنة ست وثلاثين ومائتين وألف فنزل برأس الماء واستدعاني للقيام بوظيفة التوقيت عنده قال: فدخلت عليه فإذا هو رجل طويل أبيض جميل الصورة، ففاوضني في مسائل من التوقيت وكان يحسنه فأجبته عنها فأعجبه ذلك، ثم وصلني بضبلونين وأخرج مجانته من جيبه ليحققها فرأيت مجدولها من صوف، ثم حضرت صلاة العصر فتقدم وصلى بنا فرأيت سراويله مرقعة، وكان إمام صلاته الراتب هو الفقيه السيد الحاج العربي الساحلي، لكنه صلى بنا تلك الصلاة، ولما فرغنا من الصلاة وانقلبنا إلى منازلنا جيء بالطعام وهو قصيعة من الكسكس عليها شيء من اللحم والخضرة، وليس معها غيرها قال: وكانت عادة المولى سليمان في السفر أن لا يتخذ كشينة أي مطبخاً إنما هو طعام يسير يصنع له ولبعض الخواص مما يكفي من غير إسراف، حتى أن الكتاب كانوا يقبضون ست موزونات ويعولون أنفسهم، وكانت أقواتهم وأزوادهم خفيفة اهـ.

وأما سياسته الخاصة في جبر القلوب، واستئلاف الشارد، وتسكين المرتاب، وإرضاء الولي، ومجاداة العدو، والدفاع بالتي هي أحسن عند اشتباه الأمور، ومعاناة الرجال بوجوده المكائد والحيل في الأمور التي لا ينفع فيها حرب ولا قوة فشيء لا يبلغ فيه شأوه ولا يشق غباره.

وأما عادته في الحرب فقد أخذ فيها بسيرة العجم بحيث لا يباشر

الحروب بنفسه، ويعمل بعمل أهل الصدر الأول فيقف في قلب الجيش كالجبل الراسي، وأمراؤه يباشرون الحروف بأنفسهم في الميمنة والميسرة، وهو ردء لهم كلما رأى فرجة سدها أو خللاً أصلحه، وهو كالصقر مطل على حومة الوغا، فإذا أمكنته فرصة انتهزها، ومن شدة ثباته وعدم تزحزحه أنه كان لا يركب وقت الحرب إلا البغلة، وبذلك جرى عليه في وقعة ظيان والشراردة ما جرى فكان حماته يفرون عنه بلا حياء ويبقى هو ثابتاً رحمه الله.

وأما جمعه لأشتات العلوم فلقد كان وارثاً من ورثة الأنبياء، حاملاً للواء الشريعة جامعاً مانعاً، إذا بوحث في الأخبار كان كجامع سفيان، أو في الأشعار فكنابغة ذبيان، أو في الفطنة والفراسة فكإياس، أو في النجدة والرأي فكالمهلب، وإذا خاض في السنة والكتاب أبدى ملكة مالك وابن شهاب، ولو تصدى في الفقه للفتيا والتدريس لم يشك سامعه أنه ابن القاسم أو ابن إدريس، وإذا تكلم في علوم القرآن أنهل بما يغمر مورد الظمآن.

قال صاحب البستان: ولا يعرف مقدار هذا السلطان إلا من تغرب عن الأوطان، وحمل عصا التسيار، ورمت به في الأقطار الأسفار، وشاهد سيرة الملوك في العباد، وما عمت به البلوى في سائر البلاد، ولا يتحقق أهل المغرب بعدله إلا بعد مغيبه وفقده.

المرء ما دام حيا يستهان به ... ويعظم الرزء في حين يفتقد

ومن آثاره الباقية وبناءاته العادية فبفاس المسجد الأعظم بالرصيف الذي لا نظير له، كان حفر أساسه المولى يزيد واشتغل عنه وتركه فافتتح هو عمله ببنائه وتشييده وأبقاه ديناً على الملوك، وبنى مسجد الديوان، كان صغيراً فهدمه وزاد فيه أملاكاً وجعله مسجداً جامعاً تقام فيه الجمعة، وبنى مسجد الشرابليين زاد فيه ووسعه وجعله مسجداً جامعاً كذلك، وبنى مسجد الشيخ أبي الحسن بن غالب وضريحه وبنى ضريح الشيخ أبي محمد عبد الوهاب التازي، وهدم مدرسة الوادي ومسجدها لتلاشيهما وجددهما على شكل آخر، وجدد المدرسة العنانية وأصلح مسجد القصبة البالية وبيضه بالجص وزلجه، وبنى باب الفتوح على هيئة ضخمة، وباب بني مسافر والباب الجديد

على براح أبي الجلود، وبنى القنطرة على الوادي بينهما، وجدد قنطرة الرصيف مرتين، وأصلح قنطرة وادي سبو، وأصلح طرقات فاس الجديد كلها من داخل وخارج ورصفها بالحجارة، وأصلح أبواب فاس الجديد كلها ورمم ما تلثم منها، وجدد قصور الملك الخربة بها وزاد غيرها وأمر بتبييض مساجد الخطب وتبليط أرضها، وبنى مسجد صفرو وجدد أسواره، وبنى لأهله حماماً به، وبنى مسجد المنزل ببني يازغة، وبنى مسجد وجدة وحماماً بها، وأصلح قلعتها ودار إمارتها، وبنى مسجد وازان ومسجد تطاوين وأخرج أهل الذمة من جواره وبنى لهم حارة بطريق المدينة، وبنى الصقائل والأبراج بطنجة، وجدد مسجد آصيلا وأسوارها، وجدد قصور الملك بمكناسة بعد تلاشيها وأصلح القناطر التي بين فاس ومكناسة، وبنى قنطرة على وادي سيدي حرازم بخولان، وبنى مسجد الجزارين بسلا ووقف عليه أوقافاً تقوم بمصلحته وأخرج يهودها من وسط البلد من حومة باب حسين، وبنى لهم حارة على حدتها غربي البلد، وبنى المسجد الأعظم بحومة السويقة من رباط الفتح وبنى دار البحر لنزوله، وبنى قنطرة وادي حصار بتامسنا، وبنى مسجد أبي الجعد بتادلا، وبنى قنطرة وادي أم الربيع وقنطرة تانسيفت بمراكش بعد سقوطها وبنى المسجد الأعظم الذي كان أسسه علي بن يوسف اللمتوني بمراكش وبناه بناء ضخماً وأزال منارته التي كانت به قديماً، وشيد منارة أخرى بديعة الحسن رائقة الصنعة، وأكمل مسجد الرحبة الذي كان أسسه والده رحمه الله ومات قبل تمامه، وجدد قصور والده بمراكش وأصلحها وصان القصبة وعمرها، ثم ختم رحمه الله ديوانه بالحسنة العظيمة، والمنقبة الفخيمة، وهي عهده بالخلافة لابن أخيه المولى عبد الرحمٰن بن هشام على كثرة أولاده ووجود بعض إخوته، ولعمري أن هذا العهد لمنقبة جليلة للعاهد والمعهود إليه، أما العاهد فإنا لم نسمع بعد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأحد من خلفاء الإسلام وملوكه عدل بولاية العهد عن ولده المستحق لها إلى غيره حتى كان هذا الإمام الجليل، الذي أحيا سيرة العمرين، نعم قد عهد سليمان بن عبد الملك لابن عمه عمر بن عبد العزيز

رحمهما الله، لكن حكى ابن الأثير أن سليمان لما حضرته الوفاة عزم أن يعهد لابن له صغير فوعظه رجاء بن حيوة فرجع عن ذلك وشاوره في ابنه داود وكان غازياً بالقسطنطينية فقال له رجاء: لا تدري أحي هو أم ميت، فحينئذٍ رجع إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وأما المعهود إليه فإن في العهد إليه دون الأبناء والإخوة شاهداً عدلاً على كمال فضله وإحرازه لخلال الخير وتبريزه فيها على من عداه من بني أبيه وعشيرته، ولعمري أن ذلك لكذلك فإن المولى عبد الرحمٰن بن هشام رحمه الله قد اشتهرت ديانته وأمانته عند القاصي والدان، حتى صار لا يختلف في عدالته اثنان.

**تم الجزء الثامن ويليه الجزء التاسع**

**وأوله**

**الخبر عن دولة أمير المؤمنين المولى عبد الرحمٰن بن هشام**

# فهرس الموضوعات

# فهرس الأعلام والقبائل

## حرف (أ)

## حرف (ب)

## حرف (ت)



## حرف (ج)

## حرف (ح)



## حرف (خ)



## حرف الدال



## حرف (ذ)



## حرف (ر)

## حرف (ز)



## حرف (س)



## حرف (ش)



## حرف (ص)



## حرف (ط)

## حرف (ظ)



## حرف (ع)

## حرف (غ)



## حرف (ف)



## حرف (ق)

## حرف الكاف



## حرف (ل)



## حرف (م)

## حرف (ن)



## حرف (هـ)



## حرف (ي)

# فهرس الأماكن

## حرف (أ)



## حرف (ب)

## حرف (ح)



## حرف (خ)



## حرف (د)



## حرف (ر)



## حرف (ز)

## حرف (س)



## حرف (ش)



## حرف (ص)



## حرف (ض)



## حرف (ط)

## حرف (ظ)



## حرف (ع)



## حرف (غ)



## حرف (ف)



## حرف (ق)



## حرف (ك)

## حرف (ن)



## حرف (هـ)



## حرف (و)



## حرف (ي)